

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

لَمْ يَغْزِ النَّبِيُّ صَاحِدًا

مَعَ النَّبِيِّ صَاحِدًا فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء السَّابِعُ وَالْثَمَانُونَ بَعْدَ الْمِائَةِ

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل صالح

أسواق الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله خالق السموات والأرض ، وهو نورهما وقيّمهما ، الحمد لله الذي وسع كل شئ علماً ، وجعل رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يستبشر ويبشر أصحابه حين نزل قوله تعالى ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(١) ، إذ قال : ابشروا أتاكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين^(٢).

الحمد لله الذي دعا الى المغفرة وهدى إلى طرقها ، ورغب فيها وبعث الأنبياء ليجاهدوا في سبل الإيمان لجذب الناس إلى منازلها ، ولاقوا من أجلها أشد ضروب الأذى من ذات الذين يريد لهم الأنبياء العفو والمغفرة والسلامة من العذاب في الآخرة .

الحمد لله الذي يعز ويرفع من يشاء من عباده بالعبادة والذكر والتقوى والعلم ، قال تعالى ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٣). الحمد لله الذي جعل الصبر طريقاً إلى الجنة والرضوان ، الذي منع الذين كفروا من مواصلة التعدي والهجوم على المدينة وقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لينشغلوا بالعبادة والذكر ، وتلاوة القرآن ،

(١) سورة الشرح ٥-٦.

(٢) الدر المنثور ١٠/٢٩١.

(٣) سورة المجادلة ١١.

وتثبيت أحكام الشريعة باتيان الواجب وإجتنب الحرام ، قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١).

ومن فضل الله في هذا التفسير إنشاء القوانين الكثيرة ، وتأسيس عناوين وموضوعات بكر مع البيان واستقراء الدلائل واستنباط المسائل لتكون منهاجاً ومدرسة للعلماء وأهل التحقيق ، وفيه شواهد متكررة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزات حسية لم تذكر كمعجزة في كتب التفسير والسنة .

الحمد لله الذي جعل الوقائع التي حدثت في أيام البعثة النبوية معجزات للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو أنها شواهد على المعجزة والمدد الإلهي له في تبليغه رسالته ، ومن أسرار النبوة عجز النبي وأصحابه عن تبليغ تمام الرسالة إلا بفضل ولطف ومدد من عند الله ، لذا نسب الله عز وجل كمال الدين إليه سبحانه ، إذ قال ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

وكان الغزو معروفاً عند العرب وهو الهجوم المباغت على ديار ومضارب العدو ، ونظام الكر والفر ، ومهاجمة العدو في عقر داره على نحو مفاجئ ، أو انتهاز فرصة مؤقتة كما في غياب الرجال عن البيوت . ووقعت حروب ووقائع كثيرة بين القبائل العربية قبل الإسلام مذكورة في كتب التاريخ وأغلبها لأسباب شخصية وبسيطة ولكن اشتعالها واتلافها للنفوس يستمر بسبب حمية الجاهلية الأولى ، منها حرب البسوس بسبب قيام الملك كليب بن ربيعة برمي ضرع الناقة البسوس التي تعود لحالة جساس لأنها كسرت بيض حمام في حماه أو رعت مع إبله .

(١) سورة الحشر ٧.

(٢) سورة المائدة ٣.

فقام جساس بقتل كليب فنشبت الحرب لتستمر أربعين سنة ، والمقل يقول عشرين سنة ، ومنها حرب داحس والغبراء بين قبيلة عبس وقبيلة فزارة في مسألة سباق بينهما ، وحدث غش فيه .

وقال المسعودي : فأما أيام العرب ووقائعها وحروبها فقد ذكرناها فيما سلف من كتبنا ، وما كان منها في الجاهلية والإسلام ، كيوم الببأة ، وحروب ذبيان وغطفان ، وما كان بين عبس وسائر العرب من نزار واليمن . وحرب داحس والغبراء ، وحرب بكر بن وائل وتغلب ، وهي حرب البسوس ، ويوم الكلاب ، ويوم خزاز ، ومقتل شاس بن زهير ، ويوم ذي قار ، ويوم شعب جبلة ، وما كان من بني عامر وغيرهم ، وحرب الأوس والخزرج ، وما كان بين غسان وعك^(١) .

وكانت أكثر هذه المعارك تقع بالغزو والهجوم المباغت على القرى وبيوت القبيلة الأخرى ، وكان العرب يبيتون كل ليلة بفزع وخشية من الهجوم ، والغزو ، ويمنعون عن أنفسهم الطعام كي يشتروا السلاح ، والعلف للخيول والإبل للقتال والغزو والدفاع إلى جانب تعرض العرب للإبادة الجماعية أو قل للضعف والتناقص ، وسهولة دخول أي قبيلة أو دولة للإستيلاء على أرضهم ، بل قد يقومون بأنفسهم بدعوة بعض الملوك والرؤساء للإستيلاء عليها ، بسبب شدة القتال فيما بينهم ، أو نكاية من الطرف المغلوب بالطرف الغالب ، وفيه تهديد للبيت الحرام ، ومنع من حج الناس إليه ، ومن الشواهد عليه مجئ أبرهة وجيشه ودفعه وهلاكه بمعجزة وآية من عند الله ، قال سبحانه ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾^(٢) .

(١) مروج الذهب ٢١٩/١ .

(٢) سورة الفيل ١ .

فجاءت بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة بالعرب والناس جميعاً وهي واقية للبيت الحرام الى يوم القيامة ، للفوز بالشواب العظيم بأداء حج البيت الحرام .

الحمد لله الذي جعل الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان ، وأكثر الناس فيها إبتلاء هم الأنبياء .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، وفي حديث آخر : يتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه^(١).

وقد اصطف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مدافعين عن الإسلام والنبوة في معركة بدر وأحد وغيرها من معارك الإسلام الأولى فهل كانوا على مرتبة واحدة من البلاء ، أم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر منهم بلاءً.

الجواب هو الثاني إذ يحمل مسؤوليات الرسالة والدعوة العامة للناس للإيمان ، وتلقي آيات وسور القرآن من عند الله لتبقى منهاجاً وضياءاً لأهل الأرض إلى يوم القيامة.

الحمد لله الذي جعل إمتناع جيش النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عن الهزيمة في أي معركة من معارك الإسلام شاهداً على صدق نبوته وزاجراً للناس عن إعانة رؤساء الشرك في قتالهم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو الذي تجلّى بعد معركة الخندق حتى اضطر المشركون للجلوس للتفاوض وعقد صلح الحديبية في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة ، وهو شهر حرام لبيان معجزة وهي من أسرار الإرادة التكوينية في عالم الأكوان وتعاقب الشهور والسنين تخصيص أربعة أشهر حرم من بين أشهر السنة ، يحرم فيها القتال وسفك الدماء ، قال

(١) تفسير ابن كثير ٣٥٩/٥.

تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِيهِ كِتَابَ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

لتكون الأشهر الحرم مناسبة لقيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتبليغ العلني والعام قبل وبعد الهجرة ، ومنها شهر ذي القعدة الذي تم فيه صلح الحديبية ، إذ خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه يريدون العمرة ، ولم يتم هذا الصلح إلا بعد صبر وجهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وتوالي نزول القرآن ، وهل يمكن القول أن كل آية نزلت بخصوصه كانت تدعو إلى هذا الصلح ، الجواب نعم.

الحمد لله حمداً متجدداً متصلاً ملازماً للشهيق والزفير في اليقظة والمنام.

الحمد لله أقصى غاية الحمد ، الحمد لله الذي أسأله أن يصاحبني الحمد ونفعه في الدنيا وعالم القبر ويوم القيامة.

وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار)^(٢).

ليكون الإكثار من الحمد لله تعالى ضياءً ينير القبر وآلة لتوسعته. الحمد لله العفو الحليم الذي تتوالى نعمه على العباد على كل حال ، وهو من أسرار مجئ البسملة بثلاثة أسماء من الأسماء الحسنى ﴿بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٣).

(١) سورة التوبة ٣٦.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٤٣٤/١٨.

(٣) سورة الفاتحة ١.

الحمد لله الذي له المحامد كلها ، ولا يقال سبحانه إلا له وحده .
الحمد لله الذي قهر الجبارين وأباد الظالمين ، وكانت النبوة والتنزيل
السبب فيه ، والمانع من تجرده.

الحمد لله الذي انعم علينا بهذا السفر الذي لم يشهد له التأريخ مثيلاً ،
ويختص بعلوم القرآن وفيه شاهد على أن علوم القرآن من اللامتناهي .
فتستقرأ منه المسائل وتستخرج من كنوزه الدخائر من غير أن يصيبها
النقص ، إنما تبقى تدعو العلماء المسلمين وغيرهم للنهل من خزائنه بما يفيد
أهل الأرض والأجيال المتعاقبة .

وبعد أن صدر الجزء (١٨٤) و (١٨٥) في قانون (التضاد بين القرآن
والإرهاب) في علم جديد ، وكشف لعصمة القرآن من أسباب الظلم
الذاتي والغيري والعام.

جاء الجزء السابق وهو السادس والثمانون بعد المائة في تفسير الآية
الكريمة من سورة آل عمران ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ
عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ
عَظِيمٌ﴾^(١) .

وصدر هذا الجزء ليلتحق بستة عشر جزءاً بخصوص قانون لم يغز
النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحداً ، إذ أنه يتضمن بعض المسائل عن
معركة أحد التي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يدافعون
فيها عن المدينة على بعد ثمانية كيلو مترات من المسجد النبوي ، إذ زحف
ثلاثة آلاف من المشركين لقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستئصال

الإسلام ، وقد قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١) ، وقال سبحانه ﴿وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(٢).

وفيه شاهد على أن مقدمات معركة أحد ونشوبها كلها بسبب إصرار المشركين على الظلم والتعدي والغزو ، فبعد أن كانت القبيلة تغزو أختها اجتمع المشركون على غزو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، وكانت الغاية من الغزو بين القبائل أمور :
الأول : القتل.

الثاني : السبي للرجال والنساء والصبيان.

الثالث : النهب.

الرابع : الثأر.

وهل أراد المشركون في معركة أحد الوجوه أعلاه ، الجواب نعم ، وهل كانوا يقصدون نهب المدينة في حال تمكنهم منه ، الجواب نعم ، فلقد كانت قلوبهم تمتلأ غيظاً على الأوس والخزرج لأنهم آووا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، وكان في المدينة اليهود وهم كل من :

الأول : بنو قريظة .

الثاني : بنو النضير .

الثالث : بنو قينقاع .

ولما انكشفت المدينة للمشركين في معركة أحد هل كانت بيوت اليهود ودكاكينهم تتعرض للسلب والنهب الجواب نعم ، إذ يقصد المشركون نهب

(١) سورة المائدة ٦٧.

(٢) سورة التوبة ٣٢.

الأسواق عامة ، قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(١).

ليان أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان يدافع عن أهل المدينة عامة ومنهم اليهود ، وهل كانت قريش ساخطة على اليهود لأنهم أبرموا عقود مصالحة ومهادنة مع النبي محمد.

الجواب نعم ، ومن بنودها مثلاً (وَأَنَّ الْيَهُودَ يَنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوْتَغُ إِلَّا نَفْسُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ)^(٢).

إذ يقر ويسلم اليهود بأن المسلمين مؤمنون ، وفيه شاهد على تصديقهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع بقائهم على ملتهم ودينهم ومن أسرار تلقي أهل المدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند عودته من معركة أحد بالغبطة لسلامته ونجاته لأنه دافع بنفسه وأهل بيته وأصحابه عن عموم أهل المدينة رجالاً ونساءً وأطفالاً ، وعن اليهود والمنافقين ، وعامة أهلها.

وهذا الدفاع من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) ، بلحاظ أن تجلي مصاديق الرحمة بالأقرب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قومه وبلدته وما حولها من باب الأولوية ، كما خص الله عز

(١) سورة النمل ٣٤.

(٢) سيرة ابن هشام ٥٠٣/١.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

وجل عشيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١).

ليان قانون وهو عدم خشية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من أهل بيته وأقاربه في إنذاره لهم ، مع بيان مسألة وهي استعدادهم لتلقي الإنذارات النبوية .

وفي الآية أعلاه دلالة على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يحث أهل بيته على القتال أو الغزو ، إنما أمره الله عز وجل أن ينذرهم ، ترى ما هو موضوع الإنذار ، الجواب من وجوه :

الأول : وأنذر عشيرتك الأقربين من الكفر والجحود .

الثاني : وأنذر عشيرتك الأقربين من إعانة الكفار في حربهم على النبوة والتنزيل.

الثالث : وأنذر عشيرتك الأقربين لقول الله تعالى ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

الرابع : وأنذر عشيرتك الأقربين من الصدود عن دعوتك.

الخامس : وأنذر عشيرتك الأقربين لحب الله عز وجل لهم إذ ذكرهم بإنذار مخصوص الى جانب الإنذارات العامة.

السادس : وأنذر عشيرتك الأقربين لأنهم رأوا المعجزات أكثر من غيرهم.

السابع : وأنذر عشيرتك الأقربين لينذروا الناس ، وهو من مصاديق تسمية مكة ﴿أُمُّ الْقُرَىٰ﴾ .

(١) سورة الشعراء ٢١٤.

(٢) سورة الانفال ٧٥.

ومن الإعجاز مجئ هذه التسمية بخصوص الإنذار ، قال تعالى ﴿وَتُنذِرُ أُمِّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(١).

الثامن : وأنذر عشيرتك الأقربين وغيرهم من الناس ، إذ أن اثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره.

التاسع : وأنذر عشيرتك الأقربين لأن من خصال الأنبياء الإنذار ، قال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾^(٢).

العاشر : وأنذر عشيرتك الأقربين بآيات القرآن وما فيها من الوعد والوعيد.

الحادي عشر : وأنذر عشيرتك الأقربين من الموت على الكفر وسوء العاقبة.

الثانية عشر : وأنذر عشيرتك الأقربين من مواطن الحساب والجزاء يوم القيامة قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٣).

وسورة الحج مكية غير ست آيات منها نزلت بالمدينة وهي قوله ﴿هَذَا نَارُ خُصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ

(١) سورة الأنعام ٩٢.

(٢) سورة الكهف ٥٦.

(٣) سورة الحج ١-٢.

حَدِيدٍ * كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوهَا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *
 إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهَدُوا إِلَى
 الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ (٢).

وهي السورة الوحيدة التي جاءت باسم فريضة عبادية ، وركن من أركان الإسلام.

فلم تأت في القرآن سورة باسم الصلاة أو الصيام أو الزكاة ، وفيه شاهد على موضوعية أداء فريضة الحج ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (٣)، فقد جعل الله عز وجل الحج بعرض واحد مع عموم الناس وحاجتهم للأهلة.

الثالث عشر : وأنذر بني هاشم وعامة قريش ، وعن الزبير بن العوام قال : لما نزلت {وأنذر عشيرتك الأقربين} (٤)، صاح رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي قيس : يا آل عبد مناف ، إني نذير فجاءته قريش ، فحذروهم وأنذروهم.

فقالوا : تزعم أنك نبي يوحى إليك ، وأن سليمان عليه السلام سخرت له الريح والجبال ، وإن موسى عليه السلام سخر له البحر ، وإن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى.

فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ، ويفجر لنا الأرض أنهاراً فتتخذها محارث ، فنزرع ونأكل ولا.

(١) سورة الحج ١٩-٢٤.

(٢) الكشف والبيان ١٧٦/٩.

(٣) سورة البقرة ١٨٩.

(٤) سورة الشعراء ٢٤.

فادع الله أن يحمي لنا الموتى فنكلمهم ويكلمونا وإلا.
 فادع الله أن يجعل هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فتنحت منها وتغنينا
 عن رحلة الشتاء والصيف ، فإنك تزعم أنك كهيتهم .
 فبينما نحن حوله ، إذ نزل عليه الوحي ، فلما سرى عنه الوحي قال :
 والذي نفسي بيده لقد أعطاني الله ما سألتهم ، ولو شئت لكان.
 ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم ، وبين أن
 يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة ولا يؤمن مؤمنكم.
 فاخترت باب الرحمة ويؤمن مؤمنكم ، وأخبرني إن أعطاكم ذلك ثم
 كفرتم يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين^(١).
 لقد نزلت الآية أعلاه في مكة فهل لها موضوعية بعد الهجرة النبوية بما
 يمنع من الغزو أو يقلل منه ، الجواب نعم من وجوه :
الأول : بقاء إنذارات النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين بني هاشم
 وعامة قريش.

الثاني : تناقل الناس لإنذارات النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
الثالث : لقد أراد الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
 أن يهاجر بيده ، ولكن إنذاراته باقية بين أهل مكة.
الرابع : تدبر أهل مكة بآيات القرآن التي تتضمن الإنذار والزجر
 والتوبيخ ، قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ تُجَبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾^(٢) ، قال
 تعالى ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ

(١) الدر المنثور ١٤/٦.

(٢) سورة القيامة ٢٠-٢١.

يَمَظَى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿١﴾ ، لَظَمَ اسْتِكْبَارَ وَعْتِ أَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابِهِ .

وكررت الآيات النفي لبيان إصرارهم على الكفر والجحود ، وقال تعالى ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسْوِيَّ بَنَانَهُ﴾ (٢) .

والبنان جمع بنانة وهي الأصبع ، وقيل طرف الأصبع ولو شاء الله لجعل أصابع الإنسان متساوية متصلة كخف البعير ، إنما جعلها الله عز وجل متفرقة ، وكل أصبع مستقلة في حركتها ليسهل على الإنسان تناول الأشياء ، مع كثرة العمل وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٣) .

وتدل الآية أعلاه على التباين عند الإنسان الواحد في بصمات الأصابع ، واختلافها بين الأفراد وأول من اكتشف هذه الظاهرة الصينيون بحدود سني ميلاد السيد المسيح ، إذ كان الأباطرة أنفسهم يختمون الوثائق ذات الأهمية ببصمات أصابعهم ، كما تم اكتشاف هذا السر في القرن التاسع عشر الميلادي في سنة ١٨٢٣ إذ بين عالم تشريح اسمه بركنجي (purkinje) أن الخطوط التي على الأصابع على ثلاثة أقسام :

الأول : على هيئة أقواس .

الثاني : على رسم دوائر .

الثالث : هيئة عقل .

الرابع : على شكل مركبات .

(١) سورة القيامة ٣١-٣٤ .

(٢) سورة القيامة ٣-٤ .

(٣) سورة التين ٤ .

ثم جاء الدكتور غالتون ليخبر عام ١٨٩٢ بأن صورة البصمة تصاحب صاحبها طيلة أيام حياته ولا تتبدل أو تتغير وقال فانه لا يوجد شخصان من بين الناس لهما نفس الخطوط والتعرجات الدقيقة ، ووجد علماء الآثار أن إحدى المومياء المصرية المحنطة احتفظت ببصماتها.

وقيل أن هذه الخطوط تظهر على أصابع الإنسان وهو في بطن أمه عندما يكون عمره نحو أربعة أشهر ، وهو موافق لما ورد عن عبد الله بن مسعود (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق : إن أحدكم ليُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك).

ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها.

وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها^(١).

وفي عام ١٨٩٣ تم تصنيف بصمات الأصابع ، وجعلت أصابع اليدين العشرة وحدة كاملة لتعيين وضبط هوية الشخص ، وهو من الإعجاز في صيغة الجمع في الآية الكريمة بلفظ ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾^(٢).

ولم يرد لفظ بنانه في القرآن إلا في الآية أعلاه.

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٧/٥.

(٢) سورة القيامة ٤.

وتتصف لغة الإنذار والوعيد في السور المكية بالتصعيد بلهجة التخويف مع بقاء صيغة الخطاب وهو أعظم نفعاً في الإنذار وأكثر وقعاً في النفوس ومن خصال الأنبياء الإجتهد في إنذار وتحذير قومهم ، من الكفر والضلالة ، وقد أكرم الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأمور في المقام :

الأول : نزول آيات القرآن بانذار قريش وأهل مكة.

الثاني : تعدد مصاديق الإنذار فتأتي تارة بالأمر كما في الدعوة إلى التوحيد وبيان أصول الدين ووجوب عبادة الله والتصديق بالنبوة والمعاد والعصمة من الشرك ، قال تعالى ﴿وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾^(١).

وتارة بالزجر عن الجحود والكفر ، وأخرى بالنهي عن الصدود عن الرسالة ، وبيان قبح هذا الصدود ، والتحذير من الشيطان ، إذ وردت مادة الشيطان ثلاثاً وخمسين مرة في السور المكية ، كما وردت في السور المدنية خمساً وثلاثين مرة ، منها ثلاث مرات في آية واحدة في ذم المنافقين قال تعالى ﴿اسْتَخُوذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٢).

وقيل المراد من غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس المعنى الموروث من الهجوم على القرى والمدن لأن الإسلام يمنع من هذا الغزو إنما المراد منه ملاقات العدو المهاجم ، ويقال غزا الشيء ، أراده وطلبه.

(١) سورة النحل ٣٦.

(٢) سورة المجادلة ١٩.

وقد وردت مادة (غزى) في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُنَبِّتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١)، والمراد الطلب وتفريق جمع العدو.

وذكرت صفة الغزو بالترديد بينها وبين الضرب في الأرض وطلب المعيشة ، مع تقديم الضرب والسعي للكسب والتجارة ، وبلحاظ المعنى اللغوي والترديد أعلاه ، وسيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الدفاع ، وعدم ابتدائه القتال .

فالمراد من الغزو هنا الدفاع وتشتيت حشد الذين ينوون غزو المدينة ، وعلى نحو الإحتمال فقد يخرجون ولا يقع قتال ، وهذه صفة أكثر كتائب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد ذكرت معارك الإسلام باسم الموضع كما في معركة بدر في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٢).

الحمد لله الذي جعل المهاجرين والأنصار يرتقون إلى مرتبة ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٣) بخروجهم إلى حمراء الأسد ومن غير أن يقع قتال ، لقد سمي هذا الخروج غزوة حمراء الأسد ، وليس فيها من شرائط ومعاني الغزو والهجوم ، إنما كانت كتيبة مرابطة إذ خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى حمراء الأسد للإحتراز من عودة الذين كفروا للهجوم على المدينة المنورة .

(١) سورة آل عمران ١٥٦.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

(٣) سورة آل عمران ١٧٢.

فبعد أن أصابت الجراحات النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في معركة أحد بلغ النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بأن المشركين يريدون العودة للهجوم على المدينة .

والمختار أن هذا التبليغ تم بواسطة جبرئيل ونزول الوحي ، وإن كانت نية وعزم المشركين على العودة للهجوم عندما كانوا في حمراء الأسد وهو من أسرار إقامة النبي ثلاثة أيام فيها ، وفيه باعث للصحابة على الإستجابة الفورية.

وبعد أن جاء الجزء السادس والثمانون بعد المائة من هذا السفر المبارك في تفسير الآية (١٧٩) من سورة آل عمران ، صدر هذا الجزء وهو السابع والثمانون بعد المائة من تفسيري للقرآن ، ويقع في قانون (لم يغز النبي محمد (ص) أحداً) هذا القانون الذي صدرت بخصوصه سبعة عشر جزءاً من هذا التفسير في قراءة لآيات القرآن ووقائع السنة النبوية بما يدل على إمتناع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الغزو ، إذ لا تصل النوية إليه لكفاية المعجزة كسبب وسبب للهداية ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾^(١).

حرر في الخامس عشر من شهر رمضان سنة ١٤٤٠ هجرية

٢٠١٩ / ٥ / ٢١

قانون القسم في السور الحكية برزخ دون سفك الدماء

ينحصر اليمين الشرعي بالخلف بالله عز وجل ، ولكن الله سبحانه أقسم بمخلوقاته وهو سبحانه ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾^(١) ، ومن فضل الله تذكيره العباد ببديع صنعه بأن جعلها محلاً لقسمه ، وقد لا تصل النوبة إلى القسم في معاني الواو كما في قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾^(٢) ، قال الفقهاء أن الواو هنا واو القسم ، والمختار أنها أعم من القسم ، إذ أنها تتضمن تذكير الله الناس ببديع خلقه ، وبراهين قدرته ، وشواهد توحيده كما تفيد الواو التأكيد في القول الذي يتبع القسم وذكر المخلوقات خاصة وأن نظم سورة الشمس لا يدل على القسم ، وقد عاب بعض المليين على المسلمين كيف أن الله يقسم بمخلوقاته حصراً للزوم بيان المقسم عليه ، والذي يحلف من أجله فعلاً أو تركاً أو تأكيداً .

وورد في العهد القديم (قد أقسم الرب بفخر يعقوب اني لن أنسى الى الابد جميع اعمالهم)^{(٣) (٤)}.

ومع أن سورة الشمس من قصار السور ، وعدد آياتها خمس عشرة آية فانها أكثر السور التي أقسم فيها الله عز وجل إذ أقسم بآيات كونية من بديع صنعه على القول بأنها للقسم ، وهي :
الأولى : الشمس وجلاها عند الضحى .

(١) سورة الأنبياء ٢٣.

(٢) سورة الشمس ١.

(٣) سفر عاموس أحد اسفار العهد القديم سمي على اسم أحد الأنبياء الإثني عشر الصغار ، وهو من معاصري هوشع وأشعيا ، ويرجع كتابة سفر عاموس إلى ما بين سنة ٧٦٠-٧٥٣ قبل الميلاد.

(٤) موسوعة الكتاب المقدس ٢٩٦/٣.

الثانية : القمر وتعزيده للشمس ، لبيان نكتة وهي أن القرآن يشير إلى إقتباس القمر نوره من ضياء الشمس .

الثالثة : النهار إذا كشف الأفق ، والأرض وأسباب الرزق وطلب المعاش ، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾^(١).

الرابعة : الليل وظلمته التي تتغشى الأفاق.

الخامسة : السماء وارتفاعها من غير عمد.

وجاءت الآيات للتذكير بما حلّ بالمكذبين من الأمم السالفة كما في قوله تعالى ﴿كَذَبَتْ ثُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا وَعَادُ فَأُهْلِكُوا بِالْبَرْحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾^(٢).

وتحتمل (ما) في قوله تعالى ﴿وَمَا بَنَاهَا﴾^(٣)، وجوهاً :

الأول : جاءت ما بمعنى (من) التي هي للعقلاء ، وجاءت (ما) لإفادة الوصف ، وتقدير الآية : والسماء والقادر الذي بناها ، أي أن الله عز وجل يقسم بالسماء وبنفسه لأنه هو الذي بنى وانشأ السماء.

الثاني : إفادة ما المصدرية ويؤول الفعل الذي بعدها بمصدر ومعنى الآية (والسماء وبنائها) وكذا في (وما طحاها) (وما سواها) وأشكل

(١) سورة يونس ٦٧.

(٢) سورة الحاقة ٤-١٠.

(٣) سورة الشمس ١.

الزمنخشري وقال (وليس بالوجه لقوله (فالهمها) وما يؤدي إليه فساد النظم^(١)).

ولكن ليس من فساد نظم على فرض إفادة (ما) المصدرية إنما رزق الله عز وجل الإنسان العقل لتمييز النفس بين حسن التقوى ، وقبح الفجور .
الثالث : إرادة الملائكة الذين وكلهم الله عز وجل بالسموات لقوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٢) ، أي بقوة ولعل منه واسطة الملائكة الذين هم جند الله .

وهو لا يتعارض مع الإنشاء بالمشيئة الإلهية بالكاف والنون ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٣).

الرابع : في الآية حذف ، وتقدير الآية والسماء وما بناها به .
والمختار الثالث والرابع أعلاه ، وقد ورد في الحديث اللغة أن (ما) لغير العاقل ، ولا مانع من إرادة العموم والإستثناء منها مع القرينة والدليل ، ويدل على إن الله عز وجل هو الذي بنى السماء قوله تعالى ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾^(٤).

السادسة : القسم بالأرض وبسطها ومدّها وتقدير الآية : والأرض وما طحاها به .

السابعة : القسم بالنفس ، وتسويتها وصلاحتها لقبول الخير .
والمراد من النفس في الآية بلحاظ صيغة التنكير وجهان :
الأول : إرادة نفس آدم ، إذ نفخ الله عز وجل فيه من روحه .

(١) الكشف ٢٩٥/٧ .

(٢) سورة الذاريات ٤٧ .

(٣) سورة يس ٨٢ .

(٤) سورة النازعات ٢٧-٢٨ .

الثاني : المقصود كل نفس ، والتنكير للكثرة والتساوي في تلقي فضل الله ورحمته .

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا تلا هذه الآية {ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها} ^(١) وقف ثم قال : اللهم آت نفسي تقواها أنت وليها ومولاها وخير من زكاها ^(٢).

ترتيب نزول السور المكية

تقسم سور القرآن من حيث أوان النزول الى قسمين :
الأول : السور المكية ، وهي السور التي نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل الهجرة النبوية سواء نزلت في مكة أو في حال سفر أو في الإسراء .

الثاني : السور المدنية ، وهي السور التي نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد الهجرة النبوية في المدينة أو في موضع آخر .
وتتصف السور المكية بأنها تدعو إلى التوحيد ، وإلى عبادة الله عز وجل والإيمان بالنبوة والتسليم بالبعث والنشور والحساب ، والثواب الجميل بالجنة ، والعقاب بالنار وعذابها .

وتتضمن هذه السور ذكر الأنبياء السابقين ، وقصص الأمم الغابرة للإعطاء منها وتتصف أكثر هذه السور بالقصر ، وقلة كلماتها .
وليس من حصر للغة الإنذار في السور المكية خاصة مع كثرتها وهي بحسب أوان النزول :

الأولى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ^(٣).

(١) سورة الشمس ٧-٨ .

(٢) الدر المنثور ١٠/٢٧٥ .

(٣) سورة العلق ١ .

الثانية : ﴿ز وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(١).

الثالثة : سورة المزمل.

الرابعة : سورة المدثر.

الخامسة : سورة تبت.

السادسة : سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾^(٢).

السابعة : سورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٣).

الثامنة : سورة ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾^(٤).

التاسعة : سورة ﴿وَالْفَجْرِ﴾^(٥).

العاشر : سورة ﴿وَالضُّحَى﴾^(٦).

الحادية عشر : سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾^(٧).

الثانية عشر : سورة ﴿الْعَصْرِ﴾^(٨).

الثالثة عشر : سورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾^(٩)..

الرابعة عشر : سورة الكوثر.

(١) سورة ن ١.

(٢) سورة التكويد ١.

(٣) سورة الاعلى ١.

(٤) سورة الليل ١.

(٥) سورة الفجر ١.

(٦) سورة الضحى ١.

(٧) سورة الشرح ١.

(٨) سورة العصر ١.

(٩) سورة العاديات ١.

- الخامسة عشر : سورة ألهاكم.
- السادسة عشر : سورة أرأيت.
- السابعة عشر : سورة الكافرون.
- الثامنة عشر : سورة ﴿الْم تَرَىٰ كَيْفَ فَعَلَ﴾^(١).
- التاسعة عشر : سورة الفلق.
- العشرون : سورة الناس.
- الحادية والعشرون : سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢).
- الثانية والعشرون : سورة ﴿وَالنَّجْمِ﴾^(٣).
- الثالثة والعشرون : سورة عبس.
- الرابعة والعشرون : سورة القدر.
- الخامسة والعشرون : سورة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾^(٤).
- السادسة والعشرون : سورة البروج.
- السابعة والعشرون : سورة ﴿وَالْتِينَ﴾^(٥).
- الثامنة والعشرون : سورة ﴿إِلِيلَافٍ﴾^(٦).
- التاسعة والعشرون : سورة القارعة.
- الثلاثون : سورة ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(١).

(١) سورة الفيل ١.

(٢) سورة الاخلاص ١.

(٣) سورة النجم ١.

(٤) سورة الشمس ١.

(٥) سورة التين ١.

(٦) سورة قريش ١.

الحادية والثلاثون : سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(٢).

الثانية والثلاثون : سورة ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ﴾^(٣).

الثالثة والثلاثون : سورة ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾^(٤).

الرابعة والثلاثون : سورة ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٥).

الخامسة والثلاثون : سورة ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾^(٦).

السادسة والثلاثون : سورة ﴿اِقْرَبْتُ السَّاعَةَ﴾^(٧).

السابعة والثلاثون : سورة ص.

الثامنة والثلاثون : سورة الأعراف.

التاسعة والثلاثون : سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾^(٨).

الاربعون : سورة يس.

الحادية والاربعون : سورة الفرقان.

الثانية والاربعون : سورة الملائكة.

الثالثة والاربعون : سورة مريم.

الرابعة والاربعون : سورة طه.

(١) سورة القيامة ١.

(٢) سورة الهمزة ١.

(٣) سورة المرسلات ١.

(٤) سورة ق ١.

(٥) سورة البلد ١.

(٦) سورة الطارق ١.

(٧) سورة القمر ١.

(٨) سورة الجن ١.

- الخامسة والاربعون : سورة الواقعة.
- السادسة والاربعون : سورة الشعراء.
- السابعة والاربعون : سورة النمل.
- الثامنة والاربعون : سورة القصص.
- التاسعة والاربعون : سورة بنى إسرائيل.
- الخمسون : سورة يونس.
- الحادية والخمسون : سورة هود.
- الثانية والخمسون : سورة يوسف.
- الثالثة والخمسون : سورة الحجر.
- الرابعة والخمسون : سورة الأنعام.
- الخامسة والخمسون : سورة الصافات.
- السادسة والخمسون : سورة لقمان.
- السابعة والخمسون : سورة سبأ.
- الثامنة والخمسون : سورة الزمر.
- التاسعة والخمسون : سورة المؤمن.
- الستون : سورة (حم السجدة).
- الحادية والستون : سورة (حم عسق).
- الثانية والستون : سورة الزخرف.
- الثالثة والستون : سورة الدخان.
- الرابعة والستون : سورة الجاثية.
- الخامسة والستون : سورة الأحقاف.
- السادسة والستون : سورة الذاريات.
- السابعة والستون : سورة الغاشية.
- الثامنة والستون : سورة الكهف.

التاسعة والستون : سورة النحل.

السبعون : سورة نوح.

الحادية والسبعون : سورة إبراهيم.

الثانية والسبعون : سورة الأنبياء.

الثالثة والسبعون : سورة {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} (١).

الرابعة والسبعون : سورة (الم السجدة).

الخامسة والسبعون : سورة الطور.

السادسة والسبعون : سورة (تبارك الملك) والتي تبدأ بعد البسملة

بقوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

السابعة والسبعون : سورة الحاقة.

الثامنة والسبعون : سورة سأل سائل.

التاسعة والسبعون : سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٣).

الثمانون : سورة النازعات.

الحادية والثمانون : سورة {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ} (٤).

الثانية والثمانون : سورة {إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ} (٥).

الثالثة والثمانون : سورة الروم.

الرابعة والثمانون : سورة العنكبوت.

الخامسة والثمانون : سورة المطففين.

(١) سورة المؤمنون ١.

(٢) سورة الملك ١.

(٣) سورة النبأ ١.

(٤) سورة الانفطار ١.

(٥) سورة الانشقاق ١.

فهذه خمس وثمانون سورة نزلت بمكة^(١).

وتستقرأ من ترتيب السور المكية مسائل في باب الإنذار والتخويف والوعيد للذين كفروا إذ تتضمن التشديد وتعدد الزجر ، وذكر قصص الأنبياء السابقين في إنذارهم قومهم ، وما نزل بالذين كذبوا الرسل ، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾^(٢).

ومن إعجاز القرآن أنه ابتداء بالنزول بالخطاب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتوجه الأمر له بالقراءة بقصد القربة الى الله ، قال تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٣).

ويحتمل تقدير الآية أعلاه وجوهاً :

الأول : اقرأ القرآن باسم ربك .

الثاني : اقرأ الكتب باسم ربك وبما فيه خير الدنيا والآخرة .

الثالث : المراد اتلو وبلغ القرآن باسم ربك .

وفيه حث للنبي على التحلي بالصبر والتحدي للذين كفروا بالعلم وليس بالقتال والغزو ، ثم نزل قوله تعالى ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(٤)،

(١) الفيروز ابادي / بصائر ذوي التمييز ٦٦/١ .

(٢) سورة النحل ٣٥-٢٦ .

(٣) سورة العلق ١ .

(٤) سورة ن ١ .

بيان أن الإسلام انتشر بتلاوة القرآن والعمل بأحكامه ، ونشر مبادئ الإيمان والصلاح ، وهل يدل قوله تعالى ﴿زَبَّ أَقْلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(١) ، وما فيه من القسم بالقلم الحث لتدوين السنة النبوية لأنها شعبة من الوحي ، الجواب نعم ، إلا أن يكون هناك دليل على الخلاف وهو معدوم ، ومعنى يسطرون أي يكتبون.

قانون وانتم أذلة ﴿وَأَتَمُّ أَذَلَّةٍ﴾ شاهد على أن المسلمين لم يغزوا

لقد وقعت معركة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة وانتصر بها المسلمون ، وانهزم المشركون شر هزيمة مع رجحان كفتهم بالأضعاف من جهات :

الأولى : عدد أفراد وكتائب المشركين أكثر من عدد أفراد وكتائب المسلمين .

الثانية : في عدد الخيل ، وعن ابن عباس (أن عليا قال له: ما كان معنا إلا فرسان: فرس للزبير وفرس للمقداد بن الاسود، يعنى يوم بدر وقال الاموى: حدثنا أبى، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن التيمى قال: كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر فارسان، الزبير بن العوام على الميمنة، والمقداد أبى الاسود على الميسرة).^(٢)

الثالثة : عدد الإبل (وكان مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعون بعيرا يعتقبونها فقط وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد يعتقبون بعيرا ؛ وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة - مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - يعتقبون بعيرا)^(٣) .

(١) سورة ن ١.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣٨٨/٢.

(٣) جوامع الكلم ١٠٨/١.

الرابعة : عدد الدروع والسيوف .

الخامسة : المؤمن والزاد .

وهل كون المشركين أضعاف المسلمين في العدد والعدة يوم بدر ، والنقص الموجود عند المسلمين من مصاديق الذلة التي ذكرت في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرْ وَأَتَمَّ أَذِلَّةً فَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) الجواب نعم .

ليكون من إعجاز الآية أن الذلة لا تنحصر بالكيفية النفسانية وأسباب الإستضعاف إنما تشمل العدد والعدة ، ويحتاج المقاتلون السواد والكثرة وإن لم يقاتلوا ، والماء والمؤمن ، وإن كانت على نحو الإحتياط والإحتراز . وهل يدل قوله تعالى ﴿وَأَتَمَّ أَذِلَّةً﴾ على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لم يقوموا بالغزو ، وليسوا هم الغزاة في معركة بدر ، الجواب نعم ، إذ كيف يقوم بالغزو الذليل في مقابل العدو المنيع والعزيز . ليكون قوله تعالى ﴿وَأَتَمَّ أَذِلَّةً﴾ شاهداً على أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم

عليه وآله وسلم لم يغزوا أحداً ، وأن المسلمين لم يغزو المشركين . وأن الدم الذي سال في معارك الإسلام الأولى كان يسبب أصرار الذين كفروا على القتل ، وإرادتهم إقامة الناس على الجحود والكفر . فلم يرض كفار قريش بترك النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشأنهم ونصبهم الأصنام في البيت الحرام ، إنما كانوا يحاربونه لأنه يدعو الناس إلى عبادة الله عز وجل الذي له ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) .

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨٩.

ومن مصاديق ملكية الله عز وجل للأرض أنه لا يرضى بمنع الناس عن عبادته إذ جعل الله عز وجل العبادة لله خلق الناس ، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) .

لتدل الآية أعلاه على قانون وهو أن الله عز وجل يبطش بالذي يصد الناس عن عبادته والذي يهتدي إلى الصراط المستقيم وسبل الصلاح والرشاد ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(٢) .

وسميت بدر الموعد لأن المسلمين تواعدوا بها مع أبي سفيان يوم معركة أحد .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى إن موعدكم بدر العام القابل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل من أصحابه قل نعم هو بيننا وبينكم موعد)^(٣) .

وفيه حجة على الذين كفروا بأنهم يصرون على مواصلة القتال ، ولا يخرجون من معركة إلا وضربوا موعداً لمعركة أخرى مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بدل الحوار ، والإحتجاج والإنصات لآيات القرآن .

ولم يرشوا بعقد الصلح إلا في السنة السادسة للهجرة بعد أن بان عجزهم وتفرق عنهم أتباعهم ، وكثر عدد المسلمين وإزداد إيمانهم .

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) سورة الحج ٢٥ .

(٣) الإكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله ٧٠/٢ .

كما تدل مواعدة أبي سفيان على حقيقة وهي أن الكفار لم ينتصروا في معركة أحد ، وأن المسلمين لم يهزموا فيها ، ولو كانوا منهزمين لما خاطبهم أبو سفيان ساعة انقضاء المعركة وتوجه بكلامه إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي أمر بعض أصحابه باجابهته إلى تهديده ووعيده .
وتحتمل موعدة أبي سفيان هذه وجوهاً :

الأول : إنها من الإرهاب .

الثاني : إنها من مقدمات الإرهاب .

الثالث : هذه الموعدة ليست من الإرهاب .

والصحيح هو الأول والثاني أعلاه .

لقد اتصفت أفعال كفار قريش بالإرهاب الخاص والعام ، الخاص للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والذين دخلوا الإسلام ، والعام لمن يناصرهم ، ومن ينوي دخول الإسلام ، ولم يكتفوا بهذا الإرهاب إنما اقترن بتعذيبهم للمؤمنين .

وفي شهر شعبان من السنة الرابعة للهجرة النبوية خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم لموعدة أبي سفيان في ألف وخمسمائة من أصحابه (وَحَمَلَ لَوَاءَهُ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأَنْتَهَى إِلَى بَدْرٍ فَأَقَامَ بِهَا ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ يَنْتَظِرُ الْمُشْرِكِينَ وَخَرَجَ أَبُو سُفْيَانَ بِالْمُشْرِكِينَ مِنْ مَكَّةَ وَهُمْ أَلْفَانِ وَمَعَهُمْ خَمْسُونَ فَرَسًا فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى مَرِّ الظُّهْرَانِ - عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ مَكَّةَ .

قَالَ لَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ : إِنَّ الْعَامَ عَامٌ جَذِبَ وَقَدْ رَأَيْتُ أَنِّي أَرْجِعُ بِكُمْ فَانْصَرَفُوا رَاجِعِينَ وَأَخْلَفُوا الْمَوْعِدَ فَسَمِيَتْ هَذِهِ بَدْرُ الْمَوْعِدِ وَتُسَمَّى بَدْرَ الثَّانِيَةِ ^(١) .

ولم يكن مع النبي وأصحابه سوى عشرة أفراس ، نعم لقد دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم معركة أحد بسبعمائة من المهاجرين والأنصار ، بينما خرج إلى بدر الموعد ومعه أكثر من ضعف هذا العدد ليكون من دلالات إجابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لدعوة أبي سفيان ببيان كثرة عدد المسلمين ، وتجلي إخلاصهم في سنن الإيمان ، ولقد نزل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(١) قبل بدر الموعد ، للدلالة على نماء روح الإخلاص والتفاني في الدفاع عند المسلمين .

ومن الآيات أن قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ نزل بعد معركة بدر وليس قبلها ، لإخبار الآية عن نصر المسلمين في معركة بدر .

ولا يختص هذا الوصف بأوان المعركة ، ولا يعني أنهم تخلصوا من حال الذل الذي يفيد الضعف والقلّة والنقص في العدد والعدة عند تحقق النصر في معركة بدر فبعد ثلاثة عشر شهراً من معركة بدر وقعت معركة أحد ، وكان عدد جيش المشركين أكثر من أربعة أضعاف عدد جيش المسلمين ، والفارق في الخيل والعدة أكبر وأوسع ، فان قلت كيف يكون المسلمون أذلة ومعهم الملائكة مددا لنصرتهم .

الجواب قد أخبرت الآيات عن نزول الملائكة لنصرتهم ، كما أن قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾^(٢) شاهد على حال النقص في العدد والعدة عند المسلمين .

(١) سورة آل عمران ١٤٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٢٣ .

قانون أدلة عدم خسارة المسلمين معركة أحد

لقد وقعت معركة أحد في الخامس من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة وسميت بهذا الاسم لأنها وقعت عند جبل أحد ، وهو جبل معروف من جبال المدينة ولا يزال يحمل هذا الاسم ، سمي به لتوحيده ، وانفصاله عن جبال أخرى في ذات المنطقة ، وعن أبي حميد (عن أبي حميد قال: أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: " هذه طابة وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه)^(١).

وهل في هذا الحديث شاهد على أن المسلمين لم يخسروا معركة أحد الجواب نعم ، وأن لحقتهم خسارة كبيرة في الأرواح إذ فقدوا يومئذ سبعين شهيداً مع كثرة جراحات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ولكنهم لم يخسروا المعركة ، ويدل على عدم خسارتهم المعركة وجوه :

الأول : نجاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القتل يوم معركة أحد مع كون هذا القتل هو الغاية الأولى من هجوم مشركي قريش في معركة أحد ، وقد استبشر أهل المدينة رجالاً ونساءً بعودة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من معركة أحد مع عظيم المصيبة التي حلت بهم بفقد تسعة وأربعين شهيداً من الأنصار وحدهم .

وكانت عودة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من معركة أحد على بيوت طائفة من الأنصار ، منهم بنو النجار الذين كانت بيوتهم مجاورة للمسجد النبوي من جهة البقيع لتخرج النسوة للإطمئنان على سلامة شخصه الكريم .

(عن سعد بن أبي وقاص ، قال: مر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بامرأة من بنى دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٤/٤١.

الله صلى الله عليه وآله وسلم بأحد، فلما نعو لها قالت: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قالوا: خيرا يا أم فلان هو بحمد الله كما تحبين.

قالت: أرونيه حتى أنظر إليه.

قال: فأشير لها إليه حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدك جلل^(١).
تريد أن المصيبة التي حلت أو تحل بهم هي قليلة ما دام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن في سلامته أمور :
أولاً : حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرائي أهل المدينة ، وهو نعمة عظيمة اختصوا بها من بين الأجيال .

ثانياً : العز والرفعة للمؤمنين ليدرك المسلمون والمسلمات قانوناً وهو أن سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القتل يوم أحد من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .

وتتضمن الآية أعلاه مسائل في المقام :

الأولى : لله العزة .

الثانية : لرسول الله العزة ، وهل المراد من الرسول في الآية أعلاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أم كل الرسل ، المختار هو الأول لنظم الآيات في ذم المنافقين ، نعم تبين الآية حكماً عاماً وقانوناً يشمل الأنبياء والرسل جميعاً ، وكذا بالنسبة للمؤمنين .

الثالثة : للمؤمنين العزة .

وهل يمكن تحقق أفراد العزة هذه بمصداق واحد ، الجواب نعم ، ومنها نصر المسلمين في معركة بدر وسلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل في معركة أحد ، وعدم هزيمة المسلمين في المعركة .

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٤١/٤ .

(٢) سورة المنافقون ٨ .

فسلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عزة لله عز وجل ، وعزة لرسوله وعزة للمؤمنين والمؤمنات ، فلذا نطقت هذه الأنصارية على لسان الأنصار بأن مصائبهم تهون بعودة النبي صلى الله عليه وآله وسلم سالماً من ميدان المعركة .

وفيه شاهد على دخول الإيمان إلى قلوب الأنصار ، وإرتقائهم في سلم المعرفة الإلهية .

ثالثاً : إعطاء رسالة إلى الذين كفروا بأن الأنصار دافعوا عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقدموا الشهداء في سبيل الله ويدافعون عنه في كل معركة يقدم على قيامها واشعالها الذين كفروا .

لقد بلغ أهل المدينة رجالاً ونساءً أن المشركين يريدون قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأن هذا القتل هو الغاية الكبرى لهجومهم ، فأظهروا التفاني في الدفاع عنه ، ليكون من مصاديق بعث اليأس والفرح في قلوب الذين كفروا ، وهذا التفاني من مصاديق قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ يَنْسِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾^(١) .

رابعاً : إقامة صلاة الجماعة في المسجد النبوي بامامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد انفرد هذا المسجد بخصوصية وهي أن أكثر صلاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كانت فيه ، وكان يسميه مسجدي ، ورغب في الصلاة فيه ، وشاء الله عز وجل أن يكون قبره ملاصقاً للمسجد ثم داخلا في عمارته ، لتشتاق النفوس في المشرق والمغرب لزيارته .

ووردت النصوص عن النبي بالحث على زيارة مسجده والصلاة فيه ، وزيارة قبره والسلام عليه .

وعن (سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقال الآخر: هو مسجد قباء فأتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فسألاه، فقال: "هو مسجدي هذا" تفرد به أحمد أيضا. ^(١)

(عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره مائة ألف صلاة، وفي مسجدي ألف صلاة، وفي مسجد بيت المقدس بخسمائة صلاة.

وأخرج ابن ماجة عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: صلاة الرجل في بيته بصلاة، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة، وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخسمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة، وصلاته في مسجدي بخمسين ألف صلاة، وصلاته في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة) ^(٢).

وهل الصلاة في التوسعة الحديثة للمسجد النبوي، وفي الساحات الملحقة به بذات الأجر والثواب لمن صلى فيه، الجواب نعم، إذا كان متصلاً بالجماعة التي في المسجد أو لضيق المكان والخرج والزحام داخل المسجد إذ تلحق بالمسجد بالتبعية كل من ساحة وفناء ودهليز وسرداب وسطح المسجد إلا مع القرينة على الخلاف.

(عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من زار قبري وجبت له شفاعتي) ^(٣).

(١) تفسير ابن كثير ٢١٤/٤.

(٢) الدر المنثور ٣٨٦/٢.

(٣) الدر المنثور ٣٦٣/١.

(عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان يوم القيامة زفت الكعبة البيت الحرام إلى قبري فتقول : السلام عليك يا محمد ، فأقول : وعليك السلام يا بيت الله ما صنع بك أمتي بعدي؟ فتقول : يا محمد من أتاني فأنا أكفيه وأكون له شفيعاً ، ومن لم يأتني فأنت تكفيه وتكون له شفيعاً^(١)).

رابعاً : استدامة وتوالي نزيل آيات القرآن ، وكل آية معجزة ، ومنها الآيات التي نزلت بخصوص معركة أحد والتي تدل على أن المسلمين لم يخسروا معركة أحد ، وفي تلاوة هذه الآيات مسائل :

الأولى : الشكر لله عز وجل على نعمة السلامة من الهزيمة .

الثانية : تدبر المسلمين في وقائع المعركة ، والانتفاع منها في قادم الأيام ، فقال تعالى ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَبَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لَّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

فوقعت معركة حنين في السنة الثامنة إذ تعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لهجوم مباغت من قبل جيوش هوازن وثقيف فينسحب ويولي أفراد الكتائب المتقدمة إلى الوراء ويبقى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مكانه وهو من أشد حالات الخطر على القائد أن ينكشف للعدو ، وقبلما انكشف قائد للعدو ، ونجى من القتل أو الأسر خاصة إذا كان معروفاً بهيئته للطرف الآخر.

ونادى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه في الرجوع والعودة إلى المقدمة فأحاطوا به ، واجتمع حوله نحو ثلاثمائة منهم فاشتد القتال ، وحمي الوطيس .

(١) الدر المنثور ٢/٣٦٣.

(٢) سورة آل عمران ١٥٣.

(وذكر موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح الله عليه مكة وأقر بها عينه، خرج إلى هوازن وخرج معه أهل مكة لم يغادر منهم أحدا ركبانا ومشاة، حتى خرج النساء يمشين على غير دين نظارا ينظرون ويرجون الغنائم، ولا يكرهون مع ذلك أن تكون الصدمة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه.

قالوا: وكان معه أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية، وكانت امرأته مسلمة وهو مشرك لم يفرق بينهما.

قالوا: وكان رئيس المشركين يومئذ مالك بن عوف النصري (وقد اسلم مالك فيما بعد وحسن اسلامه)^(١).

ومعه دريد بن الصمة يرعش من الكبر، ومعه النساء والذراري والنعم، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن أبي حدر عينا، فبات فيهم فسمع مالك بن عوف يقول لأصحابه: إذا أصبحتم فاحملوا عليهم حملة رجل واحد، واكسروا أغماد سيوفكم، واجعلوا مواشيكم صفا ونساءكم صفا.

فلما أصبحوا اعتزل أبو سفيان وصفوان وحكيم بن حزام وراءهم ينظرون لمن تكون الدائرة، وصف الناس بعضهم لبعض، وركب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغلة له شهباء، فاستقبل الصفوف فأمرهم وحضهم على القتال وبشرهم بالفتح - إن صبروا - فبينما هم كذلك إذ حمل المشركون على المسلمين حملة رجل واحد.

فجال المسلمون جولة ثم ولوا مدبرين، فقال حارثة بن النعمان: لقد حذرت من بقى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أدبر الناس فقلت: مائة رجل.

(١) ابن عبد البر / الأنباء عن قبائل الرواة .

قالوا: ومر رجل من قریش بصفوان بن أمية فقال: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجتبرونها^(١) أبداً.

فقال له صفوان: تبشرني بظهور الأعراب، فوالله لرب من قریش أحب إلى من رب من الأعراب. وغضب صفوان لذلك.

قال عروة: وبعث صفوان غلاماً له فقال: اسمع لمن الشعار، فجاءه فقال: سمعتهم يقولون: يا بني عبد الرحمن يا بني عبد الله، يا بني عبيد الله.

فقال: ظهر محمد.

وكان ذلك شعارهم في الحرب.

قالوا: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما غشيه القتال قام في الركابين وهو على البغلة فرفع يديه إلى الله يدعوه ويقول: "اللهم إني أنشدك ما وعدتني، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا".

ونادى أصحابه وزمرهم: "يا أصحاب البيعة يوم الحديبية الله الله الكرة على نبيكم" ويقال حرضهم فقال: "يا أنصار الله وأنصار رسوله، يا بنى الخزرج يا أصحاب سورة البقرة" وأمر من أصحابه من ينادي بذلك^(٢).

(١) أي نزلت بهم فاقة ومصيبة لا تجبر وتتدارك ومنه اسمه جابر و(الإجبار: أن تجبر الإنسان على ما لا يريد وتكرهه. وجبرته أيضاً: بمعنى أجبرته. والجبر: أن تجبر كسراً، جبرته فجبر وجبر. وجبرته فاجتبر: إذا نزلت به فاقة فأحسنّت إليه، واستجبرته. وأصابته مصيبة لا يجتبرها: أي لا مجبر لها. وتجبر الرجل: عاد من ماله بعض ما ذهب منه. والجبور: الانجبار المحيط في اللغة ١١٤/٢.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٦٢٥/٣.

وهل كان للآيات القرآنية التي وثقت معركة أحد موضوعية وأثر في رجوع صحابة النبي إلى المقدمة والقتال ، الجواب نعم ، وهو من الإعجاز الغيري لآيات القرآن .

الثالثة : بعث الخوف في قلوب الذين كفروا ، وصيرورتهم على علم باحتراز وحيلة المسلمين ، لتكون آيات معركة بدر وأحد من مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾^(١) فيأتي الخطاب في الآية القرآنية للمسلمين ولكن نفعه أعم .

الرابعة : الأجر والثواب بتلاوة آيات معركة أحد .

الخامسة : استحضار ما لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من الأذى .

السادسة : التدبر بمعجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدفاعية فيمكن تأليف مجلدات خاصة من جهات :

الأولى : معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معركة بدر بلحاظ وجوه :

أولاً : مقدمات المعركة .

ثانياً : الآيات التي نزلت بخصوص المعركة .

ثالثاً : وقائع المعركة .

رابعاً : نتائج وآثار المعركة .

وكذا بالنسبة لمعارك الإسلام الأولى ليتجلى بخصوص معركة أحد أن المشركين هم الذين كانوا يستعدون للمعركة ، واختصوا بأمور كلها حجة عليهم ، وهي :

الأول : التدريب والتمرين وشحن الأسلحة للمعركة مدة سنة كاملة.

الثاني : إلقاء الكفار القصائد والأشعار في التحريض على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام.

الثالث : إنفاق المشركين الأموال الطائلة على الإعداد للمعركة ، إذ مشى بعض رؤساء قريش إلى أبي سفيان وأرباب الأموال في قافلته وسألوهم أن يجعلوا أموال قافلته في حرب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإنفاق على الجيوش التي تتوجه الى معركة أحد فابدوا رضاهم ، بينما لم يكن عند المسلمين فائض من الأموال والمؤن ينفقونها على تجهيزات ومؤن القتال ، ليكون نزول قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾^(١) ، بشارة لصيرورة المال والخييل والسلاح عند المسلمين وتناقص المعارك والقتال بين المسلمين والمشركين ، وتراكم الخشية والخوف عند المشركين ، قال تعالى ﴿جُنُودٌ مِمَّا هَزَمُوا مِنْ الْأَحْزَابِ﴾^(٢).

فهل يمكن القول أن قلة عدد المسلمين وأسلحتهم وعلمهم بأنها في ازدياد مطرد سبب لتعجيل قريش بالقتال في معركة بدر .

الجواب نعم ، فلقد أدركت قريش أن قلوب الناس تميل إلى الإسلام ، وأن الشباب ذكوراً وأنثاء يدخلون فيه جماعات ، ويقومون بهداية عوائلهم وأصدقائهم لجذبهم للإيمان ، وتكون تلاوة القرآن وأداء الصلاة وبيان معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حديثهم اليومي في المسجد الحرام والمتنديات والبيوت ، وفي طرق السفر مما أصاب كفار قريش بالفرع والهلع .

(١) سورة الانفال ٦٠.

(٢) سورة ص ١١.

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَّأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١) بلوغ دعوة الأنبياء إلى الناس في بلدهم وغيره ، وتكون معجزات نبي الزمان حديث الناس ، وهذا الحديث من المقدمات لبعثه الرسول اللاحق ، لذا حينما بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كانت قريش على علم إجمالي بأخبار عدد من الأنبياء منهم إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى عليهم السلام ، وما جاءوا به من عند الله والمعجزات التي جرت على أيديهم وما لاقوه من الأذى .

وقد طلبت قريش من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم معجزات مثل معجزات الأنبياء السابقين الحسية .

الرابع : لقد اختارت قريش التعجيل بالهجوم الكاسح فجهزوا جيشاً من ثلاثة آلاف رجل ، ولم يخرج لقتالهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلا بعد أن صاروا على مشارف المدينة وعلى بعد ثمانية كيلو متر من المسجد النبوي ، وأقل من هذه المسافة بالنسبة لأطراف المدينة ، ولم يلقاهم في ميدان المعركة سوى سبعمئة من المسلمين مع نقص ظاهر في السلاح والخيول والإبل ، ليصير قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم واستباحة المدينة قرية منهم لولا العصمة وفضل الله ، وليكون ما ورد حكاية عن يعقوب في التنزيل ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٢) ، بشارة لنجاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد .

لقد كان المشركون عازمين على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهل هو من الإرهاب بمعناه الإصطلاحي في هذا الزمان ، الجواب

(١) سورة النساء ١٦٥.

(٢) سورة يوسف ٦٤.

نعم ، ولم يأتهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا بالهداية والحكمة والأمن والسلامة في الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، ليكون من خصال الذين كفروا حربهم على الذين يريد مصلحتهم ونفعهم في الشأنتين ، ففضل الله عز وجل واستأصل الكفر من جوار البيت الحرام ومنع من استدامته وانتشاره .

أما بالنسبة لثانياً أعلاه فإن آيات عديدة نزلت بخصوص معركة أحد ، وتبين وقائعها كيف أن المسلمين هم الذين انتصروا في بداية المعركة ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ ^(١) .

وهم المشركون بالفرار مع كثرة عددهم وقد أنعم الله عز وجل على المسلمين بسقوط حملة لواء المشركين واحداً بعد الآخر ، وكأنهم يتعاقبون على رفعه ليقتلوا ، وفيه إعلان لإنحسار الكفر ، لولا أن الرماة المسلمين تركوا مواضعهم التي جعلهم فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاءت خيالة المشركين من خلف جيش المسلمين فكثرت فيهم القتل ، واقترب العدو من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصارت حجارته تصل إليه ، وأصابته الجراحات في وجهه ورأسه وسقطت بعض أسنانه الأمامية ، وسال الدم على وجنته وخده الشريف .

(وَلَمَّا مَصَّ مَالِكُ أَبُو أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ جُرْحَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَنْقَاهُ قَالَ لَهُ مُجَّةٌ " قَالَ وَاللَّهِ لَا أُمِجُّهُ أَبَدًا ثُمَّ أَدْبَرَ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا) ^(٢)

(١) سورة آل عمران ١٥٢ .

(٢) زاد المعاد ٣/ ١٨٠ .

وقاتل نفر من المهاجرين والأنصار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهم مصعب بن عمير الذي حينما قتل ظن ابن قمئة أنه قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١)، فرجع إلى قريش وهو ينادي قتل محمدًا ، وكأنه شبه للذين كفروا كما شبه بخصوص عيسى بن مريم ، قال تعالى ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾^(٢) .

إنما رجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ليتم تبليغ رسالته ، ويتوالى عليه نزول آيات القرآن ، وتشيع أنوار الإيمان في ربوع الجزيرة ، وتكون معركة أحد وآياتها موعظة للأجيال ، وشاهدًا بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يغز أحدًا ، وأنه والمسلمون كانوا في حال دفاع .
ويحتمل المستقرأ من آيات معركة أحد وجوهاً :

الأول : تبين الآيات عدم خسارة المسلمين لمعركة أحد .

الثاني : لم تتعرض آيات معركة أحد لمسألة نتيجة معركة أحد ، وهل كانت نصراً أو خسارة للمسلمين .

الثالث : لقد خسر المسلمون معركة أحد، ولكن الله عز وجل أكرمهم فلم يذكر هذه الخسارة تصريحاً .

الرابع : بيان آيات معركة أحد لخسارة المسلمين في المعركة ، ولكنهم لم يخسروا المعركة .

والصحيح هو الأول والرابع ، إذ تبين هذه الآيات أن المسلمين لم يخسروا معركة أحد ، وإن أصابتهم الجراحات وفقدوا سبعين شهيداً ، قال

(١) أنظر الروض الأنف ٢٥٨/٣ .

(٢) سورة النساء ١٥٧-١٥٨ .

تعالى ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُوا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُوا كَمَا تَأْمُونُوا وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(١).

لقد كان رجاء رحمة الله وحده نصراً وتوفيقاً وضياءً في مستقبل الأيام ، لذا بادر المسلمون إلى الخروج في اليوم التالي لمعركة أحد متعقبين المشركين بعد أن بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن المشركين يريدون العودة للقتال والإغارة على المدينة .

وتدل وقائع معركة أحد على قانون وهو ثبات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله وسلم ونفر من أصحابه في ميدان القتال ، هذه النعمة العظيمة التي حرم منها المشركون في معركة بدر إذ انهزموا في ميدان المعركة مع أنهم هم الذين بدأوا القتال وأصرروا عليه لبيان قانون وهو أن عاقبة الإرهاب إلى خسار وبوار .

ومع أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه اضطروا لدخول معركة أحد ، وتلقوا خسارة كبيرة إلا أنهم لم ينهزموا من ساحة المعركة ، ولم يتركوا الميدان للمشركين وحدهم تجول بهم خيلهم ، إنما بقي النبي صابراً حتى اضطر أبو سفيان لإعلانه الانسحاب من المعركة ، مع إقتران هذا الإعلان بتمجيده للأصنام ، ومخاطبته للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة الإصرار على الكفر والتحدي إذ قال (حين أراد الانصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال أُنْعِمْتَ فَعَالَ وَإِنَّ الْحَرْبَ سَجَالٌ يَوْمَ يَوْمٍ أَعْلُ هَيْلٌ أَيْ أَظْهَرُ دِينِكَ ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قُمْ يَا عُمَرُ فَأَجِبْهُ ، فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلٌ ، لَأَ سَوَاءَ قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَاكُمْ. فَلَمَّا أَجَابَ عُمَرُ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ هَلُمَّ إِلَيَّ يَا عُمَرُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ إِنَّهُ فَاظْطَرَّ مَا

شأنه ؛ فجاءه فقال له أبو سفيان أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمداً ؟ قال عمر اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن^(١).

وهبل من أكبر الأصنام التي كانت في جوف الكعبة وهو من العقيق الأحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى ثم وضعت له قریش يداً من ذهب .

وقيل أول من نصبه عمرو بن لحي جاء به إلى مكة من موضع هيت من العراق فنصبه على البئر وهو الأخسف .

والجب الذي حفره إبراهيم في بطن الكعبة ليكون خزانة للبيت يلقي فيه ما يهدي إليها^(٢) ، وكان هبل من أعظم الأصنام عند قریش ، وكان الصنم الأكبر في البيت ، ووضعوا قدامه سبعة أقداح مكتوب في أولها : صريح والآخر ملصق ، وإذا أراد بعضهم سفراً أتاه فاستقسم بالأزلام عنده .

وقيل أن خزيمة بن مدركة وهو الجد الرابع عشر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أول من نزل مكة من مضر فوضع هبل في موضعه ، ولا أصل لهذا القول .

لقد أنعم الله عز وجل على الناس برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتنتزیه البيت الحرام من الأصنام ، فأشهر المشركون السيوف ووقعت معركة بدر ثم معركة أحد ، ويبقى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته وتبليغ رسالته وسعيه لإزاحة الأصنام من البيت الحرام .

ومن الشواهد على عدم خسارة المسلمين لمعركة أحد عودة المشركين منها بالخينة والندامة والحسرة مع فقد اثنين وعشرين رجلاً منهم ، قال تعالى ﴿لَيَقَطَّعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٣).

(١) السيرة لابن هشام ٩٤/٢.

(٢) أنظر أخبار مكة للأزرقي ٨٣/١.

(٣) سورة آل عمران ١٢٧.

ونزلت الآية أعلاه في معركة أحد ولكن موضوعها عام كما يمكن تفكيك موضوعها في حالات أخرى فمرة يهلك الله طائفة من الذين كفروا وأخرى يكبت الذين كفروا من غير قتال كما لو رأوا دخول الناس في الإسلام فنزل قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١)، لكبت وإغابة الكفار . وهل يختص قوله تعالى ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢)، برجوع الكفار من ميدان المعركة بالخيبة والندامة أم الانقلاب بالمعنى الأعم من السفر ومن المنتدى والسوق ، الجواب هو الأخير لأصالة الإطلاق .

قانون معاداة كفار قريش للصلاة

لقد أبى الله عز وجل إلا أن تكون الصلاة مصاحبة لوجود الإنسان في الأرض ، فعندما يتمادى الذين كفروا ويحاربون الصلاة ينزل بهم البلاء ، ويظهر الله عز وجل أهل الإيمان ، قال تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾^(٣) ، وفي الآية إنذار للذين يمنعون الصلاة.

وقد أمر الله عز وجل بتعاهد الصلاة في كل زمان وأنها وظيفة أهل الإيمان ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٤).

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحرص على أداء الصلاة جماعة في حال الحضر والسفر ، ولم يشغله عن أدائها في أوقاتها شيء ، وهو من معجزاته ، والشواهد على صدق نبوته ، وعن سعيد بن المسيب عن أبي

(١) سورة الفتح ١.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

(٣) سورة اعلق ٩-١٠.

(٤) سورة الحج ٤١.

هَرِيرَةً أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَفَلَ مِنْ غَزْوَةِ خَيْبَرَ فَسَارَ لَيْلَةً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْكَرَى عَرَسَ وَقَالَ لِبِلَالٍ : اكْمُلْ لَنَا اللَّيْلَ ، فَصَلَّى بِلَالٌ مَا قَدَّرَ لَهُ وَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابُهُ فَلَمَّا تَقَارَبَ الْفَجْرُ اسْتَنَدَ بِلَالٌ إِلَى رَاحِلَتِهِ مُوَاجِهَ الْفَجْرِ فَغَلَبَتْ بِلَالًا عَيْنَاهُ وَهُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى رَاحِلَتِهِ فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ بِلَالٌ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى ضَرَبَتْهُمْ الشَّمْسُ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَهُمْ اسْتَيْقَازًا فَفَزِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَيُّ بِلَالٌ ، فَقَالَ بِلَالٌ أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ : اقْتَادُوا ، فَاقْتَادُوا رَوَّاحِلَهُمْ شَيْئًا ثُمَّ تَوَضَّأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَرَ بِلَالًا فَأَقَامَ الصَّلَاةَ فَصَلَّى بِهِمُ الصُّبْحَ فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ قَالَ : مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١)(٢).

كما ورد في خبر ابن اسحاق عن الزهري عن سعيد بن المسيب والحديث ضعيف للإرسال لأن سعيد بن المسيب تابعي ، ولضعف ابن اسحاق (٣).

والمشهور روايته عن سعيد بن المسيب مرسلاً وروى الحديث عن عمران بن الحصين ولم يعين السفر إنما قال (كنا في سفر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وانا سرنا ليلة حتى إذا كنا في آخر الليل وقعنا تلك الوقعة ولا وقعة احلى عند المسافرين منها قال فما ايقظنا الا حر الشمس) (٤).

(١) سورة طه ١٤.

(٢) سنن ابن ماجه ٤٤٢/٢.

(٣) سنن ابن ماجه ٤٤٢/٢ كما رواه الترمذي ٤٤٧/١١.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ٢١٨/١.

وكذا عن قتادة ، وروي عن ابن مسعود بأنه في طريق العودة من الحديبية وهو بعيد لأن عدد المسلمين كان يومئذ نحو ألف وأربعمائة ، فلا يمكن أن يناموا كلهم قبل الفجر بساعة مثلاً ولا يستيقظ أي منهم قبل أن تضربهم الشمس ، وأكثر منه بعداً ما رواه الطبراني بأن الواقعة في طريق تبوك إذ كان عدد المسلمين ثلاثين ألفاً ، وكان الجوع وقلة الزاد ظاهرة عندهم مما يقل معه النوم الغالب على الجميع ، وقيل في العودة من حنين وهو بعيد أيضاً إذ كان عدد المسلمين اثني عشر ألفاً وكلهم يعشقون أداء الصلاة في وقتها ، ولا يدل هذا التعدد في أوان الواقعة على تعدد القصة.

إن النبي وأصحابه عند عودتهم من تيماء بعد أن صالح أهلها على الجزية سروا ليلتهم يمشون إلى قبيل الصبح فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فعرّس^(١).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ألا رجل صالح حافظ لعينه يحفظ لنا صلاة الصبح ، لبيان حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أداء صلاة الصبح في أول وقتها ولتأديب الصحابة وأجيال المسلمين على تعاهدها حتى في حال السفر والتعب والعناء (فقال بلال: أنا يا رسول الله! قال: فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه ووضع الناس رءوسهم، وجعل أبو بكر الصديق يقول لبلال: يا بلال احفظ عينك! قال: فاحتيت بعباءتي واستقبلت الفجر، فما أدري متى وضعت جنبتي إلا أنني لم أستيقظ إلا باسترجاع الناس وحر الشمس)^(٢).

فأطمئن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوضع رأسه ونام ونام أصحابه وقام بلال يصلي ف صلى ما شاء الله ثم احتبى بعباءته ، بأن جلس وجعل ركبتيه عند صدره ولفها بعباءته ، وصار يرقب الفجر الصادق

(١) عرس المسافر أي نزل آخر الليل للنوم والإستراحة .

(٢) مغازي الواقدي ١/ ٢٩٠.

وظهور الضياء الأفقي ، فغلب عليه النعاس ، ولم ينتبه بلال إلا باسترجاع المسلمين وحر الشمس (وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ أَصْحَابِهِ هَبَ فَقَالَ مَاذَا صَنَعْتَ بِنَا يَا بِلَالُ ، قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخَذَ بِنَفْسِي الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ ، قَالَ صَدَقْتَ .

ثُمَّ اقْتَدَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بَعِيرَهُ غَيْرَ كَثِيرٍ ثُمَّ أَنَاخَ فَتَوَضَّأَ وَتَوَضَّأَ النَّاسُ ثُمَّ أَمَرَ بِلَالًا فَأَقَامَ الصَّلَاةَ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ فَلَمَّا سَلَّمَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ إِذَا نَسِيتُمْ الصَّلَاةَ فَصَلُّوْهَا إِذَا ذَكَرْتُمُوهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

لَذِكْرِي﴾ (١) (٢).

لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يحرص على أداء الصلاة في أوقاتها وأظهر أهل البيت والصحابة ذات الحرص على الصلاة ، وكان فيه نوع تحد لقريش وسلطتها فأغاظهم الأمر وجهزوا الجيوش لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فكانت معركة بدر ثم معركة أحد التي بذل قريش الوسع في الإعداد لها مدة سنة كاملة ، ضعفت فيها تجارتهم ، ونقص عدد قوافلهم التي تسير إلى الشام ، وقل عدد الإبل والبضاعة فيها بسبب إنشغالهم بالحرب ضد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهل كان هذا النقص متعمداً من قريش لتهيج ملك الروم وحاشيته وتجار الشام على قتال النبي بأنه يتعرض لقوافل قريش في طريقها إلى الشام.

(١) سورة طه ٤١.

(٢) ابن هشام / السيرة النبوية ٣٤٠/٢.

الجواب نعم ، وقد ادعوا في أسباب معركة بدر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه تعرضوا لقافلة أبي سفيان يريدون الإستيلاء عليها .

وكثير من معارك التاريخ أو تأجيحها والمشاركة فيها لأسباب اقتصادية واستدراج لأطراف من غير أصل عقلائي لهذه القتال والمشاركة فيه وسفك الدماء وهو من مصاديق احتجاج الملائكة على خلافة الإنسان في الأرض إذ قالوا ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾^(١) ، فاجابهم الله ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢) ، لبيان استئصال القتال وسفك الدماء ببعثة الأنبياء ونزول الكتب السماوية التي تتضمن إصلاح المجتمعات ، وتنمية ملكة الخشية من الله التي هي ضد للتجراً بالظلم وسفك الدماء ، وفيها إزاحة لهما .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : سأل موسى ربه عن ست خصال ، كان يظن أنها له خالصة ، والسابعة لم يكن موسى يحبها . قال : يا رب أي عبادك أتقى ، قال : الذي يذكر ولا ينسى . قال : فأبي عبادك أهدى ، قال : الذي يتبع الهدى .

قال : فأبي عبادك أحكم ، قال : الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه . قال : فأبي عبادك أعلم ، قال : عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه .

قال : فأبي عبادك أعز ، قال : الذي إذا قدر غفر . قال : فأبي عبادك أغنى ، قال : الذي يرضى بما يؤتى . قال : فأبي عبادك أفقر ، قال : صاحب منقوص^(٣)^(١) .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) منقوص أي يستقل ما عنده وما يأتيه ، ويطلب الزيادة والفضل .

لقد جعل الله عز وجل القراءة جهرية في شطر من الصلوات في قوله تعالى ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٢)، ويجب المحافظة الإجمالية على الصلاة وشرائطها وأجزائها ، فلا بد من تعاهد واجبات الصلاة ومنها الجهر في الصلوات أعلاه ، وفيه تحد للذين كفروا ، وشاهد على الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ببيان قانون وهو ليس من تقية في تلاوة آيات القرآن والجهر بها ، والله عز وجل هو الذي يصرف أذى الذين كفروا في المقام .

فكانت قریش تؤذي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي في البيت الحرام قبل الهجرة ، وارادوا خنقه وقتله وهو ساجد لينصره الله عز وجل فأمره بالهجرة ثم دخل مكة في السنة الثامنة للهجرة .

(وَأَمْرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِلَالَا أَنْ يَصْعَدَ فَيُؤْذَنَ عَلَى الْكَعْبَةِ وَأَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَعَتَّابُ بْنُ أُسَيْدٍ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَأَشْرَافُ قُرَيْشٍ جُلُوسٌ بِفَنَاءِ الْكَعْبَةِ .

فَقَالَ عَتَّابٌ لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ أُسَيْدًا أَلَا يَكُونُ سَمْعَ هَذَا فَيَسْمَعُ مِنْهُ مَا يُغِيظُهُ .

فَقَالَ الْحَارِثُ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أَعْلِمُ أَنَّهُ حَقٌّ لَاتَّبَعْتُهُ فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ أَمَا وَاللَّهِ لَا أَقُولُ شَيْئًا لَوْ تَكَلَّمْتُ لَأَخْبَرْتُ عَنِّي هَذِهِ الْحَصْبَاءُ فَخَرَجَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُمْ " قَدْ عَلِمْتُ الَّذِي قُلْتُمْ " ثُمَّ ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُمْ .

فَقَالَ الْحَارِثُ وَعَتَّابٌ نَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا أَطَّلَعَ عَلَى هَذَا أَحَدٍ كَانَ مَعَنَا فَتَقُولُ أَخْبَرَكَ^(٣) .

(١) صحيح ابن حبان ٤٧٥/٢٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٣٨ .

(٣) زاد المعاد ٣٥٦/٣ .

ومع قول عتاب بن أسيد هذا فقد ولاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مكة ، وعمره إحدى وعشرين سنة وهو من مسلمي الفتح (رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام أسيد بن أبي العيص والياً على مكة مسلماً ، فمات على الكفر فكانت الرؤيا لولده عتاب حين أسلم ، فولاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة ، وهو ابن إحدى وعشرين سنة ورزقه كل يوم درهماً) ^(١).

فقام أسيد وخطب الناس فقال (أيها الناس أجاع الله كبِدَ مَنْ جَاعَ عَلَى دَرْهِمٍ ، فَقَدْ رَزَقَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دَرْهِمًا كُلَّ يَوْمٍ فَلَيْسَتْ . بِي حَاجَةٌ إِلَى أَحَدٍ) ^(٢).

فبعد إجهاد قريش بالتجارة وجمع الأموال واكتناز الذهب والفضة وتسليف القبائل بالربا افتخر أمير مكة بأجرته درهما في اليوم وأخبر أن فيه كفايته ، وأراد الإخبار عن زهده وغبطته بالإسلام ، وزجر الذين يريدون رشوته أو التزلف إليه بالمال وسيلة لما رب أخرى . وأقام النبي بمكة بعد فتحها تسعة عشر يوماً يقصر فيها الصلاة مع أنها محل ولادته وفيها البيت الحرام .

ولم يسع في قتل أشخاص أو مصادرة أموالهم ، ولم ينتقم لحصارهم له ولبنو هاشم ثلاث سنوات في شعب أبي طالب ، بل ولم يعاتبهم عليه ، ولم يعرض عنهم لأنه جاء برسالة سماوية يجب تبليغها ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ^(٣).

(١) الروض الأنف ١٧٢/٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٥٠٠/٢.

(٣) سورة المائدة ٦٧.

كتيبة حمراء الأسد

لقد كانت المعارك تشب بين القبائل العربية لأسباب شخصية لتستمر لسنوات ويكثر فيها القتلى إلى جانب تعطيل الأعمال وقيام رجال القبيلة بالحراسة والمراقبة ، وإحتمال وقوع النساء والصبيان بالسبي ، وإن كان فيها نوع تخفيف ، إذ أن القبيلة التي تخشى الثأر وغزو غيرهم لديارهم تمتنع عن الغزو ، وقد وقعت معركة البسوس بين قبيلة بكر بن وائل مع قبيلة تغلب بن وائل وحلفائها من بني شيان بعد رمي الملك كليب بن ربيعة سيد تغلب لناقاة اسمها البسوس تعود لحالة جساس الذي قام بقتل كليب ثأراً لقتل الناقاة .

ومن أيام حرب البسوس : يوم النهي ، ويوم الذنائب .
ثم التقوا يوم واردات فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فظفرت تغلب أيضاً ، وكثر القتل في بكر ، فقتل همام بن مرة بن ذهل بن شيان أخو جساس لأبيه وأمه ، فمر مهلهل ، فلما رآه قتيلاً قال : والله ما قتل بعد كليب أعز علي منك ، وتالله لا تجتمع بكر بعدكما على خير أبداً . وقيل : إنما قتل يوم القصيات ، قبل يوم قضة ، قتله ناشرة ، وكان همام قد التقطه ورباه وسماه ناشرة ، وكان عنده .

فلما شب علم أنه تغلبي ، فلما كان هذا اليوم جعل همام يقاتل فإذا عطش جاء إلى قربة له يشرب منها فتغفله ناشرة فقتله ولحق بقومه تغلب ، وكاد جساس يؤخذ فسلم ، فقال مهلهل :

لو أن خلي أدركتك وجدتهم ... مثل الليوث بسترغب عرين
ويقول فيها :

ولأوردن الخيل بطن أراكة ... ولأقضين بفعل ذاك ديوني
ولأقتلن جحاجحاً من بكركم ... ولأبكين بها جفون عيون

حتى تظل الحاملات مخافة ... من وقعنا يقذفن كل جنين^(١).

لتستمر المعارك بينهم أكثر من عشرين سنة ، وقيل استمرت أربعين سنة ، إذ بدأت سنة ٤٩٦ ميلادية ، وتقدمت الإشارة إليها في المقدمة ومن تلك المعارك يوم النهي وهو ماء لبني شيبان .

ومنها يوم داحس بين عبد قيس وفزارة ، ويوم النساء بين حنبة بن تميم وأيام الفجار بين بكر بن وائل و تميم ويوم ذي قار بين بني عبس وذييان ابني بغيض ، وهو غير معركة ذي قار بين بني شيبان وكسرى ابرويز .

ويوم خزار وهو من أشد أيام العرب ، وقع بين معد ومذحج ، وخزار جبل بين البصرة ومكة .

وغيرها كثير ، فبعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ليسود السلام الجزيرة ببركة التنزيل والبيت الحرام ، وهل لعبادة العرب الأصنام موضوعية في إبتلائهم بالقتال فيما بينهم ، ولأسباب شخصية وبسيطة ، الجواب نعم .

فمع التوجه العام لعبادة الله تنتفي العصبية وتزول الكدورة وتسود الحكمة وتشيع صبغة السلم الأهلي ، وتتجلى معاني المودة ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ﴾^(٢).

ومن الدلائل أن الصحابة دافعوا في معركة بدر وأحد صفاً واحداً ، وعندما عادوا من معركة أحد ، ومع كثرة خسائرهم لم تحدث فتنة بينهم ، ولم تخرج أصوات تستنكر القتال للتسليم العام بأنه كان دفاعاً وضرورة وحاجة ، وحتى المنافقين عجزوا أن يظهروا صوتاً للإنكار واكتفوا بالعودة من وسط الطريق من المعركة

(١) الكامل في التاريخ ١٨٤/١ .

(٢) سورة مريم ٩٦ .

مع ما فيه من الخزي والذل ، وأراد رئيسهم وهو عبد الله بن أبي بن أبي سلول وحمية منهم التدارك والخروج في اليوم الثاني لمعركة أحد في ملاحقة جيش المشركين فمنعهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقانون من السنة النبوية ، إذ قال (لَا يَخْرُجُ مَعَنَا إِلَّا مَنْ شَهِدَ الْقِتَالَ" فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي : أَرْكَبُ مَعَكَ.

قَالَ : لَا فَاسْتَجَابَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْقَرْحِ الشَّدِيدِ وَالْخَوْفِ وَقَالُوا : سَمْعًا وَطَاعَةً.

وَاسْتَأْذَنَهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَحِبُّ أَلَّا تَشْهَدَ مَشْهَدًا إِلَّا كُنْتُ مَعَكَ وَإِنَّمَا خَلَفَنِي أَبِي عَلَى بَنَاتِهِ . فَأَذِنَ لِي أَسِيرُ مَعَكَ فَأَذِنَ لَهُ ^(١) كما سيأتي بيانه .

لقد انسحبت جيوش المشركين من معركة أحد من دون مؤن أو تحقيق أي غاية انفقوا الأموال الطائلة من أجلها ، قال تعالى ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ^(٢) ، ولا يزال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في الميدان ، وأراد أبو سفيان تغطية هزيمته فنادى (إن موعدكم بدر العام القادم فقال رسول الله لرجل من أصحابه : قل : نعم هي بيننا وبينك موعدا) ^(٣).

ومن الإعجاز في حديث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعلاه أنه لم يقل هو بيننا وبينكم بصيغة الجمع للمخاطب ، إنما خصّ أبا سفيان وحده ، ليكون من معانيه مسائل :
الأولى : دخول طائفة من المشركين الإسلام .

(١) زاد المعاد ٣/٢١٦.

(٢) سورة الرعد ٣٣.

(٣) سيرة ابن اسحاق ٣٠١/١.

الثانية : تعيين موعد اللقاء والقتال من قبل أبي سفيان شاهد على أنهم هم الغزاة ، ولم ينصرفوا عن غزوة إلا ويحددوا أوان غزوة أخرى .

الثالثة : لم يجر اتفاق بين قيادات جيش المشركين على اللقاء في معركة لاحقة إنما هو رأي وتهديد وعزم على القتال من قبل أبي سفيان .

الرابعة : رد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم باجابة التحدي من المصاديق العملية لقوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِأَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْمِنُ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

لقد كان أبو سفيان يظن سكوت النبي وأصحابه أو خشيتهم من تهديده لأنهم كانوا في حال خسارة وكثرة جراحات فجاء الجواب سريعاً بالإجابة لتحديه .

الخامسة : بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم البشارة وهي حلول العام القادم والمسلمون في عز ، وتدارك للجراحات واستعداد لملاقاة العدو.

السادسة : رد النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاهد على أنه لم يغز المشركين ، ولم يسع لقتالهم ، وأنهم هم الذين يختارون أوان ومحل القتال.

السابعة : في رد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بصيغة المفرد (بيننا وبينك) وعيد لأبي سفيان من وجوه منها تخلي أصحابه عنه ، وتعرضه للقتل إن خرج لذات الموعد في بدر

، وهو الذي أدركه أبو سفيان فحينما جاء الموعد خرج أبو سفيان وأصحابه من مكة ولكن عادوا من وسط الطريق ، وتخلفوا عن الحضور في بدر الموعد بعد أن عجزوا عن جمع الرجال ، ودبّ الفزع في صفوفهم ، وبعثوا رجلاً اسمه نعيم إلى المدينة ليقول لهم أن قريشاً أعدوا لكم جيوشاً لا قبل لكم بها ، ولكن قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١) ، قد نزل قبل هذه الواقعة.

بينما بقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في ماء بدر ثمانى ليال ، وفيه استحضار لفضل الله بالنصر في معركة بدر (فقال حسان :

دعوا فلجات الشام قد حال دونها ... جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدي رجال هاجروا نحورهم ... وأنصاره حقا وأيدي الملائك
إذا سلكت للفور من رمل عاج ... فقولاً لها ليس الطريق هنالك
أقمنا على الرس النزوع ثمانيا ... بأرعن جرار عريض المبارك
بكل كميت جوزه نصف خلقه ... وقب طوال مشرفات الحوارك
ترى العرفج العادي تذري أصوله ... مناسم أخفاف المطي الرواتك
فإن تلقى في تطوافنا و التماسنا ... فرات بن حيان يكن رهن هالك
وإن تلقى قيس بن امرئ القيس بعده... يزد في سواد لونه لون حالك
فأبلغ أبا سفيان عني رسالة ... فإنك من غر الرجال الصعالك^(٢) .
وسياتي مزيد بيان في الفصل الخاصة بكتيبة بدر الموعد .

(١) سورة آل عمران ١٧٣.

(٢) السيرة لابن اسحاق ٢٩٦/١.

مقدمات كتيبة حمراء الأسد

لم يغادر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ميدان معركة أحد إلا بعد أن اطمأن بأن جيش المشركين انسحب إلى مكة ، ولم تكن عندهم نية الإغارة على المدينة بخيلهم التي تصل إليها قبل وصول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو الهجوم على المدينة من خلف جبل أحد ، بينما يسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه على الإبل الهوينى بسبب الجراحات . لقد كان انسحاب المشركين من ميدان معركة أحد عيداً للصحابة لأنهم فازوا بعودة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم معهم ، ولأن إخوانهم الذين قتلوا في المعركة شهداء أحياء عند الله عز وجل يرزقون ، قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾^(١).

لقد كان سبب كتيبة حمراء الأسد هو ما بلغ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بأن المشركين يريدون إعادة الكرة في معركة أحد وتم هذا التبليغ بالوحي ولكن بالهجوم على المدينة وأهلها ، فاذا كانوا في معركة أحد أقاموا عند سفح جبل أحد وصاروا يعيثون بزرع أهل المدينة ، إنما أرادوا الرجوع لغزو المدينة وقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد التفتوا إلى مسألة وهي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يفر ولا ينهزم فاذا ما غزوا المدينة فسيجدونه فيها ليقتلوه ، ولم يعلموا أن الله عز وجل جعل ملائكة تحرسه ، وبعث الخوف في قلوب المشركين وجعل التلاوم بينهم لا يرقى عن عالم القول والندامة فلم يستطيعوا إعادة الكرة على المدينة .

(عن ابن عباس قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم . بثسما صنعتم ارجعوا . فسمع رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم بذلك ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد^(١).

وقال الثعلبي (أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا عن المسلمين من أحد فبلغوا الروحاء ، ندموا على انصرافهم وتلاوموا .

وقالوا : لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتن قتلتموهن حتى لم يبق منهن إلا الشريد ، تركتموهن ارجعوا فاستأصلوهن ،

فبلغ ذلك الخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأراد أن يرهب العدو ويريه من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان ، فقال : ألا عصابة تشدد لأمر الله تطلب عدوها فإنها أنكأ للعدو وأبعد للسمع فانتدب عصابة منهم مع ما بهم من الجروح والقروح الذي أصابهم يوم أحد^(٢).

ترى كيف بلغ الخبر النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وقد عاد من معركة أحد بعد أن أطمأن بأن جيش المشركين ركبوا الإبل وتوجهوا إلى مكة ، وقال ابن عطية في تفسيره في سبب نزول قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْسَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣).

و(أنه لما ارتحل أبو سفيان بالكفار بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب عليه السلام ، وقال : انظر القوم ، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وركبوا الإبل فهم متشمرون إلى مكة ، وإن كانوا على الخيل فهم عائدون إلى المدينة ، فمضى علي فرآهم قد جنبوا الخيل فأخبر رسول

(١) الدر المنثور ٤٩٦/٢.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢٨٢/٣.

(٣) سورة آل عمران ١٥١.

الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فسر وسر المسلمون ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة فتجهز واتبع المشركين يريهم الجلد^(١).

فلا بد أن جبرئيل هو الذي أخبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم أنه لا يندب أصحابه لخروج خلف العدو إلا بالوحي خاصة في مثل هذه المسألة الإبتلائية العظمى ، إذ تغشت الجراحات أصحابه ودخل الحزن بيوت المدينة لفقد سبعين منهم ، وإذا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ينادي في صبيحة اليوم التالي لمعركة أحد بمطاردة ثلاثة آلاف من جيش المشركين مدججين بالسلاح ، ومنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين لم يخرجوا معه إلى معركة أحد والذين انسحبوا من وسط الطريق من الخروج معه ، مع حاجته الشديدة للسواد والسالمين من الجراحات ، مما يدل على أن هذا المنع من الوحي .

ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن أخبار المشركين تصل إليه بالوحي وعن طريق الركبان والمعتمرين والحجاج ، ومن أسبابه وجوه :

الأول : نزول آيات القرآن في كشف وفضح مكر الذين كفروا .

الثاني : مطلق الوحي إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : ميل الناس إلى الإسلام .

الرابع : نفرة الناس من الظلم الذي عليه قريش .

الخامس : استهجان الناس لمحاربة قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وآله وسلم .

السادس : فضل الله في تسخير الناس للنبوة والتنزيل ، قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(١).

السابع : قيام الذين يدخلون الإسلام حديثاً بالإخبار عما وراءهم ، ومنهم من كان من أصحاب القرار في مكة والقبائل التي حولها .

الثامن : إرسال المسلمين الذين بقوا في مكة أخبار أهلها ، وما يقوم به المشركون من التجهيز للقتال والمكر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في المدينة .

التاسع : ذهاب بعض المسلمين إلى مكة لتقصي الأخبار .

العاشر : وجود قبائل متحالفة مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومع بني هاشم خاصة يقوم أفرادها المسلم والكافر منهم باعانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في قبيلة خزاعة .

الحادي عشر : إدراك كثير من الناس اقتراب فجر الإسلام وإطلاقاته على مكة والجزيرة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٢).

فمن خصائص النصر الذي يأتي من عند الله عز وجل ويوثقه القرآن إحاطة الناس به علماً واستقراء المسائل منه ، ومن قوانين نصر الله أنه ليس من هزيمة بعده ، ومن فضل الله أن آية (بدر) لم تقل (ولقد انتصرتم ببدر) أو (ولقد نصرتكم ببدر) إنما ذكرت أموراً :

الأول : الإخبار عن نصر المسلمين .

الثاني : توجه الخطاب في الآية إلى المسلمين وليس النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحده .

(١) سورة المدثر ٣١.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

الثالث : نسبة النصر إلى الله عز وجل .

الرابع : البعث على التقوى بعد النصر ، وقال تعالى ﴿لَنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١).

وتسمى هذه الكتيبة غزوة حمراء الأسد ، وليس فيها ما يدل على أنها غزوة أبداً من جهات :

الأولى : خروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد يوم واحد من معركة أحد وهو مثقل بالجراحات .

الثانية : كثرة جراحات أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنهم من كانت به سبعون إصابة .

الثالثة : فقدان سبعين شهيداً من المسلمين ودخول المصيبة والعزاء إلى بيوت المدينة (قال ابن إسحاق: ومر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدار بنى عبد الأشهل، فسمع

البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: " لكن حمزة لا بواكي له " .

فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير إلى دار بنى عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف، عن بعض رجال بنى عبد الأشهل قال: لما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهن في باب المسجد يبكين فقال: " ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن " .^(٢)

(١) سورة إبراهيم ٧.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٩٤/٣.

ولم يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إحدى أمهات المؤمنين بالخروج لشكر نساء الأنصار على تعزيتهن ومواساتهن بعمه حمزة ، بل خرج بنفسه إليهن مع كثرة جراحاته ، لبيان شكره وإكرامه لهن ، فمع مصيبتهم بفقد الأعزة جئن لمواساة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
لقد ذكر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عمه حمزة عندما سمع نساء بني عبد الأشهل يرثين قتلاهن من الأنصار ليوصل رسالة إلى بيوت الأنصار رجالاً ونساءً أنه أصيب مثلهم ، وأنه فقد عمه حمزة بن عبد المطلب في المعركة .

فتلقى الأنصار هذه الرسالة والمواساة بالقبول والرضا ، وفيه دلالة على إنشغال بيوت المدينة بالصدمة الشديدة والمصيبة العظمى بفقد سبعين من الأنصار والمهاجرين ، فالأصل ألا يخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في اليوم التالي للغزو والهجوم ، ولكنه اضطر للدفاع عن أهل المدينة عامة بالخروج إلى حمراء الأسد عندما بلغه نبأ عزم جيش الكفار على العودة في الطريق للإغارة على المدينة .

لقد انسحب جيش المشركين من معركة أحد في ذات يوم المعركة مع أن الرجحان في القتال كان لكفّتهم ، ولكن الله عز وجل وعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بأن يلقي الخوف والفرع والرعب في قلوب المشركين ، قال تعالى ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشِّرِ الْمُظَالِمِينَ ﴾ (١) .

وتعجل الكفار في طريق العودة من المعركة وهم يمينون أنفسهم بما حققوه في المعركة من تدارك لهزيمتهم في أول المعركة وبالمقارنة مع فرارهم وخسارتهم في معركة بدر التي جرت قبل ثلاثة عشر شهر من معركة أحد .

وعندما ابتعد المشركون عن المدينة استحضروا كلاً من :

الأول : أسباب معركة أحد .

الثاني : مقدمات معركة أحد .

الثالث : الأموال والجهود التي بذلوها في الإستعداد للمعركة .

الرابع : تعطيل القوافل والأعمال بسبب تشييد رؤساء قريش الناس للمعركة.

الخامس : وقائع معركة أحد .

السادس : سقوط اثنين وعشرين رجلاً من قريش في ميدان المعركة .

السابع : سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل ، وإقامته الصلاة في المسجد النبوي في ذات يوم المعركة .

الثامن : إخلاص وتفاني صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدفاع في سبيل الله والذب عن رسوله الكريم .

التاسع : عدم تحقق أي غاية من الغايات التي جاء من أجلها جيش المشركين.

العاشر : تراكم الديون على قريش.

الحادي عشر : شماتة العرب بقريش .

الثاني عشر : أثر معركة أحد في انجذاب الناس للإسلام.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَمْنَا

مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

لقد كانت سرية أبي سلمة إشعاراً للقبائل بأمور :

الأول : لزوم الإمتناع عن غزو المدينة .

الثاني : إدراك قانون قرب نصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والذي سيأتي بيانه .

الثالث : توالي معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم زاجر عن محاربته .

الرابع : تكرار هزيمة المشركين ، وعجزهم عن تحقيق نصر وغلبة في ميدان المعركة .

الخامس : فضل الله عز وجل في إحباط سعي الذين كفروا وصرفهم عن توالي الهجوم على المدينة .

ترى ماهي النسبة بين هذا الصرف ، والقول النادر بالصرفة بخصوص القرآن أي أن الله عز وجل صرف العرب عن الإتيان بمثله ، والجواب إنه قياس مع الفارق ، إذ صرف الله عز وجل العرب عن توالي الهجوم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع إقتران هذا الصرف بالحجة والبرهان وإدراك الكفار لقانون وهو أن هجومهم التوالي على المدينة ولايتعارض هجوم المشركين في بدر وأحد مع هذا القانون لأن معناه منع تكرار وتوالي هجوم وغزو المشركين لمدينة .

إذ يتفضل الله عز وجل فيصرفهم عنه ، قال تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(١).

وكانت سرية أبي سلمة من الأسباب الظاهرة في منع المشركين من الهجوم المتوالي على المسلمين في المدينة ، ليكون مناسبة لبيان أحكام التنزيل ، وسنن الحلال والحرام .

ولم يرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يخرج معه الذين تخلفوا عن الخروج إلى معركة أحد مع أنهم سالمون من الجراحات ، لبيان قانون

وهو أن الله عز وجل هو الذي يحرس النبي محمداً وأصحابه ، ويمنع عنهم الإنكسار والهزيمة ، قال تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(١).

وهل هذا المنع مطلق ، الجواب لا ، فمن خصائص البعثة النبوية أن الإستثناء يستثنى منه أيضاً بفضل ولطف من الله عز وجل ، فبعد أن نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج وأعلن الإستثناء بما يفيد أن الله عز وجل ورسوله غنيان عن الذين تخلفوا عن معركة أحد ، وعن الذين إنسحبوا من وسط الطريق وهم كثير ، إذ يبلغ عددهم ثلاثمائة رجل ، بينما خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد ومعه نحو مائتين ونيف من أصحابه وقيل أقل من هذا العدد .

وكان جابر بن عبد الله الأنصاري قد تخلف عن الخروج إلى معركة أحد فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليعتذر ويبين مسألة وهي أن تخلفه ليس عن قصور أو جبن أو شك إنما أمره أبوه أن يبقى مع أخواته السبعة ، إذ خرج أبوه عبد الله بن عمرو بن حرام مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بن عمرو بن حرام ، مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة ليس معهن رجل في البيت ، واختار عبد الله أن يكون هو الذي ينال ثواب الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى معركة أحد حيث استشهد في تلك المعركة ، مما يدل على استدامة عذر جابر بن عبد الله من باب الأولوية القطعية ، فإذا تخلف جابر مع أخواته بسبب خروج أبيه إلى أحد ، فإن أباه قتل في المعركة ، ومع هذا جاء جابر بن عبد الله يستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج معه إلى حمراء الأسد فاذن له الرسول .

تري لماذا حصر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الخروج بمن شارك في معركة أحد ، الجواب من جهات :

الأولى : كراهة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للقتال ، قال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

الثانية : تحقق الغرض من الخروج خلف العدو بالذين اشتركوا في معركة أحد .

الثالثة : إرادة استئصال الإرهاب من الجزيرة .
فمتى ما أدرك المشركون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يدافعون باخلاص عن النبوة والتنزيل ، ويلاحقون المشركين عند إنسحابهم ، فأنهم يخشون تكرار الهجوم .

الرابعة : الخروج إلى حمراء الأسد مقدمة لفتح مكة .
الخامسة : خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وعودتهم من غير قتال شاهد على أنهم يرفعون لواء السلم .

السادسة : إرادة استئصال إرهاب قريش ، ومنعهم من مواصلة التعدي وسفك الدماء .

السابعة : تخرج طائفة قليلة من المؤمنين فيأتي المدد من عند الله ، ويصرف شرور الذين كفروا .

لقد اختار النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلالاً ليؤذن بالنفير وبلال هو مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا بد من أسباب ومقاصد سامية في اختيار بلال لهذا الأمر ، وقد تقدمت الإشارة إليه (٢) .
ومن الآيات في المقام أن جابر بن عبد الله ممن شهد بيعة العقبة هو وأبوه عبد الله بن عمرو بن حزام .

(١) سورة البقرة ٢١٦.

(٢) أنظر الجزء الستون بعد المائة من هذا السفر ص ١٨٠.

ولم يشهد جابر بن عبد الله معركة بدر وأحد إذ كان أبوه يمنعه من الخروج ليقى مع أخوته ، ولكنه خرج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد ، وشهد بيعة الرضوان ، ولم يتخلف عن كتيبة من كتائب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعدها ، وهو شاهد على صدق إيمانه وثباته في منازل التقوى .

ومات جابر بن عبد الله الأنصاري الخزرجي في السنة الثالثة والسبعين للهجرة ، وقيل غير ذلك ، وهو آخر أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم موتاً في المدينة ، وقيل آخرهم سهل بن سعد ، نعم هو آخر من مات من شهد بيعة العقبة .

والإجماع على أن آخر الصحابة الذين رأوا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم موتاً هو أبو الطفيل عامر بن واثلة الكنانى المكي الليثي ولد في السنة الثالثة الهجرية .

قال ابن عبد البر (ولد عام أحد) ^(١) وأدرك من حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثمان سنين ، وكان يسكن الكوفة ، فلما استشهد الإمام علي عليه السلام إنصرف إلى مكة واستقر بها إلى أن وافاه الأجل ، وقد ثبت أنه رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهل سمع منه ، اختلف فيه ، وذكر أنه روى عنه أربعة أحاديث وتوفى سنة مائة للهجرة .

وقال الذهبي : وفي سنة مائة وعشرين (توفي بمكة أبو الطفيل عامر بن واثلة. قاله جرير بن حازم. وقد مر سنة مئة) ^(٢) .

وآخر من مات من بني هاشم ممن رأى النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب مات سنة ثمانين للهجرة.

(١) الإستيعاب ٤٣/٢.

(٢) العبر في خبر من غير ٣٤/١.

لقد بات على باب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العودة من معركة أحد كل من :

الأول : سعد بن عبادة .

الثاني : حباب بن المنذر .

الثالث : سعد بن معاذ .

الرابع : أوس بن خولي .

الخامس : قتادة بن النعمان .

السادس : عبيد بن أوس^(١) .

ومعهم جماعة آخرون ، فلما صلوا الصبح مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسمعوا نداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقومه يحثهم على الخروج ، وعاد سعد بن معاذ إلى داره ومحل إقامة بني عبد الأشهل ، وكانت الجراح فاشية فيهم .

فنادى (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمركم أن تطلبوا عدوكم. قال: يقول أسيد بن حضير، وبه سبع جراحات وهو يريد أن يداويها: سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، فأخذ سلاحه ولم يعرج على دواء جراحه ، ولحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وجاء سعد بن عبادة قومه بني ساعدة فأمرهم بالمسير، فتلبسوا ولحقوا. وجاء أبو قتادة أهل خربى، وهم يداوون الجراح، فقال: هذا منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمركم بطلب عدوكم. فوثبوا إلى سلاحهم وما عرجوا على جراحاتهم.

فخرج من بني سلمة أربعون جراحات، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحاً، وبقطبة ابن عامر بن حديدة تسع جراحات، حتى وافوا النبي صلى

(١) أنظر مغازي الواقدي ١/ ١٢٧.

الله عليه وسلّم بيثر أبي عنبه إلى رأس الثنية الطريق الأولى يومئذٍ عليهم السلاح قد صفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلّم. فلما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلّم إليهم والجراح فيهم فاشية قال: اللهم ارحم بني سلمة^(١).

ومنهم من منعه جراحاته من الخروج في نفس كتيبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولكن أدركه في بعض مراحل الطريق ، كما في عبد الله بن سهل ورافع بن سهل بن عبد الأشهل ، إذ أثقلتها جراحهما التي أصابتها في معركة أحد .

ولما أخبرهم سعد بن عباد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم رغبا في الخروج ولكن ليس عندهما دابة يركبانهما ، فقال عبد الله : انطلق بنا نمشي على الأقدام.

قال رافع لا والله ما بي مشي.

فرغبه عبد الله بأن يتعاونوا في الطريق ، ويمشيان التوئدة ، فخرجا وفي الطريق ضعف رافع ، فكان عبد الله يحمله مسافة ، ويتركه يمشي مسافة أخرى ، حتى وافقا رسول الله عند العشاء ، وهم يوقدون النار ، فحضرا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى حرسه تلك الليلة عباد بن بشر.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما حبسكما ، ليسمع الصحابة حجتكما ويكونوا شهوداً على طاعتكما لله ورسوله.

فأخبراه بالسبب وما لاقاه في الطريق من الشدة والأذى ، فدعا لهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخير ثم قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وسلم (إن طالت لكم مدة كانت لكم مراكز من خيل وبغال وإبل ، وليس ذلك بخير لكم) ^(١).

وهل هو من علم الغيب الذي اطلع الله عز وجل النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم عليه ، الجواب نعم ليكون بشارة وتخفيفاً ومواساة للمؤمنين على ما لاقاه من الأذى ، فمن خصائص الإيمان مصاحبة البشارة والأمل مع الضراء والأذى والشدة ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يُتَّقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ ^(٢) لبيان أن الإنفاق في الضراء طريق للسعة والرزق الكريم وصيرورة المؤمن في سراء فيجب أن يتعاهد الإنفاق في سبيل الله .

وعندما وصل جيش المشركين إلى حمراء الأسد أظهروا التلاوم بينهم ، واستمروا عليه حتى وصلوا الروحاء وهي المحطة الثانية ، وينزل فيها الحجاج والمعتمرون والمسافرون المتوجهون من المدينة إلى مكة وبالعكس ، وتبعد عن المدينة ثمانين كيلو متر ، أما المحطة الأولى والأقرب إلى المدينة فهي السيالة .

ووردت الروحاء في أخبار السنة النبوية ، وفيها مسجد صلى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن (أسامة بن زيد بن حارثة حدثه قال: "خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم في حجته التي حجها فلما هبطنا بطن الروحاء عارضت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم امرأة معها صبي لها فسلمت عليه فوقف لها .

(١) مغازي الواقدي ١/١٢٨.

(٢) سورة آل عمران ١٣٤.

فقلت: يا رسول الله هذا بني فلان والذي بعثك بالحق ما زال في حبك واحد- أو كلمة تشبهها- مذ ولدته إلى الساعة (فاكتنع) إليها رسول الله فبسط يده فجعله بينه وبين الرجل ثم تفل في فيه .

ثم قال: اخرج عدو الله؟ فإني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم ناولها إياه فقال: خذيه فلن ترين منه شيئاً يريك بعد اليوم إن شاء الله. قال أسامة: فقضينا حجبنا ثم انصرفنا فلما نزلنا بالروحاء فإذا تلك المرأة أم الصبي فجاءت ومعها شاة مصلية.

فقلت: يا رسول الله أنا أم الصبي الذي أتيتك به.

قالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت منه شيئاً يريني إلى هذه الساعة. قال أسامة: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا أسيم^(١)، قال الزهري: وهكذا كان يدعو به يرخمه^(٢) ناولني ذراعها. فامتلخت الذراع فناولتها إياه فأكلها.

ثم قال : يا أسيم ناولني ذراعها. فامتلخت الذراع فناولتها إياه فأكلها. ثم قال : يا أسيم ناولني الذراع.

فقلت : يا رسول الله إنك قد قلت: ناولني. فناولتكها فأكلتها ثم قلت: ناولني. فناولتكها فأكلتها ثم قلت: ناولني الذراع وإنما للشاة ذراعان.

فقال : أما أنك لو أهويت إليها ما زلت تجد فيها ذراعاً ما قلت لك.

ثم قال: يا أسيم قم فاخرج فانظر هل ترى مكاناً يواري رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت فمشيت حتى حسرت فما قطعت اليأس وما رأيت شيئاً أرى أنه يواري أحداً وقد ملأ الناس ما بين السدين. قال : فهل رأيت شجراً أو رجماً.

(١) أي تصغير أسامة للمحبة والرافة ، كما في قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم

للمقدم بن معد يكرب (يا قديم) الأصابة في معرفة الصحابة ٤٥٧/٢.

(٢) يرخمه كذا في ، تاريخ دمشق ٣٧٢/٤ ، وفي أصل المتن أعلاه (الخمس).

قلت : بلى قد رأيت نخلات صفار إلى جانبهن رجم من حجارة.
 فقال : يا أسيم اذهب إلى النخلات فقل لهن : يأمركن رسول الله صلى
 الله عليه وسلم أن تلتحق بعضكن ببعض حتى تكن ستره لمخرج رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وقل ذلك للرجم.
 فأتيت النخلات فقلت لهن الذي أمرني به رسول الله فوالذي بعثه
 بالحق لكأني أنظر إلى تفاقرهن بعروقهن وتراهن حتى لصق بعضهن ببعض
 فكن كأنهن نخلة واحدة وقلت ذلك للحجارة فوالذي بعثه بالحق لكأني
 أنظر إلى تفاقرهن حجراً حجراً حتى علا بعضهن بعضاً فكن كأنهن جدار.
 فأتيته فأخبرته^(١).

وقد يقال إذا كانت الروحاء تبعد عن المدينة ثمانين كيلو متراً فإن وصول
 المشركين لها من أطراف المدينة أي من موضع معركة أحد ، وبلوغ خبر
 عزمهم على الرجوع إلى المدينة يلزم أكثر من يوم واحد ، فكيف خرج
 النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليوم التالي لمطاردة المشركين ، الجواب
 من وجوه :

الأول : بلوغ نبأ عزم المشركين العودة إلى القتال بعد معركة أحد بيوم
 واحد إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالوحي ، فإن جبرئيل
 الذي نزل لنصرته في معركة بدر وأحد هو الذي ينزل ليخبره عن حال
 المشركين وعزمهم الرجوع للقتال ، ليكون هذا الإخبار من مصاديق قوله
 تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢) إذ يعلم النبي وأصحابه بعزم
 قريش هذا فيخرجون للقائهم فيختار المشركون التعجيل بالإنصراف إلى
 مكة مرعوبين خائفين .

(١) اتحاف الخيرة ٤٤/٧.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

الثاني : ابتداء التلاوم بين رجال قريش من الساعات الأولى لإنسحابهم من معركة أحد فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا الأمر.

الثالث : سمع بعض الركبان هذا التلاوم وهم في حمراء الأسد في طريقهم إلى مكة ، ثم اشتد التلاوم بينهم في الروحاء . ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وهو من فضل الله على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إذ يسمعون ما يأتي به الركبان من الأخبار وفيه تنمية للملكة الحيفة والحذر عندهم ، ولزوم تتبع الأخبار . ليكون من معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية إطلاعه على نوايا وأخبار المشركين والتهيين والإستعداد لدفع شرورهم ، وهذا الإطلاع من مصاديق مكر الله عز وجل في قوله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

وهل فيه دعوة للتوبة والإنابة ، الجواب نعم ، لما فيه من الحجة والبرهان على إخبار الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم من علوم الغيب ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^{(٢)(٣)}.

وعندما عاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من معركة أحد بات عدد منهم عند باب النبي يحرسونه ، ويخشون مدهامة جيوش المشركين وتسلبهم في الليل إلى المدينة .

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) أنظر الجزء السادس والثمانين بعد المائة من هذا السفر الذي جاء خاصاً بتفسير الآية (١٧٩) من سورة آل عمران.

وهل كان الصحابة يخشون من غدر المنافقين أو اليهود في تلك الليلة باجهازهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لكثرة جراحات الصحابة ، وإنشغالهم بمداواتها ولعموم حالة الأسى بفقد سبعين شهيداً في ميدان المعركة.

الجواب لا ، فلم يصل النفاق إلى مرتبة القيام باغتيال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان المنافقون يحضرون الصلاة اليومية مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومع أن ثلاثمائة منهم انسحبوا من وسط الطريق إلى معركة أحد ، فان عدداً قليلاً منهم واصلوا السير إلى ميدان معركة أحد بدليل قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَغَاسًا يَغُشِّي طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْضَعُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١).

فالتائفة الذي قد أهتمهم أنفسهم لا يغشاهم النعاس إنما غلب عليهم الخوف والجزع والخشية من القتل في ميدان المعركة ، وتحتمل النسبة بين الذين أهتمهم أنفسهم في الآية أعلاه وبين المنافقين وجوهاً :

الأول : نسبة التساوي وان الذين أهتمهم أنفسهم ويظنون بالله غير الحق هم المنافقون .

الثاني : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :

الأولى : الذين أهتمهم أنفسهم يوم معركة أحد أعم من المنافقين الذين حضروا المعركة.

الثانية : المنافقون الذين حضروا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم معركة أحد أعم وأكثر من الذين أهتمهم أنفسهم .

الثالث : نسبة العموم والخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما .

الرابع : نسبة التباين بين المنافقين ، والذين أهتمهم أنفسهم ويظنون بالله ظن الجاهلية .

والمختار أن المنافقين أعم ، ومنهم من قعد في بيته ، وحرص على عدم الخروج للدفاع .

وقد تقدم في الجزء السابق أن هذا النعاس من مصاديق التمييز في قوله تعالى ﴿لَيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(١) فالطيب في المقام هم أهل الإيمان والتقوى والذين يدافعون باخلاص عن النبوة والتنزيل ، أما المنافقون فإن النعاس يومئذ محبوب عنهم لأنه رحمة وتخفيف ، ولم تقف الآية أعلاه عند قوله ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾^(٢).

كي يحتمل أن هذا الظن أعم من النفاق ، وقد يهم الإنسان بنفسه وبعياله لو قُتل ، وتشمل هذه الطائفة الذين رجعوا من وسط الطريق ، والذين حضروا الميدان من المنافقين مثل معتب بن قشير.

(عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقته في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير،

(١) سورة الأنفال ٣٧.

(٢) سورة آل عمران ١٥٤.

ما أسمعته إلا كالحلم، يقول { لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا }^(١) فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى { لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا } لقول مُعْتَبٍ^(٢).

وهل هذا النعاس معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب نعم وهو من المعجزات في السنة الدفاعية ، وتجلي الهجرة على الصحابة بحيث يدرك كل واحد من الذين تغشاهم النعاس أنه معجزة ، وفضل لا يقدر عليه إلا الله عز وجل .

وهل في هذا النعاس الطارئ إخبار سماوي عن توصل العلم للعلاج المهدئ وحقق مخدر في العمليات الجراحية ، وتسكين الأوجاع في هذا الزمان ، الجواب نعم .

لقد وصلت أخبار عزم كفار قريش على العودة والإغارة على المدينة ، وخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه بعد صلاة الصبح الى حمراء الأسد ، وفيه نكتة وهي مع كثرة جراحات النبي وأصحابه ، والخشية من مداهمة العدو المشرك فانهم لم يتركوا صلاة الفجر مع أنها تقام في غلس ونوع ظلمة لم ينكشف الفجر والضياء تماماً أثناء الصلاة .

وبعد إنقضاء الصلاة أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الناس بالتنفير للخروج لدفع العدو عن المدينة ، ولو لم ترد أخبار عن عزم المشركين الإتيان من طريق العودة والكرة على المدينة المنورة ، فهل يؤذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج .

الجواب لا ، وكذا قبلها بيومين إذ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عندما علموا بأن المشركين على بعد بضعة كيلو مترات من

(١) سورة آل عمران ١٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير ١٤٥/٢.

المدينة وأنهم يقومون بسرح إبلهم وخيلهم في زروع أهل المدينة ويلاحقون من يرونه من الأوس والخزرج في أرضه .

لقد ندب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه للخروج ويحتمل هذا الندب وجوهاً :

الأول : قتال الذين كفروا .

الثاني : مطاردة جيش الذين كفروا .

الثالث : المراقبة حول المدينة ، وفي أطرافها ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) .

الرابع : مباغطة المشركين في مكة رداً على هجومهم في معركة أحد .

الخامس : بعث الخوف في قلوب الذين كفروا .

السادس : الخروج امتثالاً لأمر الله عز وجل ، ولا يعلم ما يحدث بعد

هذا الخروج إلا هو سبحانه .

والصحيح هو الثالث والخامس والسادس أعلاه ، فليس من غزو في المقام أو قتال أو مطاردة بدليل أن النبي محمداً وأصحابه وصلوا إلى حمراء الأسد التي لا تبعد عن المدينة إلا نحو ثمان كيلو مترات والتي صارت في هذا الزمان من أحياء المدينة وبلغها العمران والبيوت لم يتعدوها .

فلا يصح تسمية خروج المسلمين إلى حمراء الأسد غزوة ، ولا هو دفاع إنما هي كتيبة مرابطة وهي رحمة بالمسلمين وأهل المدينة عامة ، وحتى المشركين لأنها دفع للقتال الذي هو مكروه ذاتاً وأثراً ، وهو محرم على الكفار قتالهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام ، ومن يقتل منهم تكون عاقبته النار .

فذات الكفر وحده يقود الى النار فكيف بمن حارب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾^(١).

فأراد الله عز وجل بخروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد إمهالهم في مندوحة من الوقت عسى أن يتوبوا كما حصل في فتح مكة وما قبله فأكثر الذين كانوا في جيش أبي سفيان يومئذ دخلوا الإسلام .

وكان خالد بن الوليد رئيس الخيالة التي جاءت إلى المسلمين من الخلف وقتلوا من بقي من الرماة في موضعه وعددهم تسعة من أصل خمسين جعلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في موضع الرمي وأمرهم أن لا يغادروا موضعهم على كل حال .

(عن البراء بن عازب قال : جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الرماة يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير ووضعهم موضعاً وقال : ان رأيتمونا نخطفنا الطير فلا تَبْرَحُوا حتى أرسل إليكم ، فهزم موهم قال : فأنا والله رأيت النساء يشتدن على الجبل وقد بدت أسوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن . فقال أصحاب عبد الله : الغنيمة أي قوم الغنيمة . . . ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟

قال عبد الله بن جبير : أفنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالوا : إنا والله لنأتين الناس فلنصين من الغنيمة . فلما أتوهم صرفت وجوهم فاقبلوا منهزمين ، فذلك الذي يدعوهم الرسول في أخراهم ،

فلم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غير اثني عشر رجلاً . فأصابوا منا سبعين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومائة . سبعين أسيراً ، وسبعين قتيلاً ^(١) .

وتمر الأيام سريعاً ، ويدخل خالد بن الوليد الإسلام بعد صلح الحديبية ليكون أحد القواد في معركة مؤتة ثم في فتح مكة ^(٢) .

وفي خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد خلف العدو مسائل بخصوص المدينة منها :

الأولى : بيان قانون عجز المنافقين عن التأثير على المؤمنين وعوائلهم ، فلا يخشى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم منهم في غيابه بعد الخسارة مباشرة .

الثانية : استدامة حكم الإسلام في المدينة حتى في حال الجمع بين الخسارة وغياب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة .

الثالثة : عدم الخشية من يهود المدينة آنذاك .

الرابعة : ترغيب عامة أهل المدينة بالدفاع عنها وبعث النفرة في نفوسهم من الذين كفروا وظلمهم .

الخامسة : بيان صدق إيمان المهاجرين والأنصار وتفانيهم في طاعة الله ، إذ جاءوا من معركة أحد عصر يوم السبت ليخرجوا صباح الأحد خلف العدو .

(١) الدر المنثور ٤٥٨/٢ .

(٢) هو خالد بن الوليد بن المغيرة يلتقي في النسب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جده السادس وهو مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ، أما أمه فهي لبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية من صعبعة بن هوازن ، وتلتقي في النسب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مضر بن نزار الجد السابع عشر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

السادسة : حاجة المسلمين إلى اللطف والفضل الإلهي فهم يخرجون طاعة لله ورسوله ويعلمون أنه يمدّهم بأسباب النصر ، قال تعالى ﴿بَلَىٰ إِنِّي تُصَبِّرُوا وَتَقْوُوا يَا تُؤَكِّمُ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُنْذِرُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(١).

السابعة : تنمية ملكة الدفاع عند الصحابة ، ليكون خروجهم إلى حمراء الأسد مقدمة للصبر في حصار الخندق . ولا يختص الصبر يومئذ بالذين خرجوا إلى حمراء الأسد بل يشمل المسلمين والمسلمات جميعاً ، إذ حاصر عشرة آلاف رجل من الكفار المدينة لنحو عشرين ليلة .

ومن الإعجاز في سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه يقوم بفعل مخصوص في ناحية ، ولكن منافع هذا الفعل عامة ومستديمة .
الثامنة : كشف حقيقة وهي أن كثرة جراحات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وخسارتهم في معركة أحد لم تهد منهم ومن شوقهم للدفاع وصرف شرور العدو ، ويكون خروجهم إلى حمراء الأسد من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٢).

ومن معاني هذا الخروج انتفاء الحزن عند المسلمين ، ومن الشواهد على قوله تعالى أعلاه ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فليس من حزن عند المسلمين يشغلهم عن الصلاة والدفاع ، لأن أصحابهم الذين قتلوا في معركة أحد أحياء عند

(١) سورة آل عمران ١٢٥.

(٢) سورة آل عمران ١٣٩.

الله عز وجل حالما فارقوا الدنيا للحياة الأبدية ، قال تعالى ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١) .

التاسعة : سعي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لطلب الأجر والثواب من عند الله من غير خشية من العدو مع التخويف من كثرة العدو عدداً وعدة .

العاشرة : تأكيد قانون استجابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لأمر الله في حال السراء والضراء والسلم والدفاع ، وفي التنزيل بخصوص الخروج إلى حمراء الأسد قال تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٢) .

وعندما وصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى حمراء الأسد جاءه معبد بن أبي معبد الخزاعي وكان على الشرك ، ولكنه ناصح لرسول الله للحلف الذي يجمع خزاعة مع بني هاشم ، فقدم معبد تعازيه للنبي على ما لاقاه هو وأصحابه في معركة أحد ، مما يظهر أن أخبار وتفصيل المعركة قد انتشرت بين الناس ، واستقرأ منها الناس الخسارة بالأرواح التي لحقت المسلمين من غير أن ينهزموا في المعركة ، ومفهوم الهزيمة معروف عند الناس في زمان ، ومن أظهر الشواهد عليه هزيمة كفار قريش في معركة بدر.

فكان خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلف العدو تدارك وبيان لحقيقة عدم خسارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لمعركة أحد ، وقال معبد (أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم. ثم خرج ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجمراء

(١) سورة العنكبوت ٦٤.

(٢) سورة آل عمران ١٧٣.

الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وقالوا: أصبنا حد أصحابه وقادتهم وأشرفهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم.. لنُكرن على بقيتهم فلنفرغ منهم^(١).

وبينما يشتد التلاوم بين رؤساء جيش قريش وحلفائهم رأى أبو سفيان مَعْبِداً فقال أبو سفيان : ما وراءك يا مَعْبِد.

لقد كان أبو سفيان وأصحابه مطمئنين لمَعْبِد وما ينقله من الأخبار لأنه على ملة الكفر مثلهم ، فانصت من كان حاضراً من رجال قريش ، فقال مَعْبِد : قد خرج محمد وأصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط. ثم بين لهم أن أصحاب محمد يتشوقون للقاء والثأر لشهادتهم في معركة أحد.

ثم استدرك مَعْبِد بالقول قد اجتمع مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين لم يخرجوا إلى معركة أحد، إذ قعدوا وظنوا أن المسلمين سيتتصرون مثلما انتصروا في معركة بدر ، وذات التذكير بمعركة بدر يبعث في نفوس الذين كفروا الخوف والرعب .

قال أبو سفيان : ويلك يا مَعْبِد ، ماذا تقول ، عندئذ أقترح عليهم مَعْبِد التعجيل بالرحيل إلى مكة ، إذ قال مخاطباً أبا سفيان (والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل)^(٢).

فقال أبو سفيان : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم عندئذ قال مَعْبِد : فاني أنهاك عن ذلك لما فيه من الضرر عليكم.

(١) تفسير ابن كثير ١٦٨/٢.

(٢) الإكفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ٧٥/٢.

وأخبره معبد بأنه قال أحياناً من الشعر لما رآه ، فقال أبو سفيان ، وما قلت ، عندئذ قرأ معبد شعره:

كَادَتْ تُهَدِّدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي ... إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَائِيلِ
تَرْدَى بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابُلَةٌ ... عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَازِيلِ
فَظَلْتُ عَدُوًّا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً ... لَمَّا سَمَوُا بِرَيْسٍ غَيْرِ مَخْذُولِ
فَقُلْتُ : وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ ... إِذَا تَغَطَّمْتَ الْبَطْحَاءُ بِالْجِيلِ
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسَلِ ضَاحِيَةٌ ... لِكُلِّ ذِي إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخْشٍ تَنَابُلَةٌ... وَلَيْسَ يَوْصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقِيلِ^(١).

فصرف أبو سفيان وأصحابه النظر عن مسألة العودة إلى القتال ، ورغبوا باستمرار السير إلى مكة فلقد كان الجيش بالروحاء والتي تبعد عن المدينة المنورة (٨٠) كيلو متر ، مما يثقل على نحو ثلاثة آلاف رجل قطع هذه المسافة مرة ثالثة مع التسليم بأنهم سيقطعونها إذا سلموا ، وخرجوا سالمين من المعركة ولقاء جيوش الأنصار والمهاجرين التي خرجت لهم والتي أفاد معبد في كلامه .

فقد زحف جيش المشركين (٤٥٠) كيلو متر حتى وصلوا إلى جبل أحد ، وخاضوا معركة انهزموا في بدايتها ، وشاهدوا سقوط حملة لوائهم واحداً بعد الآخر ، وهم من شجعان قريش ، وتوارثوا حمل اللواء .

ثم قطع جيش المشركين ثمانين كيلو مترا بقصد الرجوع إلى مكة ورجوع أفراد قبائل إلى قبائلهم فلا يتحملون أمراً طارئاً بالعودة إلى موضع القتال ، وقطع أكثر من ثمانين كيلو متر للإغارة على المدينة إلى جانب تسليم أفراد الجيش بأن حريهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ظلم وتعد .

لقد استأجر أبو سفيان في معركة أحد ألفين من الأحابيش ونحوهم للقتال ، وقد حضروا المعركة وقاتلوا وانتهى أمر الإجارة فليس من موضوع للعودة للقتال ، قال تعالى ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(١).

لم يكن أبو سفيان وحده صاحب القرار في هذا الجيش غير المتجانس ، لذا وجد قول معبد وتخويفه آذاناً صاغية .
لقد توجه التخويف بعد معركة أحد إلى المشركين ، وتلقوه عن طرق :

الأول : تحذير صفوان بن أمية لجيش المشركين من العودة للإغارة على المدينة.

الثاني : استياء عامة الجيش من القتال ، وهل لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتبليغه قبل الهجرة في مكة ، وموسم الحج من موضوعية فيه ، الجواب نعم .

وهو من الإعجاز في إنقسام الدعوة إلى قسمين قبل وبعد الهجرة ، وإتصاف السور المكية بالتخويف والوعيد للظالمين ، وذكرها لقصص الأمم السالفة وما أصاب الظالمين والمكذبين بالنبوات من البوار والإستئصال ، وفي التنزيل ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾^(٢).

الثالث : تخويف القبائل والركبان للكفار من الرجوع للمعركة ، ويدرك الناس أن الرجوع إلى معركة لم يحققوا غلبة فيها حماقة .
الرابع : تخويف الله سبحانه للمشركين .

(١) سورة الحشر ١٤.

(٢) سورة هود ١٠٢.

الإقامة ثلاثة أيام في حمراء الأسد

وحينما عزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الخروج إلى حمراء الأسد بعث ثلاثة من أصحابه من أسلم طليعة وسرية استطلاع لتتبع أخبار جيش العدو كيلا يسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في طريق غير الطريق الذي سار فيه جيش المشركين ، وللاحتراز من عودتهم في طريق آخر غير الجادة العامة .

فأدرك اثنان منهم جيش المشركين في حمراء الأسد (وللقوم زجل وهم يأترون بالرجوع وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك فبصروا بالرجلين فعطفوا عليهما فقتلوهما) ^(١).

مما يدل على أن عزم المشركين على الرجوع كان بعد مغادرة موضع معركة أحد بقليل ، ومع هذا استمروا في المسير .

وبعد صلاة الصبح من يوم الأحد السادس عشر من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة أحضرت فرس النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم له وركبها مع كونه مثقلاً بالجراحات من جهات :

الأولى : الشج في الجبهة .

الثانية : الجرح في الوجه .

الثالثة : ثلم الرباعية ^(٢).

الرابعة : شق وكلم الشفة السفلى .

الخامسة : توهن المنكب الأيمن لشدة ضربة ابن قمئة له .

السادسة : جدش والنخداش الركبتين .

(١) عيون الأثر ٦/٢ .

(٢) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ١٥٨/١ .

ووصل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد، وعسكر وأصحابه فيها لأن المشركين كانوا هناك عندما أرادوا الكرة على المدينة .

ترى لماذا أقام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حمراء الأسد ثلاثة أيام.

الجواب من جهات :

الأول : إظهار الصحابة التحدي للذين كفروا وجيوشهم ، فقد كانوا في الروحاء ، وبلغهم خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه خلفهم ، ولو أرادوا لعادوا ووصلوا إلى حمراء الأسد في تلك المدة .

الثاني : إطلاع الركبان والقبائل على ملاحقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه للذين كفروا .

الثالث : إحياء موضع حمراء الأسد بالذكر والتسبيح وإقامة الصلوات الخمس ، فمن خصائص بقع الأرض أنها تشهد لمن صلى فيها .

الرابع : مداواة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة لجراحاتهم .

الخامس : التخفيف واجتناب تتابع السفر وكثرة الرحيل .

السادس : رجاء نزول آيات من القرآن تتضمن الثناء على المؤمنين ، قال تعالى ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ^(١).

السابع : معرفة قبائل العرب باقامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في حمراء الأسد والذي يدل بالدلالة التضمنية على أنهم لم يخسروا معركة أحد .

الثامن : عودة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة بعد إقامة ثلاثة أيام في حمراء الأسد باعث للسكينة والطمأنينة في نفوس أهلها ، وشاهد على إنطواء آثار معركة أحد .

ليكون من معاني كتيبة حمراء الأسد أنها كتيبة المواساة ، كما سمي شهر رمضان شهر المواساة .

وعن سلمان الفارسي قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شعبان فقال :

يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم شهر مبارك ، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ، جعل الله صيامه فريضة وقيام ليله تطوعاً ، من تقرب فيه بمخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه ، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه ، وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة .

وشهر المواساة وشهر يزداد في رزق المؤمن ، من فطر فيه صائماً كان له مغفرة لذنوبه ، وعتق رقبة من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء .

قلنا : يا رسول الله كلنا نجد ما يفطر الصائم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعطي الله هذا الثواب من فطر صائماً على مذقة لبن ، أو تمرة ، أو شربة من ماء .

ومن أشبع صائماً سقاه الله من حوضي شربة لا يظماً حتى يدخل الجنة ، وهو شهر أوله وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار ، من خفف عن مملوكه فيه غفر له وأعتقه من النار .

فاستكثرُوا فِيهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ : خَصَلْتَانِ تُرْضُونِ بِهِمَا رَبَّكُمْ ، وَخَصَلْتَانِ لَا غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا .

فَأَمَّا الْخَصَلَتَانِ اللَّتَانِ تُرْضُونِ بِهِمَا رَبَّكُمْ فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَتَسْتَغْفِرُونَهُ ، وَأَمَّا اللَّتَانِ لَا غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا فَتَسْأَلُونَ الْجَنَّةَ وَتَعُوذُونَ بِهِ مِنَ النَّارِ^(١).

التاسع : غياب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه خمسة أيام في حمراء الأسد والطريق إليها ومنها أمانة على معرفة أهل المدينة للمؤمنين الذين خرجوا معه ، والمنافقين ومن قعد عن الخروج.

ليتجدد اللوم العام لأولئك الذين إنخللوا من وسط الطريق إلى معركة أحد ، وعددهم ثلاثمائة ، وعندما يتوجه إليهم اللوم يحملون عبد الله بن أبي بن أبي سلول المسؤولية لأنه الذي قام بتحريضهم على الانسحاب والرجوع إلى المدينة إذ كان يقول (علام تقتل أنفسنا وأولادنا)^(٢).

وكان المنافقون يشيعون أخباراً عن قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وأن جيش المشركين سيرجع عليهم ويقتلهم فعاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى المدينة سالمين ، ولم يلقوا أذى ، وهم يحملون بذات العودة نبأ إنحسار خطر وضرر المشركين .

(١) الدر المنثور ١/٣٧٠.

(٢) الكشف والبيان ٣/١٨١.

في موضع حمراء الأسد

لقد أقام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حمراء الأسد ثلاثة أيام ، وكانت أيام صبر ودعاء .

ومرّ ركب عبد قيس بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وهم في حمراء الأسد ، فأخبروا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بعزم أبي سفيان وجيشه على العودة الآتية للقتال لإستئصال بقية جيش المسلمين .

فكان جواب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لهم : حسبنا الله ونعم الوكيل ، ونزل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(١).

وكان معبد بعد أن أخبر أبا سفيان الجيوش التي زحفت مع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أطمأن إلى انسحاب جيش المشركين إلى مكة (أرسل رجلاً من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمه أن قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة)^(٢) .

وفي كتيبة حمراء الأسد مسائل :

الأولى : لم يخرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم غازياً ، ولا تصلح أن تسمى غزوة ، إنما هي نوع مرابطة ، ومن عمومات قوله تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

(١) سورة آل عمران ١٧٣ / أنظر الجزء الثاني والستون بعد المائة من هذا السفر والذي والذي جاء خاصاً بتفسير الآية أعلاه .

(٢) المغازي ١/١٣٠.

وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴿١﴾.

الثانية: خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى حمراء الأسد حرب على الإرهاب ودعوة للناس للتنزه عن إعانة أهله بالمال والجهد والكلام والإعلام ، قال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (٢).

الثالثة: كتيبة حمراء الأسد استئصال للغزو .

الرابعة: من خصائص الرسائل السماوية تعدد وجوه التبليغ ، وهذا التعدد من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (٣) وفي كتيبة حمراء الأسد وعدم وقوع قتال فيها دعوة للناس للإيمان ونبذ مفاهيم الشرك وإعانة الظالمين .

الخامسة: لقد همّ جيش المشركين بالعودة للإغارة على المدينة فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بجراحاتهم ليكون هذا الخروج مانعاً من تجديد القتال وكثرة القتلى ، وهلاك الذين كفروا ، فهذا الخروج رحمة بالناس جميعاً ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٤) .

السادسة: لقد أيقن المشركون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه مستعدون للدفاع حتى في حال الخسارة الشديدة وكثرة الجراحات.

(١) سورة الأنفال ٦٠.

(٢) سورة هود ١١٣.

(٣) سورة المدثر ٣١.

(٤) سورة الأنبياء ١٠٧.

لفظ (استجابوا) في القرآن

لقد ورد لفظ ﴿اسْتَجَابُوا﴾^(١)، أربع عشرة مرة في القرآن ، وهي حسب ترتيب المصحف :

الأولى : قوله تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢)، نزلت هذه الآية بخصوص أصحاب حمراء الأسد ، وإذ كان الصحابة الذين حضروا معركة بدر يسمون البدرين ، فماذا يسمى الذين خرجوا لحمراء الأسد أم أنهم ليسوا على مرتبة واحدة مع البدرين الذين دافعوا بأنفسهم ودمائهم في أول معركة في الإسلام عن النبوة والتنزيل .

الجواب لقد أكرم الله عز وجل البدرين كما أكرم الذين خرجوا إلى حمراء الأسد وإن لم تكن لهم تسمية خاصة ، فقد نزلت فيهم ثلاث آيات متتاليات وابتدأت بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٣).

ويصلح تسميتهم (المستجيبون لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) والتقيد الأخير بيان لفضلهم وسمو مرتبتهم مع أنه يتضمن إكرام المسلمين جميعاً .

الثانية : قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ

(١) سورة آل عمران ١٧٢.

(٢) سورة آل عمران ١٧٢.

(٣) سورة آل عمران ١٧٢.

جَهَنَّمَ وَبُسْ الْمِهَادُ^(١) وقال الماوردي (المراد الجنة رواه أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم)^(٢) ولم نجد نسبته وسنده .

ونسب إلى ابن عباس و(عن قتادة، قوله: (للذين استجابوا لربهم الحسنى) وهي الجنة)^(٣) .

وقال مجاهد أنها الحياة والرزق^(٤) .

والمراد من الحسنى في الآية كثرة وتعدد مصاديقها في الدنيا والآخرة ، ففي كل ساعة تكون للمؤمن هناك ضروب من الحسنى التي تأتيه كمؤمن بالإضافة إلى ما كتب الله عز وجل له من أسباب الرحمة والرفقة كعبد من عبده ، لذا ورد قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٥) .

وبين اسم الرحمن والرحيم عموم وخصوص من وجه ، فهناك مادة للإلتقاء وهي رحمة ورأفة الله عز وجل وأنها من اللامتناهي ، ومادة للإفتراق إذ أن اسم الرحمن عام يتغشى جميع الخلائق ويصيب من فيوضاته البر والفاجر في الحياة الدنيا .

فترى الإنسان مطلقاً معافى وصاحب أموال وجاء في الدنيا ، وفي التنزيل ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَلَوْ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾^(٦) وفيه توجيه لوم وذم للذين كفروا فأنهم يكفرون بالرحمن الذي ييسط

(١) سورة الرعد ١٨ .

(٢) التكت والعيون ٣٠٩/٢ .

(٣) تفسير الطبري ٤١٦/١٦ .

(٤) التكت والعيون ٣٠٩/٢ .

(٥) سورة الفاتحة ١ .

(٦) سورة الرعد ٣٠ .

لهم الرزق ويهيئ لهم سير القوافل بالتجارات بين مكة والشام وغيرها ذهاباً وإياباً .

أما الرحيم فهو خاص بالمؤمنين في الدنيا والآخرة ، قال تعالى ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(١) لينتفع الذين كفروا من اسم الرحمن في الدنيا .

أما المؤمنون فينتفعون من اسم الرحمن واسم الرحيم في الدنيا والآخرة ، لذا قيل رحمن الدنيا للمؤمن والكافر ، ورحيم الآخرة للمؤمنين ، لأن نعم الدنيا مقطوعة وزائلة ، وهي إبتلاء وامتحان ، أما نعم الآخرة فهي دائمة وباقية (عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن عيسى ابن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه، فقال المعلم: اكتب، قال ما أكتب؟

قال: بسم الله، قال له عيسى: وما باسم الله؟ قال المعلم: ما أدري. قال له عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة")^(٢).

ومن إعجاز القرآن إبتداء كل سورة منه بذكر اسم الرحمن والرحيم إلا سورة التوبة لبيان قانون وهو أن القرآن رحمة بالناس جميعاً ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) على وجوه :

الأول : وما أنزلنا عليك القرآن إلا رحمة للعالمين .

الثاني : وما ابتدأت كل سورة بيسم الله الرحمن الرحيم إلا رحمة للعالمين .

(١) سورة الأحزاب ٤٣.

(٢) تفسير ابن كثير ١١٩/١.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

- الثالث : وما أرسلناك بالقرآن إلا رحمة للعالمين .
- الرابع : وما أرسلناك بالوعد والوعيد والثواب والعقاب إلا رحمة للعالمين .
- الخامس : وما أرسلناك بأداء الصلاة خمس مرات في اليوم إلا رحمة للعالمين .
- السادس : وما أرسلناك بوجوب صيام شهر رمضان إلا رحمة للعالمين ، وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (صوموا تصحوا) ^(١) .
- السابع : وما أرسلناك بوجوب الزكاة إلا رحمة للعالمين ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ^(٢) .
- الثامن : وما أرسلناك بالمنع من الغزو الإبتدائي إلا رحمة للعالمين .
- التاسع : وما أرسلناك بالحد والقصاص إلا رحمة للعالمين ، قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ^(٣) .
- العاشر : وما أرسلناك إلا لبعث الكراهية والنفرة من الإرهاب رحمة للعالمين .
- ويتضمن قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ ^(٤) ، البشارة في الناشئين ، وفيه حجة بلزوم إجتناّب الإرهاب ، والتتزه عنه لأن ذات الإيمان بالله ورسوله ، وأداء الفرائض مصداق للإستجابة التي تذكرها الآية أعلاه .

(١) الدر المنثور ١/٣٦٥ .

(٢) سورة النور ٥٦ .

(٣) سورة البقرة ١٧٩ .

(٤) سورة الرعد ١٨ .

ونزل الوعد من عند الله عز وجل عليها بالحسنى والتوفيق والرشاد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة .

الثالثة : ورود آية من آيات (استجابوا) في الثناء على المؤمنين ، وبيان خصالهم الحميدة بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(١).

ويمكن انشاء مصطلح قرآني من جهات :

الأول : آيات استجابوا ، ومنها آية البحث.

الثاني : آيات (يستجيب) وقد ورد هذا اللفظ ثلاث مرات في القرآن قال تعالى ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(٢) ، وورد اللفظ بصيغة النفي في قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾^(٣).

الثالث : آية (استجب) وفي التنزيل ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٤).

الرابع : آيات (استجبنا) إذ ورد هذا اللفظ أربع مرات في القرآن ، كلها في سورة واحدة هي سورة الأنبياء وعلى نحو متقارب وتتعلق باستجابة الله للأنبياء ، وهي :

(١) سورة الشورى ٣٨.

(٢) سورة الشورى ٢٦.

(٣) سورة الأحقاف ٥.

(٤) سورة غافر ٦٠.

الأولى : قوله تعالى ﴿وَتَوَحَّأِذْنَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾^(١).

الثانية : في صبر أيوب وفضل الله عليه ورد قوله تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ﴾^(٢).

الثالثة : في يونس (ذي النون) ورد قوله تعالى ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

الرابعة : في النبي زكريا عليه السلام ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٤).

الخامس : آيات الإستجابة ، وبينها وبين المصطلحات أعلاه عموم وخصوص مطلق ، فأيات الإستجابة أعم.

السادس : آية (لا يستجيبون) وردت مرة واحدة في القرآن بقوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾^(٥).

(١) سورة الأنبياء ٧٦.

(٢) سورة الأنبياء ٨٤.

(٣) سورة الأنبياء ٨٨.

(٤) سورة الأنبياء ٩٠.

(٥) سورة الرعد ١٤.

ومن الإعجاز عطف أداء التكليف في الآية على الإستجابة وهو من عطف الخاص على العام ، فبين الإستجابة لله وإقامة الصلاة عموم وخصوص مطلق فالإستجابة أعم .

وهل يشمل موضوع الإستجابة في الآية أعلاه من سورة الشورى مسألة خروج الصحابة إلى حمراء الأسد لذكره بصفة الإستجابة لله والرسول خاصة وقد ذكر أن الآية أعلاه نزلت في الأنصار .
الجواب نعم تشمله وإن كان موضوع الآية أعم .

لقد مدح الله عز وجل المؤمنين لإتصافهم بالتشاور بينهم في الأمور العامة ، وهذه الشورى من خصائص ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(١) إذ تتقوم الشورى بينهم بالهداية نحو الأصلح والأرشد والأقوم في سبل الخير والفلاح ، ومن مصاديق الإستجابة التي تذكرها هذه الآية وجوه :
الأول : أهل البيت والصحابة الذين أسلموا في بداية الدعوة الإسلامية في مكة .

الثاني : أهل بيعة العقبة الأولى وعددهم اثنا عشر رجلاً^(٢) .

الثالث : أهل بيعة العقبة الثانية ، وعددهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان^(٣) .

الرابع : الذين استجابوا لله بتصديق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزل الله عليه من القرآن .

الخامس : الذين تلقوا التكليف العبادية بالقبول والرضا والإمتثال ، لذا فالآية لا تختص بالأنصار أو أوان نزولها إنما أحكامها باقية إلى يوم القيامة ، ويتلقى الثناء من عمل بمضامينها القدسية .

(١) سورة آل عمران ١١٠ .

(٢) الروض الأنف ٢/٢٤٧ .

(٣) ابن كثير / السيرة النبوية ٢/٢٠٩ .

وتبين الآية قانوناً وهو أن الإستجابة لله تكتمل بأداء الوظائف العبادية والتقيد بسنن الشريعة في المعاملات من جهتين :

الأولى : المراد من استجابوا لربهم أي في العقائد والفرائض والسنن .

الثانية : ذكر إقامة الصلاة من باب الفرد الأهم .

السادس : عامة التابعين والمؤمنين إلى يوم القيامة ، ليكون من معاني

صيغة الماضي ﴿اسْتَجَابُوا﴾ إنبساط الإستجابة على أفراد الزمان الطولية ما قبل وبعد التنزيل وللإخبار عن بقاء صفة الإستجابة لله في الأرض إلى يوم القيامة .

وقد ذكرت آية الإستجابة هذه إقامة الصلاة لبيان مسألة وهي أن فرض الصلاة على كل مسلم ومسلمة خمس مرات في اليوم سبب ونوع طريق لتعدد الشواهد ومصاديق الإستجابة لله عز وجل في كل دقيقة من آنات الليل والنهار ، ففي كل دقيقة هناك جماعة وطائفة في بقعة ما وبلدة من الأرض قائمة تصلي مجتمعين ومتفرقين في صلاة جماعة أو يؤدونها فرادى ، قال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(١).

وتقدير أول الآية على وجوه :

الأول : الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة .

الثاني : الذين استجابوا لربهم وآتوا الزكاة .

الثالث : الذين استجابوا لربهم وصاموا شهر رمضان ، قال تعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَارَكْتَ عَصَافَةً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾^(٢).

الرابع : الذين استجابوا لربهم وأدوا حج البيت الحرام .

الخامس : الذين استجابوا لربهم وأدوا الخمس .

(١) سورة طه ١٤.

(٢) سورة البقرة ١٨٤.

السادس : الذين استجابوا لربهم وأمروا بالمعروف وسعوا في الصالحات ، وأعمال البر ، قَالَ أَبُو جَرِيٍّ الْهَجِيمِيُّ ؛ " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْصِنِي ، قَالَ : لَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ ، أَنْ تَأْتِيَهُ ، وَلَوْ أَنْ تُفَرِّغَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِنْاءٍ الْمُسْتَسْقَى ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ ، وَوَجْهَكَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ ، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا خَلَقَهُمْ لِحَوَائِجِ النَّاسِ ، هُمْ الْآمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ^(١) .

السابع : الذين استجابوا لربهم بلطف وفضل منه تعالى .

الثامن : الذين استجابوا لربهم فخرجوا إلى معركة أحد ، ولم يرجعوا من وسط الطريق .

التاسع : الذين استجابوا لربهم وخرجوا إلى حمراء الأسد مع كثرة جراحاتهم .

العاشر : الذين استجابوا لربهم وامتنعوا عن الإبتداء بالقتال وأن كان قتالهم دفاعاً .

الحادي عشر : الذين استجابوا لربهم وأمرهم شورى بينهم ، فلم يرق المسلمون إلى مرتبة المشورة والتشاور إلا بصيغة الإيمان ، وهدى القرآن ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ^(٢) .

لقد عانى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الأذى من المنافقين عند الخروج إلى معركة أحد ، فمنهم من قعد وأشار على الناس بالقعود ، ومنهم ثلاثمائة رجعوا من وسط الطريق إلى معركة أحد ، وهي مصيبة

(١) تفسير الثعالبي ١١٠/١ .

(٢) سورة الاسراء ٩ .

نزلت على المهاجرين والأنصار إذ أن عدد الذين إنخزلوا ثلث مجموع عدد جيش المسلمين ، ويقف على الناحية الأخرى ثلاثة آلاف رجل من الكفار شاهرين السيوف.

ومن المنافقين من أظهر اللوم للشهداء كما ورد في التنزيل ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِلْأَخِيَانِ مِمَّا قَاتَلُوا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١).

وحينما خرج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى حمراء الأسد فهل لاقوا الأذى من المنافقين ، الجواب فيه وجوه :

الأول : الأذى الذي لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند الخروج إلى حمراء الأسد أشد مما لاقاه عند الخروج إلى معركة أحد .

الثاني : الأذى عند الخروج إلى حمراء الأسد أقل من الأذى الذي لاقوه عند الخروج إلى معركة أحد وفي الطريق إليها.

الثالث : التساوي في الأذى بين الذي لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عند الخروج إلى معركة أحد وبين الذي لاقوه عند الخروج إلى حمراء الأسد .

الرابع : لم يلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم أذى من المنافقين عند خروجه إلى حمراء الأسد .

والجواب هو الثاني إذ قطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على المنافقين الطريق ومنعهم من بث الأراجيف بأن جعلهم منشغلين بأنفسهم حيث منعهم من الخروج معه ، ويدل هذا المنع بالدلالة التضمنية على أمور:

الأول : استغناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين عن المنافقين.

الثاني : حرمان المنافقين من الثواب .

الثالث : عدم رضا الله ورسوله عن المنافقين ، قال تعالى ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ﴾^(١).

الرابع : الفصل والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، فمنع المنافقين من الخروج إلى حمراء الأسد من مصاديق قوله تعالى ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٢).

الخامس : منع المنافقين من إرادة الفتنة سواء في الطريق إلى حمراء الأسد أو عند الإقامة فيها أو حال الرجوع منها.

لقد كان الخروج إلى حمراء الأسد شاهداً على إخلاص وصدق النية والثبات على الإيمان ، قال تعالى ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٣) وكان الصحابة الذين خرجوا إلى حمراء الأسد يعلمون بأن ليس من غنائم في خروجهم إنما يعرضون أنفسهم للقتل ، فكان قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَمْوَاتٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٤) ، سلاحاً ومواساة وعوناً لهم ، فأنعم الله عز وجل عليهم بالعودة سالمين.

وأخبر القرآن عن هذه العودة بقوله تعالى ﴿فَاتَّقِلُّوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(٥).

(١) سورة التوبة ١٠١.

(٢) سورة آل عمران ١٧٩.

(٣) سورة فصت ٣٥.

(٤) سورة البقرة ١٥٤.

(٥) سورة آل عمران ١٧٤.

لقد كان رجوع المنافقين من وسط الطريق إلى معركة أحد من مصاديق الخبث وعزله عن الطيب في قوله تعالى ﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(١) وجاء الخروج إلى حمراء الأسد ليمنع النبي صلى الله عليه وآله وسلم المنافقين من الخروج معه لثبوت خبثهم وشكهم وضلالتهم .
وبيان قانون وهو عدم حاجة النبي والإسلام للمنافقين حتى في ساعة المحنة.

فحرموا أنفسهم من الثناء من الله الذي ورد في آية الانقلاب أعلاه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(٢) لما فيها من الثناء الجميل ، والوعد الكريم الذي ذكرته الآية الكريمة .

لقد كشفت كتيبة حمراء الأسد حقيقة وهي أن المؤمنين استجابوا لله والرسول وهم باشد الأحوال وساروا إلى القتل قربة إلى الله تعالى فأنعم الله عز وجل عليهم بالعودة بأمن وسلام ، وليس في الخروج إلى حمراء الأسد ما يستلزم معه تسميتها غزوة .

لقد تضمن قوله تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٣) إكراماً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم ينله أحد من الأنبياء السابقين بأن قرن الله عز وجل الإستجابة له بالإستجابة له سبحانه ، وأنه بلغ منزلة بحيث يتبعه المؤمنون ، ويصدقون بما يقوله لأنه لا يقول إلا ما به يأمر الله عز

(١) سورة الأنفال ٣٧.

(٢) سورة آل عمران ١٧٤.

(٣) سورة آل عمران ١٧٢.

وجل ، وفي التنزيل ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾^(١) أي أن جبرئيل علّم النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن الآيات أن المسلمين حينما بلغوا هذه المرتبة من التقوى والإيمان لم يأخذهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الغزو والهجوم على الجيوش وعلى القبائل ، إنما سار بهم بما يكفي لطرد العدو ومنعه من العودة للإغارة على المدينة ، وجعل المشركين في حال إرباك وخشية ، فلم يجرأوا على الهجوم مرة أخرى بعد معركة أحد إلا بعد سنتين في معركة الخندق ، وحينما جاءوا مع كثرتهم إذ كان عددهم عشرة آلاف رجل فانهم عجزوا عن عبور الخندق ، وعن اقتحام المدينة .

ليكون من إعجاز القرآن تجدد مصداق قوله تعالى ﴿فَيَتَقَلَّبُواْ خَائِبِينَ﴾^(٢) في كل مرة يقوم الذين كفروا بالغزو ، والآية أعلاه شاهد على أنهم هم الذين يقومون بالغزو ، والذين يبدأون القتال .
فمن معاني الخيبة في الآية وجوه :

الأول : إنقلاب المشركين إلى مكة من دون تحقيق أي هدف أو غاية لهم .

الثاني : خيبة المشركين أمام أهل مكة ، فقد خرجوا إلى الغزو وهم يتوعدون ويهددون ، ولم يرجعوا إلا بالتعب والعناء .

الثالث : في كل معركة دخلها المشركون فقدوا عدداً من رجالاتهم .

الرابع : لقد كانت قريش رجال تجارة ، فهم يحبون المال وجمعه ، وقد تحملوا الخسائر الجسيمة في غزوهم ، ولو كان النبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة النجم ٥.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

وسلم وأصحابه هم الغزاة لما اشتدت خيبة المشركين ، ولكن لأنهم الغزاة امتلأت نفوسهم بالخيبة .

وفي قوله تعالى ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١) إنذار للذين كفروا بأن الصحابة يستجيبون لله والرسول في كل مرة يقوم المشركون فيها بالهجوم والغزو .

فمن معاني الآية الكريمة دعوة المشركين للكف عن الغزو ، ومنع المنافقين من الإتصال بالمشركين ، وحتى لو اتصلوا بهم فان كذب المنافقين جلي وواضح ، فان أخبر المنافقون عن ثغرة عند المسلمين فان الكفار لا يصدقون بهم من جهات :

الأولى : كذب المنافقين .

الثانية : إرادة المنافقين الفتنة .

الثالثة : تدارك المسلمين ، والمنع من بقاء الثغرة .

الرابعة : التفات كفار قريش إلى حقيقة وهي ان المنافقين وطوائف من الكفار يريدون استدراجهم في حرب لا يرجعون منها إلا بالخيانة والخسران.

لقد كانت معركة أحد ثم كتيبة حمراء الأسد فاصلاً وسبباً للفتور والنفرة بين الكفار والمنافقين ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿لَيَبْزِلَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾^(٢).

أن أفراد الخبيث متعددة وأن الله عز وجل يفصل بينهم ويفرق جمعهم ، فيكون من مصاديق الآية أعلاه وجوه :

الأول : ليفصل الله الخبيث من الطيب .

(١) سورة آل عمران ١٧٢ .

(٢) سورة الأنفال ٣٧ .

الثاني : ليميز الله الخبيث ، فذات الخبيث يتضح ، فيعرف الأشخاص الذين يمتنعون عن سبيل الهدى ، ومن الإعجاز في تلاوة المسلمين لقوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(١) سلامة المسلمين والمسلمات من درن الخبيث الظاهر والخفي .

الثالث : ليعزل الله المنافقين عن المؤمنين ، فلم يخرج المنافقون الى حمراء الأسد .

الرابع : ليكون فصل المنافقين من المؤمنين في الدنيا مقدمة ومرآة للفصل والعزل بينهم يوم الحساب ، إذ يدخل المؤمنون الجنة ، ويلقى المنافقون العذاب الأليم ، قال تعالى ﴿ لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ^(٢) .

وتبين آيات القرآن عدم الوقوف عند فصل وعزل الخبيث إنما يجعل الله الإرباك والخصومة السمة العامة للمنافقين والكفار ، قال تعالى ﴿ لَيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ^(٣) .

وفي ﴿ فَيَرْكُمُهُ ﴾ قال الزمخشري (فيجعله في جهنم في جملة ما يعذبون به

كقوله ﴿ فَتَكُونُ بِأَجْبَاهِهِمْ وَجُنُوبِهِمْ ﴾ ^(٤) ^(٥) .

ولكن المقصود على جهات :

(١) سورة الفاتحة ٦ .

(٢) سورة الأحزاب ٧٣ .

(٣) سورة الأنفال ٣٧ .

(٤) سورة التوبة ٣٥ .

(٥) الكشاف ٣٦١/٢ .

الأولى : فيركم الكفار في الدنيا بدليل أن إخبار الآية عن جعلهم في جهنم جاء بحرف العطف الفاء ليكثر الشقاق بينهم في الدنيا ، ويصبحون عاجزين عن إتخاذ قرار بغزو المؤمنين .

ويكون الركن والضم في الآية على وجوه :

الأول : ضم الكفار إلى الكفار .

الثاني : ضم الكفار إلى المنافقين .

الثالث : ضم المنافقين إلى المنافقين .

الثانية : فيركمهم ويحشرهم في مواطن الحساب كالنشور والحشر والعرض والحساب والصراط .

الثالثة : جزاء الذين ماتوا على الكفر النار.

ولم يرد لفظ (يركم) في القرآن إلا في الآية أعلاه.

وحينما عاد المهاجرون والأنصار من حمراء الأسد لم يظهروا تعباً أو عناء في سفرهم إنما أظهروا الغبطة والسعادة بخروجهم إلى حمراء الأسد من جهات :

الأولى : نيل المهاجرين والأنصار مرتبة ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١)

وهي مرتبة لم ينلها قبلهم أو بعدهم أحد إذ وردت الألف واللام في الرسول للعهد والمقصود هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد استبشر أهل المدينة بعودة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من معركة أحد سالماً ، ثم ما لبث أن خرج في اليوم التالي مطارداً للعدو ، ومقتنياً لأثره وصارفاً لشروبه عن المدينة ، وفيه جهاد عام لأهل المدينة ونزول شآبيب الثواب على أهلها سواء من خرج مع النبي أو من تخلف عنه من المؤمنين والمؤمنات .

ليعود بعد خمسة أيام هو وأصحابه لم يمسههم سوء ، وقد تعافى عدد منهم من جراحاتهم ، ونزل القرآن بذكر هذه الواقعة بلغة الثناء عليهم ، والإخبار والتوثيق السماوي.

وفي كتيبة حمراء الأسد مسائل :

الأولى : إنها رسالة إلى الناس جميعاً بأن النبي والمهاجرين والأنصار لا يكلون ولا يملون من الصبر والدفاع عن الإسلام .

الثانية : التأكيد العملي لثبات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه على الإيمان .

الثالثة : صيرورة الوحي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضياءً وسبيل هداية ورشاد .

الرابعة : استجابة الصحابة لأمر الله وأمر رسوله وإن كان بخصوص تجدد القتال دفاعاً وصبراً وفي يومين متتاليين .

لقد أشاع المشركون يوم أحد خبراً وهو أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم قد قُتل في ميدان المعركة ، فخرج هو وأصحابه خلفهم في اليوم الثاني للمعركة ، ومر على بيوتات وأحياء المدينة ورآه يهود المدينة وسار بين القرى التي حول المدينة لبعث السكينة في نفوس المؤمنين ، واليأس والإحباط في نفوس الذين كفروا والمنافقين ، قال تعالى ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ

مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْتِفَاقٍ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

ولم يرد لفظ (من حولكم) في القرآن إلا في الآية أعلاه ، وهل فيه تحذير للمؤمنين من الأعراب الذين حول المدينة والخشية من تسخير كفار

قريش لهم ، الجواب نعم ، ومع هذا فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يتعرض لهم ولا لأموالهم.

ثم قام معبد باخبارهم بأنه رأى النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، ومعه جيش كبير من أصحابه ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(١) ، توجه الخطاب في الآية أعلاه إلى المسلمين ، خاصة أولئك الذين لم يحضروا معركة بدر وكانت نفوسهم تواقه للقاء العدو في معركة أحد ، ومن مفاهيم هذه الآية بعث الخوف في قلوب الذين كفروا وجعلهم يصدقون قول تعبد ويعجبون بالمسير الى مكة ، مع الخيبة.

الخامسة : يحتمل سبب وعلة خروج النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد وجوهاً :

الأول : الخروج بأمر من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : استشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه بالخروج ، مثلما استشارهم في معركة بدر ومعركة أحد .

إذ ورد عن السدي (ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه : يوم أحد أشيروا علي ما أصنع ، فقالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرج إلى هذه الأكلب فقالت الأنصار : يا رسول الله ما غلبنا عدو لنا أتنا في ديارنا فكيف وأنت فينا . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال : يا رسول الله اخرج بنا إلى هذه الأكلب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزقة ، فأتى النعمان بن مالك الأنصاري فقال : يا

رسول الله لا تحرمني الجنة فقال له : بم ، قال : بأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، واني لا أفر من الزحف قال : صدقت . فقتل يؤمئذ . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا بدرعه فلبسها ، فلما رأوه وقد لبس السلاح ندموا وقالوا : بئسما صنعنا نشير على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والوحي يأتيه ، فقاموا واعتذروا إليه وقالوا : اصنع ما رأيت .

فقال : رأيت القتال وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل^(١).

الثالثة : اقتراح والحاح الصحابة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالخروج إلى حمراء الأسد .

الرابع : نزول القرآن بالأمر بالخروج .

الخامس : هذا الخروج شعبة من الوحي .

السادس : مجئ جبرئيل بالوحي والأمر بالخروج .

والصحيح هو الخامس والسادس أعلاه ، لذا حينما قام بعضهم بتخويف المسلمين من جيش المشركين وكثرته ﴿قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٢) .

وليكون قوله تعالى ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٣) الذي نزل بخصوص كتيبة حمراء الأسد حرزاً عند المسلمين ، وسلاحاً لدفع الكرب والحزن ، وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته ثم تنفس الصعداء وقال : حسبي الله ونعم الوكيل .

(١) الدر المنثور ٤١٨/٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٧٣ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٣ .

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسبي الله ونعم الوكيل أمان كل خائف^(١).
 لقد كان بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي نادى لندب الناس للخروج خلف العدو ، لبيان وجوب هذا الخروج وأنه عبادة ، وهو من مصاديق الصبر في قوله تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢) .

فمن إعجاز الآية أعلاه أنها جمعت بين الصبر الذي هو كيفية نفسانية وبين الفعل العبادي الصلاة ، لبيان أن الصبر الوارد في الآية يتضمن الصيام أيضاً ، وبين الصبر والصيام عموم وخصوص مطلق .
السادسة : لقد أراد الله عز وجل تأديب المسلمين بالإستجابة لأمر الله الذي يجري على لسان نبيه ، وفيه دعوة للمؤمنات بالصبر والرضا بما كتبه الله ، قال تعالى ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

السابعة : تبكى المنافقين وفضحهم وبث اليأس في نفوسهم ، ودعوتهم للتوبة لتعدد المعجزات النبوية من وجوه :
الأول : المعجزات في معركة أحد .
الثاني : المعجزات في كتيبة حمراء الأسد .
الثالث : المعجزات في الجمع بين الواقعتين وأسرار التابع اليومي بينهما .

(١) الدر المنثور ٥٠٠/٢ .

(٢) سورة البقرة ٤٥ .

(٣) سورة التوبة ٥١ .

الثامنة : تعاهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الصلاة في أحلك الأوقات ، وأشدها عليه ، قال تعالى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١).

التاسعة : بيان قانون وهو مصاحبة الوحي للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعدم انفصاله عنه في ساعة الحرج والشدة ، قال تعالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (٢).

لقد سار النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد ، وأصحابه بمؤونة قليلة ، وعن جابر بن عبد الله قال وكان عامة زادنا التمر . وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيراً وساق جزراً معه ، فنحروا في يوم اثنين وفي يوم ثلاثة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمر أصحابه بجمع الحطب في النهار فاذا جاء الليل وساد الظلام أمر أن توقد النيران ، فيوقد كل رجل منهم ناراً أو أكثر ، فيوقدون خمسمائة نار فترى من بعيد فشاع خبر معسكر المسلمين وبلغ المشركين .

لقد وصل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد يوم الإثنين السابع عشر من شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وأقام هناك يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء .

لقد استمع أبو سفيان إلى تحذير وإنذار معبد إلى جانب كلام صفوان قبل وصول معبد ، إذ حذر صفوان رؤساء المشركين من الرجوع إلى المدينة والكرة مرة أخرى عليها ، وخوفهم من إجتماع الأوس والخزرج لقتالهم ، وأنه ستدخل أمة المعركة لم تقا تل في معركة أحد إلى جانب حال الإنهاك

(١) سورة طه ١٤.

(٢) سورة الضحى ٣.

في جيش المشركين ، والإحباط وطول المسير ذهاباً وإياباً ، وقد أخبرهم قادتهم أنهم هزموا المسلمين ، بينما سيقا تل المسلمون بعدد أكثر ، وبتفاني وإخلاص وأشار عليهم صفوان بالرجوع قبل أن يأتيهم معبد .
(قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أرشد هم صفوان وما كان برشيد، والذي نفسي بيده، لقد سومت لهم الحجارة، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذاهب)^(١).

فغزم جيش المشركين على التعجيل بالعودة إلى مكة ، ولكن أبا سفيان لم يترك الأمر من غير أن تكون له بصمة من المكر والدهاء ، فقد مر بهم نفر من عبد قيس يريدون المدينة والتبضع منها .
فسألهم أبو سفيان : أين تريدون ، قالوا نريد المدينة .
قال : ولم ، إذ أراد الإطمئنان بأنهم لم يذهبوا إليها لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه أو لدخول الإسلام أو أنهم وفد لقومهم ليستمعوا لدعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم .
قالوا : نريد الميرة .

عندئذ قال (فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم إبلكم هذه غداً زيبياً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا: نعم، قال: فإذا جئتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه، لنستأصل بقيتهم)^(٢).

وسوق عكاظ الذي تأتية العرب لتقيم عنده ويتوالى وفودهم عليه مدة عشرين يوماً ابتداء من أول ذي القعدة من كل سنة للبيع والشراء والقاء الأشعار ثم يتوجهون صوب سوق مجنة فيقضون فيه العشر الأواخر من

(١) مغازي الواقدي ١/١٣٠.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ١/٤٨٢.

شهر ذي القعدة ثم يسرون إلى سوق ذي المجاز فيمضون فيه الأيام الثمانية الأولى من شهر ذي الحجة ليتوجهوا لأداء مناسك الحج .
وعين أبو سفيان سوق عكاظ لأنه من أوائل الأسواق في الموسم بالقرب من مكة .

وهل فعل أبو سفيان هذا من عمومات (الحرب خدعة) الجواب لا إنما هو من المكر والخديعة والظلم للذات ، قال تعالى ﴿بَلْ زُنِبَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(١).

غزو المشركين للمدينة في معركة أحد

لقد جعل الله عز وجل الدنيا حلوة بهية زينها بالإنسان وزينها له ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(٢) أن مباحج الدنيا من اللامتناهي ، وليس لها انقطاع ، وكل فرد منها يدعو الناس للإنتفاع منها ، ومن الأمر بالمعروف والإخبار بأنه من فضل الله لييان الحاجة إلى شكرهم لله عز وجل لتدوم النعم ، قال تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٣).

(عن أنس بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر : من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة)^(٤).

(١) سورة الرعد ٣٣.

(٢) ابن هشام / السيرة النبوية ٩٩/٢.

(٣) سورة النحل ١١٤.

(٤) الدر المنثور ٢٨٨/١٠.

والأنبياء سادة الناس وجاءوا بأعظم نعمة من عند الله وهي الهداية إلى الإيمان فيلزم شكرهم بالتصديق بنبوتهم ورسالتهم واتباعهم ، قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١)(٢).

فبعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في مكة بجوار بيته الحرام ، ومن أوسط قريش وأسماهم منزلة كي يعضدوه وينصروه ، ولكن أغلبهم قابله بالجحود والصدود فأظهر الصبر والحلم المتجدد كل يوم بما يدل على قانون وهو (صبر النبي على أهل مكة معجزة) .

وحينما تذكر معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا بد أن تضاف لها معجزات خاصة بعنوان معجزة صبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي متعددة منها :

الأول : صبر وحلم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن إعراض قريش عن دعوته إلى التوحيد وما عندهم من النعم كلها بسبب التوحيد ، وفي جوار البيت الحرام ، ومع الإلتساب إلى إبراهيم عليه السلام الذي اجتهد بالدعاء لأهل مكة بالأمن والإيمان والرزق الكريم والبركة في مكة ، وفي التنزيل ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران ١٧٩ .

(٢) أنظر الجزء السابق وهو السادس والثمانون بعد المائة الذي جاء خاصاً بتفسير الآية أعلاه .

(٣) سورة البقرة ١٢٦ .

لقد ترك إبراهيم ولده اسماعيل وأمه هاجر في مكة عند البيت الحرام ليس لهما عشيرة فيها وكان يدرك حاجتهم إلى الأمان ، وحتى إبراهيم عندما نزل مكة فانه قام ببناء البيت الحرام ونادى بالناس بالحج بأمر من عند الله ، قال سبحانه ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(١) .

فكان البيت الحرام أمناً وركنا عظيماً وكذا مجئ وفد الحاج فهم عشيرة إبراهيم من قبائل متعددة والجامع المشترك هو الإيمان وإمامة إبراهيم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٢) .

ويمكن القول بصفة مصاحبة للأنبياء وهي أن الله عز وجل يجعلهم يأوون إلى ركن وسند ، وفي عيسى ورد قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(٣) ، فان قلت ورد بخصوص لوط في التنزيل ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٤) إذ أنه لم يكن يأوي إلى عشيرة تمنعه من القوم الفاسقين.

وقد جاء الجواب لما نزلت هذه الآية بالإسناد عن ابن جرير عن قتادة قال (ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : رحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد ، وذكر لنا أن الله لم

(١) سورة الحج ٢٧.

(٢) سورة البقرة ١٢٤.

(٣) سورة المؤمنون ٥٠.

(٤) سورة هود ٨٠.

يبحث نبياً بعد لوط إلا في ثروة من قومه ، حتى بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم في ثروة من قومه^(١).

لقد استقبلت قريش معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإعراض والصدود فتفضل الله عز وجل بتوالي دخول الناس الإسلام أفراداً وجماعات تباعاً وهو حجة على قريش ، ومناسبة ليتدبروا بأسرار هذا الدخول بالإضافة إلى معجزة حسية أخرى للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي أن الذي يدخل الإسلام لا يخرج عنه ولا منه ولا يتردد حتى مع شدة تعذيب قريش له في شاهد على صدق نبوة محمد .

الحصار على بني هاشم

لقد تمادت قريش في التعدي من جهات :

الأولى : الإفتراء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ رموه بالجنون ونعتوه بأنه ساحر ، ويدل عليه وصفهم له الذي ورد في التنزيل ﴿مَعْلَمٌ مَّجْنُونٌ﴾^(٢).

ويدل الجمع في الآية أعلاه بين إدعاء أن بعضهم يعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه مجنون على قيام قريش بالإفتراء المتعدد على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في المرة والمجلس الواحد ، وهو زيادة في الإيذاء والإضرار الخاص والعام .

الثانية : تلقي قريش وفود الحاج والمعتمرين بالتخويف من الإنصات للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا يولون عناية خاصة لرؤساء القبائل الذين يفدون إلى مكة فيؤكدون عليهم بلزوم الإمتناع عن الإستماع إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ترى لماذا هذا التأكيد.

الجواب من وجوه :

(١) الدر المنثور ٥/٣٣٠.

(٢) سورة الدخان ١٤.

الأول : المنزلة الإجتماعية والشأن الرفيع لشيوخ القبائل .

الثاني : كثرة الإختلاط والمعرفة التي يتصف بها رؤساء القبائل ، فقد يستطيعون معرفة الحق وأسرار الوحي .

الثالث : تبادر حقيقة وهي أن دخول رئيس القبيلة في الإسلام سبب ونوع طريق لهداية قومه ، ودخولهم الإسلام .

الرابع : من عادة رؤساء القبائل أنهم لا يأتون بمفردهم ، بل يأتي معهم بعض أبنائهم وجماعة من رجالهم ، ليكونوا شهداء على دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فحتى إذا لم يسلم رئيس القبيلة ويطلب الإمهال فان الذين معه يسلمون أو يسلم بعضهم ، ويقوم الآخرون بنقل واقعة لقائهم بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وأن هذا اللقاء يختلف ، ويمتاز عن كل حدث لما فيه من فيض من وجوه :

الأول : إشراقة الوحي .

الثاني : تجليات النبوة .

الثالث : البهاء الذي يشع من وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع : الإضاءة والدلالات في حديث النبي التي تجذب الناس إلى الإيمان وتتضمن الإنذار من محاربتة صلى الله عليه وآله وسلم .

قال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قلنا : يا رسول الله أمنا بك فهل تخاف علينا .

قال : إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف شاء إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه .

والإصبع في اللغة الأثر الحسن ، فمعنى قوله : بين إصبعين : بين أثرين من آثار الربوبية وفيها الإزاعة والإقامة .

قال الشاعر :

صلاة وتسبيح والخطأ نائل

وذو رحم تناله منك إصبع

أي أثر حسن.

وقال آخر : مَنْ يجعل الله عليه اصبعاً ، في الشر أو في الخير يلقيه معاً ، فالإصبع أيضاً في اللغة الإصبع ، فمعنى الحديث بين مملكتين من ممالكه ، وبين الإزاعة والإقامة والتوفيق والخذلان^(١).

الثالثة : خشية قريش من نصرة القبائل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واعانته على أعدائه .

الرابعة : فرض الحصار الاقتصادي والاجتماعي على بني عبد المطلب وبني المطلب ، والمطلب هو المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب أي أن المطلب هو عم عبد المطلب بن هاشم جد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالمطلب أخو هاشم.

وهو الذي قدم المدينة لينطلق بعبد المطلب بن هاشم وهي صبي إلى مكة ، وقد يطلق عليهم جميعاً في المقام بني هاشم .

وهل أكرهت قريش بني هاشم على جمعهم في شعب أبي طالب ، الجواب لقد اضطر بنو هاشم للتجمع في الشعب بعد أن علموا بأن قريشاً يريدون قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم علانية (قال موسى بن عقبة عن الزهري: ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا ، حتى بلغ المسلمون الجهد واشتد عليهم البلاء ، وجمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية.

فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بنى عبدالمطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم، وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله.

فاجتمع على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً^(١).

وكان هذا الحصار على وجوه :

أولاً : الإمتناع عن بيع بني هاشم الحبوب والخضار وغيرها .

ثانياً : إجتناّب الشراء من بني هاشم فيأتي الهاشمي يعرض بضاعة في السوق فلا أحد يشتري منه ، وإن كان بسعر أقل من سعر السوق .

ثالثاً : نهى الناس عن الشراء من بني هاشم ومن يقوم بالشراء منهم تقاطعه قريش ، وتوجه له اللوم .

رابعاً : ترك مناكحة بني هاشم ، فلا تتزوج منهم قريش ، ولا هم يتزوجون منها .

خامساً : الإعراض عن بني هاشم ، وعدم مخالطتهم ، وقد كان رجال قريش يلتقون كل يوم في البيت الحرام ، كما كانوا يجتمعون في دار الندوة الملاصقة للبيت الحرام والتي انشأها قصي بن كلاب جدّ محمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاتخذوا هذه الإجتماعات لتشديد الحصار على بني هاشم .

سادساً : قطع الميرة والماء عن بني هاشم ، مما جعل بني هاشم عاجزين عن الخروج إلى أسواق مكة في موسم الحج وكثرة وفد الحاج مما سبب بضعف أبدانهم وظهور الهزال عليها ، ولم تكن قريش كلها مع هذا الحصار خاصة عندما اشتد وتجلت أعراضه الأليمة على بني هاشم وكان فيهم من أمه من بني هاشم .

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٤٣/٢.

(فقال من ساءه ذلك من قريش انظروا ماذا أصاب منصور بن عكرمة)^(١) ، دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشلت يده . ومنصور هذا هو الذي كتب الصحيفة على خلاف فقد وردت أقوال فيمن كتبها على وجوه :

الأول : منصور بن عكرمة بن عامر .

الثاني : عكرمة بن عامر ، (ويقال ابن عمار بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ابن قصي بن كلاب القرشي البدري . معدود في المؤلفه وهو الذي باع دار الندوة من معاوية بمائة ألف قاله أبو عمر مختصراً .

فأما عده من المؤلفه فهو عن ابن الكلبي وأما يبعه دار الندوة فرواه ابن سعد عن الواقدي وهو القائل لما تنازعت قريش في الرفاة والحجابه وغيرهما مما في أيدي بني عبد الدار:

والله لا يأتي الذي قد أردتم ... ونحن جميع أو نخضب بالدم
ونحن ولاة البيت لا تنكرونه ... فكيف على علم البرية نظلم

وذكر المرزباني أنه هجا رجلا في خلافة عمر فضربه عمر تعزيرا فلما أخذته السياط نادى يا آل قصي فوثب إليه أبو سفيان بن الحارث فسكته وأنشد له المرزباني شعرا قاله في الأسود بن مصفود الذي غزا الكعبة ليهدمها ويقال: إنه الذي كتب الصحيفة بين قريش وبني هاشم والمطلب وقيل كتبها ولده منصور وقيل أخوه بغيض بن عامر فالله أعلم^(٢) .

الثالث : بغيض بن عامر بن هاشم ، أخو عكرمة أعلاه .

الرابع : نضر بن الحارث

(١) الخصائص الكبرى ٢٤٩/١ .

(٢) الإصابة في معرفة الصحابة ٢٦٣/٢ .

سابعاً : عدم مكاملة ومحادثة بني هاشم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقريش ليقتلوه.

ثامناً : الإمتناع عن الصلح مع بني هاشم .

تاسعاً : عدم الرأفة ببني هاشم مادوا يمتنعون متعاضدين مع النبي ، فبعد كتابة قريش صحيفة الحصار إنحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى الشعب (مُؤْمِنُهُمْ وَكَافَرُهُمْ إِلَّا أَبَا لَهَبٍ فَإِنَّهُ ظَاهِرٌ قُرَيْشًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ)^(١).

عاشرأ : عجز بني هاشم عن مزاولة التجارة لعدم وجود من يشتري بضاعتهم .

الحادي عشر : إذا دخل طعام إلى مكة واراد بنو هاشم شراؤه قامت قريش بدفع مبلغ أعلى به فيمتنع صاحبه عن بيعه لبني هاشم ، وحينما يأتي لقريش لشرائه يمتنعون عنه .

الثاني عشر : قطع الأسواق على بني هاشم ، فلا تترك قريش (طعاما يقدم مكة ولا يبيعا إلا بادروهم إليه فاشتروه)^(٢).

الثالث عشر : من العهود والمواثيق التي كتبتها قريش في الصحيفة أنهم (لا يقبلوا من بنى هاشم صلحا أبداً، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للقتل)^(٣).

وكان بنو هاشم يلجأون لشراء بعض المواد والحبوب سراً أو من خارج مكة ، وقبل أن ترد العير إليها وصار أطفال ونساء بني هاشم يتضرعون جوعاً ، وكانت أصواتهم وتضاغيهم تسمع من وراء الشعب ، وحينئذ قال أبو طالب قصيدته اللامية التي تعوذ فيها بحرم مكة وقديسيته ، ويبين شرف

(١) زاد المعاد ٢٠/٣.

(٢) الخصائص الكبرى ٢٤٧/١.

(٣) ابن كثير / السيرة النبوية ٤٤/٢.

منزلته ويتودد الى قومه مع ثباته على عهده بعدم تسليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهم أميراً ولو هلك دونه ، فقال :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وَدَ فِيهِمْ ... وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ
وَقَدْ صَارَحُونَا بِالْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى ... وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ الْعَدُوِّ الْمُزَايِلِ
وَقَدْ حَافَلُوا قَوْمًا عَلَيْنَا أَظَنَّةٌ ... يَعْضُونَ غِيْظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ
صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمَرَاءَ سَمْحَةً ... وَأَيُّضَ عَضْبٍ مِنْ تَرَاثِ الْمَقَاوِلِ
وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي ... وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ
قِيَامًا مَعَ مُسْتَقْبِلِينَ رَتَاجَهُ ... لَدَى حَيْثُ يَقْضِي حَلْفَهُ كُلُّ نَافِلِ
وَحَيْثُ يَنْبِخُ الْأَشْعُرُونَ رَكَابَهُمْ ... بِمُقْضَى السَّيُولِ مِنْ إِسَافٍ وَنَائِلِ
مُوسِمَةِ الْأَعْضَادِ أَوْ قَصْرَاتِهَا ... مُخَيَّسَةً بَيْنَ السَّدِيسِ وَبِأَزْلِ
تَرَى الْوَدْعَ فِيهَا وَالرَّخَامَ وَزِينَةَ ... بِأَعْنَاقِهَا مَعْقُودَةً كَالْعَثَاكِلِ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ ... عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلَحٍ بِبَاطِلِ
وَمِنْ كَاشِحٍ يَسْعَى لَنَا بِمَعِيَةٍ ... وَمِنْ مُلْحِقٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ نَحَاوِلِ
وَتُورٍ وَمِنْ أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ ... وَرَاقٍ لِيرْقَى فِي حِرَاءٍ وَنَازِلِ
وَبِالْبَيْتِ حَقَّ الْبَيْتِ مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ ... وَبِاللَّهِ إِنْ اللَّهَ لَيْسَ بِغَافِلِ
وَبِالْحَجَرِ الْمُسَوَّدِ إِذَا يَمْسَحُونَهُ ... إِذَا اكْتَفَفُوهُ بِالضَّحَى وَالْأَصَائِلِ
وَمَوْطِئِ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةً ... عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ
وَأَشْوَاطٍ بَيْنَ الْمَرُوتَيْنِ إِلَى الصَّفَا ... وَمَا فِيهِمَا مِنْ صُورَةٍ وَتَمَاثِلِ
وَمِنْ حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ ... وَمِنْ كُلِّ ذِي نَذَرٍ وَمِنْ كُلِّ رَاجِلِ
وَبِالْمَشْعَرِ الْأَقْصَى إِذَا عَمِدُوا لَهُ ... إِلَالًا إِلَى مُقْضَى الشَّرَاجِ الْقَوَابِلِ
وَتَوَقَّافِهِمْ فَوْقَ الْجِبَالِ عَشِيَّةً ... يُقِيمُونَ بِالْأَيْدِي صُدُورَ الرُّوَاحِلِ
وَلَيْلَةً جَمَعَ وَالْمَنَازِلَ مِنْ مَنَى ... وَهَلْ فَوْقَهَا مِنْ حُرْمَةٍ وَمَنَازِلِ
وَجَمَعَ إِذَا مَا الْمُقَرَّبَاتِ أَجَزْنَهُ ... سِرَاعًا كَمَا يَخْرُجْنَ مِنْ وَقَعٍ وَابِلِ
وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى إِذَا صَمَدُوا لَهَا ... يَوْمُونَ قَذْفًا رَأْسَهَا بِالْجَنَادِلِ

وَكِنْدَةٌ إِذَا هُمْ بِالْحَصَابِ عَشِيَّةٌ ... تُجِيزُ بِهِمْ حُجَّاجُ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ
 حَلِيفَانِ شِدَا عَقْدَ مَا اِحتَلَفَا لَهُ ... وَرَدَا عَلَيْهِ عَاطِفَاتِ الْوَسَائِلِ
 وَحَطَمَهُمْ سَمَرُ الصَّفَاحِ وَسَرَحَهُ ... وَشَبَّرَقَهُ وَخَدَ النِّعَامِ الْجَوَافِلِ
 فَهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ مُعَاذٍ لِعَائِدٍ ... وَهَلْ مِنْ مُعِيزٍ يَتَّقِي اللَّهَ عَازِلِ
 يُطَاعُ بِنَا الْعُدَى وَوَدَّوْا لَوْ أَنَّا ... تُسَدُّ بِنَا أَبْوَابُ تَرْكٍ وَكَابِلِ
 كَذِبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ تَتْرُكُ مَكَّةَ ... وَنَظَعْنَ إِلَّا أَمْرَكُمْ فِي بِلَابِلِ
 كَذِبْتُمْ وَبَيَّتَ اللَّهُ تَبْزِي مُحَمَّدًا ... وَلَمَّا نَطَاعَنْ دُونَهُ وَتَنَاضِلِ
 وَنَسْلَمُهُ حَتَّى نَصْرَعَ حَوْلَهُ ... وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَالِ
 وَيَنْهَضُ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ ... نُهَوِّضُ الرُّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلَاصِلِ
 وَحَتَّى تَرَى ذَا الضَّغْنِ يَرْكَبُ رَدْعَهُ ... مِنْ الطَّعْنِ فَعَلَ الْإِنْكَبِ الْمُتَحَامِلِ
 وَإِنَّا لَعَمْرُ اللَّهِ إِنْ جَدَّ مَا أَرَى ... لَتَلْتَبَسَنَّ أَسْيَافُنَا بِالْأَمَائِلِ
 بِكَفِّي فَتَى مِثْلَ الشَّهَابِ سَمِيدَعٍ ... أَخِي ثَقَّةَ حَامِي الْحَقِيقَةِ بَاسِلِ
 شُهُورًا وَأَيَّامًا وَحَوْلًا مُجْرِمًا ... عَلَيْنَا وَتَأْتِي حِجَّةٌ بَعْدَ قَابِلِ
 وَمَا تَرَكَ قَوْمٌ لَّا أَبَا لَكَ ، سَيِّدًا ... يَحُوطُ الذَّمَّارَ غَيْرَ ذَرْبِ مُوَائِلِ
 وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثَمَالُ الْيَتَامَى عَصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
 يَلُودُ بِهِ الْهَلَّافُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ ... فَهُمْ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاصِلِ
 لَعَمْرِي لَقَدْ أَجْرَى أَسِيدٌ وَبَكْرُهُ ... إِلَى بُغْضِنَا وَجَزَانَا لَلْأَكْلِ
 وَعَثْمَانُ لَمْ يَرْبِعْ عَلَيْنَا وَقَتْفُهُ ... وَلَكِنْ أَطَاعَا أَمْرَ تِلْكَ الْقَبَائِلِ
 أَطَاعَا أَبِيًّا وَابْنَ عَبْدِ يَغُوْثِهِمْ ... وَلَمْ يَرْقُبَا فِينَا مَقَالَةَ قَائِلِ
 كَمَا قَدْ لَقِينَا مِنْ سَبِيْعٍ وَنُوفَلٍ ... وَكُلٌّ تَوَلَّى مُعْرِضًا لَمْ يَجَامِلِ
 فَإِنْ يُلْقِيَا أَوْ يُمْكِنُ اللَّهُ مِنْهُمَا ... نَكُلُ لَهُمَا صَاعًا بِصَاعِ الْمَكَائِلِ
 وَذَاكَ أَبُو عَمْرٍو أَبِي غَيْرِ بُغْضِنَا ... لِيُظْعِنَنَا فِي أَهْلِ شَاءَ وَجَامِلِ
 يُنَاجِي بِنَا فِي كُلِّ مُمْسَى وَمُصْبِحٍ ... فَتَنَاجِ أَبَا عَمْرٍو بِنَا ثُمَّ خَاتِلِ
 وَيُوَلِّي لَنَا بِاللَّهِ مَا إِنْ يَغْشَيْنَا ... بَلَى قَدْ نَرَاهُ جَهْرَةً غَيْرَ حَائِلِ

أَضَاقَ عَلَيْهِ بُغْضُنَا كُلَّ تَلْعَةٍ ... مِنَ الْأَرْضِ بَيْنَ أَخْشَبٍ فَمَجَادِلِ
وَسَائِلِ أَبَا الْوَلِيدِ مَاذَا حَبَوْتُنَا ... بِسَعْيِكَ فِينَا مُعْرِضًا كَالْمَخَاتِلِ
وَكُنْتَ أَمْرًا مِمَّنْ يُعَاشُ بِرَأْيِهِ ... وَرَحْمَتُهُ فِينَا وَلَسْتَ بِجَاهِلِ
فَعْتَبَةٌ لَا تَسْمَعُ بِنَا قَوْلَ كَاشِحٍ ... حَسُودٍ كَذُوبٍ مُبْغِضٍ ذِي دَغَاوِلِ
وَمَرَّ أَبُو سُفْيَانَ عَنِّي مُعْرِضًا ... كَمَا مَرَّ قَيْلٌ مِنْ عِظَامِ الْمَقَاوِلِ
يَهْرُ إِلَى نَجْدٍ وَبَرْدِ مِيَاهِهِ ... وَيَزْعُمُ أَنِّي لَسْتُ عَنْكُمْ بِغَافِلِ
وَيُخْبِرُنَا فَعْلُ الْمُنَاصِحِ أَنَّهُ ... شَفِيقٌ وَيُخْفِي عَارِمَاتِ الدَّوَاحِلِ
أَمْطَعِمَ لَمْ أَخْذَلْكَ فِي يَوْمِ نَجْدَةٍ ... وَلَا مُعْظِمٌ عِنْدَ الْأُمُورِ الْجَلَائِلِ
وَلَا يَوْمَ خَصَمٍ إِذَا أَتَوْكَ أَلْدَةً ... أُولِي جَدَلٍ مِنَ الْخُصُومِ الْمَسَاجِلِ
أَمْطَعِمَ إِنَّ الْقَوْمَ سَامُوكَ خُطَّةً ... وَإِنِّي مَتَى أُوَكِّلَ فَلَسْتُ بِوَائِلِ
جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوَفَلًا ... عَقُوبَةً شَرَّ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلِ
بِمِيزَانٍ قَسَطَ لَا يُخَسِّ شَعِيرَةً ... لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرَ عَائِلِ
لَقَدْ سَفَهْتَ أَحْلَامَ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا ... بَنِي خَلْفٍ قِيضًا بِنَا وَالْغِيَاطِلِ
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ ... وَآلِ قُصَيٍّ فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
وَسَهْمٍ وَمَخْزُومٍ تَمَالَوْا وَالْبُؤَا ... عَلَيْنَا الْعَدَا مِنْ كُلِّ طَمَلٍ وَخَامِلِ
فَعَبْدُ مَنْافٍ أَنْتُمْ خَيْرُ قَوْمِكُمْ ... فَلَا تُشْرِكُوا فِي أَمْرِكُمْ كُلِّ وَاعِلِ
لَعَمْرِي لَقَدْ وَهَنْتُمْ وَعَجَزْتُمْ ... وَجِئْتُمْ بِأَمْرِ مُخْطِئٍ لِلْمَفَاصِلِ
وَكُنْتُمْ حَدِيثًا حَطَبَ قَدَرٍ وَأَنْتُمْ ... الْآنَ حَطَابُ أَقْدَرٍ وَمَرَاجِلِ
لِيَهْنِئَ بَنِي عَبْدِ مَنْافٍ عَقُوقُنَا ... وَخَذَلَانُنَا وَتَرْكُنَا فِي الْمَعَاقِلِ
فَإِنَّ نَكَ قَوْمًا نَشْرُ مَا صَنَعْتُمْ ... وَتَحْتَلِبُوهَا لِقَعَةً غَيْرَ بَاهِلِ
وَسَائِطُ كَانَتْ فِي لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ ... نَفَاهُمُ إِلَيْنَا كُلِّ صَقَرٍ حَلَّاحِلِ
وَرَهْطُ نُفَيْلٍ شَرٌّ مِنْ وَطْئِ الْحَصَى ... وَالْأَلَامُ حَافٍ مِنْ مَعَدٍّ وَنَاعِلِ
فَأَبْلَغُ قُصَيًّا أَنْ سَيَنْشُرُ أَمْرُنَا ... وَبَشَرُ قُصَيًّا بَعْدَنَا بِالتَّخَاذُلِ
وَلَوْ طَرَقَتْ لَيْلًا قُصَيًّا عَظِيمَةً ... إِذَا مَا لَجَأْنَا دُونَهُمْ فِي الْمَدَاخِلِ

وَلَوْ صَدَقُوا ضَرْبًا خِلَالَ بَيُوتِهِمْ ... لَكُنَّا أَسَىٰ عِنْدَ النِّسَاءِ الْمَطَافِلِ
فَكُلَّ صَدِيقٍ وَابْنِ أُخْتٍ نَعُدُّهُ ... لَعَمْرِي وَجَدْنَا غِبَّهُ غَيْرَ طَائِلِ
سَوَىٰ أَنْ رَهْطًا مِنْ كَلَابِ بْنِ مُرَّةٍ ... بَرَاءَ إِلَيْنَا مِنْ مَعَقَّةٍ خَاذِلِ
وَهَنَّا لَهُمْ حَتَّى تَبَدَّدَ جَمْعُهُمْ ... وَيَحْسُرُ عَنَّا كُلُّ بَاغٍ وَجَاهِلِ
وَكَانَ لَنَا حَوْضُ السَّقَايَةِ فِيهِمْ ... وَنَحْنُ الْكُدَىٰ مِنْ غَالِبٍ وَالْكَوَاهِلِ
شَبَابٍ مِنَ الْمُطَيِّبِينَ وَهَاشِمٍ ... كَيْبُضِ السِّيَوفِ بَيْنَ أَيْدِي الصِّيَاقِلِ
فَمَا أَدْرَكُوا ذَحْلًا وَلَا سَفَكُوا دَمًا ... وَلَا حَالَفُوا إِلَّا شَرَارَ الْقَبَائِلِ
بِضَرْبِ تَرَى الْفَتَيَانِ فِيهِ كَأَنَّهُمْ ... ضَوَارِي أُسُودٍ فَوْقَ لَحْمٍ خِرَادِلِ
بَنِي أُمَّةٍ مَحْبُوبَةٍ هِنْدِكِيَّةٍ ... بَنِي جَمَحٍ عُبَيْدٍ قَيْسِ بْنِ عَاقِلِ
وَلَكُنَّا نَسْلُ كِرَامَ لِسَادَةٍ ... بِهِمْ نَعِي الْأَقْوَامَ عِنْدَ الْبَوَاطِلِ
وَنَعِمَ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ غَيْرِ مُكَذِّبٍ ... زُهَيْرٍ حُسَامًا مَفْرَدًا مِنْ حَمَائِلِ
أَشْمٍ مِنَ الشَّمِّ الْبَهَالِيلِ يَنْتَمِي ... إِلَى حَسْبٍ فِي حَوْمَةِ الْمَجْدِ فَاضِلِ
لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَفْتُ وَجَدًا بِأَحْمَدَ ... وَلِاخْوَتِهِ دَابَّ الْمَحَبِّ الْمَوَاصِلِ
فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا ... وَزَيْنَا لِمَنْ وَالَاهُ رَبُّ الْمَشَاكِلِ
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤْمَلٍ ... إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضِلِ
حَلِيمٍ رَشِيدٍ عَادِلٍ غَيْرِ طَائِشٍ ... يُوَالِي إِلَّاهَا لَيْسَ عَنْهُ بَغَافِلِ
فَوَاللَّهِ لَوْ لَا أَنْ أَجِيءَ بِسُنَّةٍ ... تَجَرَّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ
لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ جَدًّا غَيْرَ قَوْلِ التَّهَازُلِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنْ ابْتَنَّا لَا مُكَذِّبٍ ... لَدَيْنَا وَلَا يَعْنِي بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدُ فِي أَرْوَمَةٍ ... تُقْصِرُ عَنْهُ سُورَةُ الْمُتَطَوَّلِ
حَدَّثَتْ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتَهُ ... وَدَافَعَتْ عَنْهُ بِالذَّرَا وَالْكَلَاكِلِ
فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ ... وَأَظْهَرَ دِينًا حَقَّهُ غَيْرُ بَاطِلِ
رِجَالٍ كِرَامٍ غَيْرِ مِيلٍ نَمَاهُمْ ... إِلَى الْخَيْرِ آبَاءَ كِرَامِ الْمَحَاصِلِ

فَإِنْ تَكُ كَعْبٌ مِنْ لُؤَيٍّ صُقْيِيَّةٌ ... فَلَا بُدَّ يَوْمًا مَرَّةً مِنْ تَزَايَلٍ^(١).
واستمر الحصار ثلاث سنين من أول محرم من السنة السابعة للهجرة.
وجاء حكيم بن حزام مرة ومعه غلام يحمل قمحاً إلى عمته خديجة أم المؤمنين فرآه أبو جهل ، فتعلق به ، وحاول منعه وقال له :
أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى
افضحك بمكة ، فلم يستجب حكيم لقوله وأخبره أن القمح لعمته وهي من
سيدات قريش.

كما أنها ليست من بني هاشم ، ولكن أبا جهل لم يرض بكلامه.
ولما أبصر بهما أبو البختري بن هاشم الأسدي ، وكان معروفاً بالرافة
بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا يشترك في إيذائه ، وقد تقدمت
قصة قتله في معركة بدر بعد أن أوصى النبي محمد صلى الله عليه وآله
وسلم صحابته بعدم التعرض له ، ولكن طلب سلامة صاحبه الذي كان
معه أيضاً.

وأسرع أبو البختري إلى حكيم بن حزام وأبي جهل وتوجه بالسؤال
إلى أبي جهل : مالك وماله ، ما الذي تريده منه.
قال أبو جهل : إنه يحمل الطعام إلى بني هاشم خلافاً لما اتفقنا عليه
وكتبناه في الصحيفة .

فقال أبو البختري : إنه طعام لعمته كان عنده ، فبعثت تطلب احضاره
افتمنعه أن يأتيها بطعامها.

وكانت قريش تعلم بأن حكيم بن حزام كان يعمل في تجارة عمته
خديجة ، وهو الذي اشترى زيد بن حارثة لعمته خديجة بنت خويلد من
أحد أسواق مكة بعد أن وقع في سباء في الجاهلية ، ثم وهبته خديجة
لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد الزواج المبارك حتى جاء أهله

وخيره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاختار البقاء معه ، وكان البذل الذي دفعه حكيم بن حزام عوضاً لشراء زيد رقيقاً هو (اربعمائة درهم) ^(١) ، من مال خديجة.

ليفوز زيد بذكر اسمه في القرآن ، وصحبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأمرة في عدد من سرايا الدفاع ، قال تعالى ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدُ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ لِلْكِى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ^(٢).

ثم طلب أبو البختري من أبي جهل أن يخلي سبيل حكيم بن حزام ، ولكن أبا جهل رفض أن يستجيب لطلب أبي البختري وعلى صوتهما وتشادا ، فأخذ أبو البختري عظم بعير فضرب به أبا جهل فشجه ثم وطأه وطئاً شديداً وكان حمزة بن عبد المطلب يرى ما يقع ، ويمتنع عن التدخل إذ يخشى أن يصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشاعت هذه الواقعة فأنكر عدد من رجال قريش ما فعله أبو جهل خاصة مع اشتداد الحصار على بني هاشم .

وهل كان عموم أهل مكة ورجال القبائل يرضون بهذا الحصار ، الجواب لا ، فلا يجد عند كثير من الناس إلا الإستهجان والنفرة مما تفعله قريش وصار سبباً بدخول أفراد في الإسلام ، وأظهرت هذه الواقعة استياء عدد من رجالات قريش من وثيقة الحصار التي تعاقدوا عليها ، وأدركوا أنها لم تجذب للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلا التأييد من عامة

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ١٦١/١ .

(٢) سورة الأحزاب ٣٧ .

العرب ، ودخول طائفة الإسلام ، وإظهار طائفة أخرى العزم على دخول الإسلام ونصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وإلى دخول الكفار من بني هاشم الإسلام ليس حماية إنما لرؤية المعجزات وكيف أنها تترى بين يدي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وكل معجزة دعوة للناس للإيمان ، ولما قال تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ

الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) ، فإن الإنذار يأتي بوجوه متعددة منها :

أولاً : تلاوة آيات القرآن ، وقد جاءت السور المكية بالإنذار والوعيد ، منها قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْبِي لَهُبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي يَدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(٢) .

فصحيح أن هذه الآية توبيخ وتبكيث وذم لأبي جهل إلا أنها إنذار لعموم بني هاشم باجتنب محاكاة أبي لهب في عداوته للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وان صلة القربى من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا تشفع للكافر والجاحد بنبوته وقد يفتن بعض الناس بمسألة إنكارهم عم النبي لنبوته ، فنزلت السورة أعلاه لتقول للناس لا تلتفتوا إلى فعل أبي لهب وجحوده ، قال تعالى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾^(٣) .

ثانياً : أداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة خمس مرات في اليوم فكان شعب أبي طالب مناسبة لإجتماع بني هاشم ورؤيتهم النبي

(١) سورة الشعراء ٢١٤ .

(٢) سورة المسد ١-٥ .

(٣) سورة آل عمران ١١١ .

صلى الله عليه وآله وسلم ومعه خديجة والإمام علي وهم يصلون جماعة الفرائض اليومية الخمسة ، وفيه إنذار لبني هاشم ، ومناسبة لدخولهم الإسلام ، وزيادة إيمان من أسلم منهم ليكون شعب أبي طالب من أوائل المساجد التي اقيمت فيها الصلوات الخمس جماعة بعد المسجد الحرام .

ثالثاً : ذات حصار قريش لبني هاشم بسبب رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إنذار لهم في لزوم الإمتناع عن إيذاء النبي وأصحابه .
رابعاً : تجلي معاني الإنذار بالسنة النبوية القولية والفعلية قبل وأثناء أيام الحصار .

لقد استمر حصار قريش لبني هاشم ثلاث سنوات إذ ابتدأ من أول شهر محرم في السنة السابعة للبعثة النبوية وإلى السنة العاشرة . ولا يظن أحد حصول مثل هذا الحصار في تلك الأزمنة وليس من خلافة ودولة في مكة تفرض نظاماً للحصار ، وهي بلدة مفتوحة ليس لها أسوار ، ولا شئ تخشاه قريش من غزو ونحوه إذ يعيشون في كنف البيت الحرام ، وإكرام العرب له ولجأوريه ، إنما يأتون إلى مكة حجاجاً ومعتمرين ، فكانت مكة بيت وبلدة للجميع ، وهو من مصاديق تسميتها في القرآن ﴿أُمُّ الْقُرَى﴾^(١) .

فكل فرد من أهل القرى والمدن في الجزيرة له حصّة وموضع في مكة لأن فيها البيت الذي وضعه الله للناس جميعاً كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾^(٢) .

وهل يختص لفظ (القرى) في الآية أعلاه بذات القرى ، أم يشمل المدن كالطائف .

(١) سورة الشورى ٧ .

(٢) سورة آل عمران ٩٦ .

الجواب هو الثاني بدليل قوله تعالى ﴿رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(١). والمراد من القريتين مكة والطائف ، ترى هل انحصرت أضرار حصار قريش في بني هاشم وما أصابهم من الجوع والعطش والعوز والإنكسار أم أن أضراره شملت قريشاً نفسها.

الجواب هو الثاني ، وكانت أضرار قريش أشد وأمر عليهم إذ كان هذا الحصار من معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن يكون إيذاء الذين كفروا له سبباً لتسليم الناس بنبوته ، ودخول طائفة منهم الإسلام ، لرؤية الآيات من صبر النبي وحسن سمته ومنطقه الذي لا يكون إلا بالوحي .

وقد يتبادر الى الذهن أن شعب أبي طالب خارج مكة ولكنه جزء منها ولا يبعد عن البيت الحرام إلا ثلاثمائة متر ، إذ يقع خلف جبل الصفا ، ويكون جبل أبي قبيس عن يساره ، والخندمة عن يمينه ، وهي سلسلة جبلية خشباء ويصب شعب أبي طالب في بطحاء مكة وما يعرف اليوم بسوق الليل^(٢) ، المجاور للمسجد الحرام وكانت ولادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في شعب أبي طالب ، لأنه منازل بني هاشم قبل النبوة ، وموضع ولادته الآن (مكتبة مكة المكرمة) وسمي شعب أبي طالب فيما بعد باسماء :

الأول : شعب بني هاشم .

الثاني : شعب علي بن أبي طالب .

الثالث : شعب المولد ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولد فيه .
ويحتمل تجمع بني هاشم وبني المطلب في شعب أبي طالب وجوهاً :

(١) سورة الزخرف ٣١.

(٢) أزيل هذا السوق قبل سنتين للتوسعة بالمسجد الحرام ، كما ضم جزء من الشعب لهذه التوسعة .

الأول : هذا الشعب مسكن بني هاشم آنذاك .

الثاني : صدور الأمر من قريش بعزل وحصار بني هاشم في شعب أبي

طالب .

الثالث : قيام أبي طالب باخبار بني هاشم وبني المطلب بأن المشركين يريدون قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وقد طلبوا تسليمه لهم ليقتلوه ، فاجمع بنو هاشم وبنو المطلب على اللجوء الى الشعب ليكون النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين ظهرانيهم ، ويصعب على المشركين الوصول إليه .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، ليلاقى بيت النبوة مدة ثلاثة أعوام حياة الحصار والشدة والضر .

وكان أبو طالب يسهر الليل ، حاملاً سلاحه ، ويطوف في الشعب مع بعض الرجال من بني هاشم ، ويأمر حمزة والعباس بالمرابطة عند مدخل الشعب في النهار للمراقبة والرصد ومنع دخول المشركين إلى الشعب .
ويأمر أبو طالب النبي محمداً أن ينام في فراش أبي طالب للتورية على المشركين ويأمر الإمام علي عليه السلام أو أحد اخوانه بالنوم في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

فاذا وقع هجوم من المشركين تقع السيوف عليه وليس على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه لا يقرب أحد لفراش أبي طالب هذا ، أي أن ميّت الإمام علي عليه السلام في فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الهجرة ليس جديداً أو أمراً طارئاً .

واستمر الحصار ثلاث سنوات وصحيح أن بني هاشم تحملوا أشد الأذى والعزلة الإجتماعية وشدة الجوع والعطش ، ولكنهم خرجوا من الحصار بأمور :

الأول : سلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل ، وهو معجزة حسبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ كانت قريش تصر على قتله الثاني : دخول جماعات في الإسلام .

الثالث : حال الأسى والخيبة التي لحقت قريش .

لقد كتب أربعون من وجهاء قريش في خيف بني كنانة (واسمه اليوم المعابدة) وثيقة مقاطعة بني هاشم وتعاهدوا عليها ، وفيها : أن لا ينكحوه إلى بني هاشم وبني المطلب (وَلَا يَنْكَحُوهُمْ وَلَا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّاعُوا مِنْهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا لَذَلِكَ كَتَبُوهُ فِي صَحِيفَةٍ ثُمَّ تَعَاهَدُوا وَتَوَاثَقُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ عَلَقُوا الصَّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ تَوْكِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ) ^(١).

الرابع : تناقل العرب للحصار ، فقد كانوا يفدون الى مكة ويطلعون على الحال ، إذ يخبرهم بنو هاشم والمسلمون فيها بقبائح ما فعلته قريش ، ومن الفطرة الإنسانية استهجان الظلم الخاص والعام ، وهذا الحصار من الظلم العام الذي ليس له أي سبب عقلائي .

الخامس : لقد استمر الحصار ثلاث سنوات ، ويحتمل أثر الحصار بلحاظ دخول الناس في الإسلام وجوهاً :

الأول : إنحسار وقلة عدد الذين دخلوا الإسلام مدة الحصار .

الثاني : لا موضوعية أو أثر لحصار قريش بخصوص دخول الناس الإسلام لأنه موجه إلى بني هاشم وحملهم على تسليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وإن قلت إذا كانت غاية قريش طلب تسليم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلماذا إنحاز بنو هاشم إلى الشعب وصاروا يحرسونه في النهار والليل الجواب كانت غاية قريش قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما طلب تسليم بني هاشم له إلا لمنع مؤاخذتهم على قتله ، وللقول بأن أهله

وعشيرته هم الذين قاموا بتسليمه سواء طالبوا بالدية أم لم يطالبوا بها ، وإن أبى بنو هاشم تسليمه فإن قريشاً تسعى لقتله غيلة بوسائل أخرى لذا عزموا على قتله في فراشه في ليلة المبيت .

الثالث: صيرورة حصار قريش لبني هاشم سبباً لدخول أعداد من الناس في الإسلام لما تجلى فيه من المعجزات للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمختار هو الثالث أعلاه ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١) وعندما تم فتح مكة في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، وكان مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ظن المشركون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يؤاخذهم حتى على حصارهم لبني هاشم وتجويع الأطفال والنساء لمدة ثلاث سنين .

فوقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم (قائماً على باب الكعبة وقال: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مأثرة أو دم أو مال في الجاهلية يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب، ثم تلا : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى^(٢) الآية.

يا أهل مكة، ماذا ترون أني فاعل بكم.
قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.
قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة الحجرات ١٣.

فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء.

ثم اجتمع الناس للبيعة؛ فجلس لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء^(١)، والمختار أنه ليس من رق أو عتق في المقام.

وصحيح أن الطلقاء جمع طليق وهو الأسير الذي أعتق، ولكن المعنى أعم، والمراد من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أنتم الطَّلَقَاء) أي المغفون عنهم والذين أدخلوا الإسلام كرهاً.

(والطلاق: الذين أدخلوا في الإسلام كرها، حكاه ثعلب)^(٢).

(وأطلق الناقة من عقالها، وطلقها فطلقت.

وناقة طلق: لا عقال عليها. والجمع: أطلاق.

وبعير طلق، وطلق: بغير قيد.

وحبسوه في السجن طلقاً: أي بغير قيد ولا كبل.

وأطلقه فهو مطلق. وطيّق: سرحه. انشد سيبويه:

طليق الله لم يمن عليه ... أبو داود وابن أبي كبير

والجمع طلقاء)^(٣).

وحينما جاء سهم ذي القربى من الخمس لم يضعه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في بني هاشم وحدهم لأنهم ذوو قرباء إنما وضعه فيهم وفي بني المطلب.

(١) تفسير البغوي ٥٧٣/٨.

(٢) تفسير البغوي ٥٧٣/٨.

(٣) تفسير البغوي ٥٧٣/٨.

فاحتج بعض رجال قريش ومنهم (بني نوفل وبني عبد شمس فانطلق جبير بن مطعم وعثمان بن عفان إليه فقالا : يا رسول الله ، لا ننكر فضل بني هاشم لموضعهم منك فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركنا وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنا وبنو المطلب لا نفرق في جاهلية ولا إسلام إنما نحن وهم شئ واحد وشبك بين أصابعه^(١).

لييان شكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبني المطلب في صبرهم في شعب أبي طالب ، وكان هذا الصبر وسيلة لحفظ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والدفاع عنه وبيان صلة قرباهم منه وأنهم من مصاديق الأقربين في قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢)، والإخبار عن قانون وهو أن تلقي الإنذار بالقبول سبب للثواب، وهل هو من ومصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٣).

الجواب نعم ، لذا تفضل الله عز وجل بالشكر والثناء لأل محمد بتعيين الخمس لهم قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤).

(١) المحكم والمحيط الأعظم ١٦ / ٣.

(٢) سورة الشعراء ٢١٤.

(٣) سورة المدثر ٣١.

(٤) سورة الأنفال ٤١.

وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَخْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾.

وقد يأتي التقييد بالسنة النبوية كما في مقدار السرقة التي تقطع اليد بسببه وهو ربع دينار ذهب فما فوقه ، وموضع القطع .

وفي مسألة نزول القرآن في الآية أعلاه وجوه :

الأول : نزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل نجوماً على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وبه قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(١).

الثاني : المراد ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر .

الثالث : المعنى الجامع للوجهين أعلاه .

ويحتمل الهدى الوارد في الآية أعلاه وجوهاً :

الأول : المراد القرآن .

الثاني : نزول القرآن .

الثالث : المراد شهر رمضان .

الرابع : صوم شهر رمضان .

والمقصود الآية هو الأول ، وتكون الوجوه الأخرى في طوله لما في نزول القرآن من أحكام.

وقد أكرم الله عز وجل شهر رمضان وذكر اسمه في القرآن ، وهو الشهر التاسع من الشهور القمرية العربية ، ليكون في ذكره وكونه وعاءً زمانياً لفريضة الصيام حفظاً لبقية شهور السنة الأحد عشر بلحاظ أن كل شهر هو المدة المحصورة بين هلالين ، ومع أن الأشهر الحرم أربعة أشهر

(١) سورة النساء ٩٢.

(٢) سورة القدر ١.

وهي رجب ، وذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، فلا يقع شهر رمضان قبل أو بعد أي واحد منها ، فهو بذاته دعوة للأمن ونبذ الفرقة وترك الشحناء .

وهذه هي الجمعة الأخيرة من شهر شعبان إذ يستقبل أهل الأرض ضيفاً عزيزاً يبقى تسعة وعشرين أو ثلاثين يوماً ، ويأتي معه بالبركة والخير والرزق الكريم ، والعفو والرحمة ليغادر عند إطلالة هلال شوال ، ومعه الذنوب ، وقد محيت وغفرت بفضل الله وبركة هذا الشهر .

وكررت الرخصة للمريض والمسافر بالإفطار في آيتين متتاليتين إذ قالت :

الآية الأولى : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾^(١).

الآية الثانية : ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾^(٢) ،
وتحتمل النسبة بينهما من جهة الموضوع وجوهاً :
الأول : التساوي .

الثاني : العموم والخصوص من وجه ، وأن هناك مادة للإلتقاء وأخرى للإفتراق بينهما .

الثالث : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وهو على شعبتين :

الأولى : الآية الأولى أعم من الثانية .

الثانية : الآية الثانية أعم من الأولى .

الرابع : التباين الموضوعي ، كما لو كانت الآية الأولى حكماً خاصاً بالمسلمين ، والآية التالية لها حكماً عاماً للأمم السابقة .

والمختار هو الشعبة الثانية من الوجه الثالث أعلاه ، إذ خصصت

الأولى الخطاب وتوجهت إلى المسلمين والمسلمات بقوله تعالى ﴿ فَمَنْ ﴾

(١) سورة البقرة ١٨٤ .

(٢) سورة البقرة ١٨٥ .

كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ^(١) لبيان إنعدام الوسطة في التكليف ، فلا يحتاج المريض أو المسافر الإذن والرخصة من الفقيه ونحوه ، إنما يعمل بتكليفه ، وهو يعلم بحاله ، قال الله ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ^(٢)﴾ .

وأما الآية التالية لها فهي عامة تشمل المسلمين كما شملت الأمم السابقة ، لتكون متصلة بالحكم العام للصيام الوارد قبل آيتين بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(٣)﴾ .

فقوله تعالى ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ^(٤)﴾ بيان حكم متصل للمسلمين من أيام أبينا آدم وإلى يوم القيامة ، وجاء بصيغة كان التي تفيد الماضي مع أهليتها للإخبار عن استدانة الفعل إذ فرض الله عز وجل الصوم على آدم وذريته لما في الإمساك عن الأكل والشراب من قهر للنفس الشهوية ، وكسر لسورة الغضب والفضول في عمل الجوارح.

ويمنع الصيام الإنسان قهراً عن الإسترسال بالشهوات وإن كانت حلالاً.

والعزم على الصوم بذاته فضيلة ونيته عبادة وقربة إلى الله عز وجل ، وفيه تنمية للملكة الثبات على المكاره ، واستشعار لمدة ثلاثين يوماً بالحاجة إلى رحمة الله والاستجابة لأوامره حتى مع تحمل الجوع والعطش.

(١) سورة البقرة ١٨٤.

(٢) سورة القيامة ١٤.

(٣) سورة البقرة ١٨٣.

(٤) سورة البقرة ١٨٥.

ومع قلة عدد آيات الصيام إلا أنها تتصف ببيان أحكامه وأوان الإمساك ثم الإفطار ، والرخصة فيه .

وتضمنت السنة النبوية بيان أحكام الصيام وثوابه ، ومن خصائص هذه النصوص أنها تبعث الشوق في النفوس للصيام ، وترقى بالإنسان إلى مرتبة الزهد لأن الصيام صبر ويتقوم بالصبر .

وهل تدل آية كتابة وفرض الصوم أعلاه على المسلمين على عدم تكليف الكفار بالفروع ، الجواب لا ، إذ أخبرت الآية عن فرض الصوم على الأمم السابقة وإن كان بكيفية غير التي عليها صوم شهر رمضان . والمختار أن النسبة بين الصبر والزهد هي العموم والخصوص المطلق ، فالصبر أعم .

وعن معاذ بن جبل قال (كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك ، فأصاب الناس ريح فتقطعوا ، فضربت ببصري فإذا أنا أقرب الناس من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقلت : لأغتنم خلوته اليوم ، فدنوت منه فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يقربني أو قال يدخلني الجنة ، ويباعدني من النار .

قال : لقد سألت عن عظيم ، وأنه ليسير على من يسره الله عليه . تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان .

وإن شئت أنبأتك بأبواب الخير .

قلت : أجل يا رسول الله .

قال : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام العبد في جوف الليل يبتغي به وجه الله ، ثم قرأ الآية { تتجافى جنوبهم عن المضاجع }^(١) .

ثم قال : إن شئت أنبأتك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . قلت
أجل يا رسول الله .

قال : أما رأس الأمر فالإسلام ، وأما عموده فالصلاة ، وأما ذروة
سنامه فالجهاد .

وإن شئت أنبأتك بأملك الناس من ذلك كله .

قلت : ما هو يا رسول الله ، فأشار بإصبعه إلى فيه^(١) .

فقلت : وإنا لنؤاخذ بكل ما نتكلم به .

فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على مناخرهم في

جهنم إلا حصائد ألسنتهم ، وهل تتكلم إلا ما عليك أو لك^(٢) .

ومن منافع الصوم وجوه :

الأولى : الصحة والعافية .

الثانية : المنع من زيادة حدة المرض .

الثالثة : إنقاذ الفكر والبصيرة .

الرابعة : صفاء النفس .

الخامسة : تنمية معاني الرحمة والعفو عند الإنسان .

السادسة : الرقة والعطف على الفقير .

السابعة : شكر الله عز وجل على نعمة الطيبات وإباحتها ، والتمكن

منها في أي وقت ، قال تعالى ﴿وَكُلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي

أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾^(٣) .

الثامنة : السكينة والرضا عن الذات لأداء الفريضة .

التاسعة : التنزه عن التعدي ، والصيام واقية من الإرهاب .

(١) في المتن (إلى فيك) .

(٢) الدر المنثور ٤٩٩/٣ .

(٣) سورة المائدة ٨٨ .

العاشرة : تعاهد سنن التقوى.

ومن التقوى التي تذكرها الآية أعلاه صيام شهر رمضان وهو الذي ورد في آية الصيام بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١) لبيان أن معاني قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) تعاهد المسلمين والمسلمات لفريضة الصيام في ساعات النهار من أيام شهر رمضان ، وفيه أمان لهم وللناس .

(عن عائشة : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : قراءة القرآن في الصلاة أفضل من قراءة القرآن في غير الصلاة ، وقراءة القرآن في غير الصلاة أفضل من التسبيح والتكبير ، والتسبيح أفضل من الصدقة ، والصدقة أفضل من الصوم ، والصوم جنة من النار .

وأخرج ابن ماجة عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية ، ترزقوا وتنصروا وتجبروا.

وأخرج أبو يعلى عن جابر : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لكعب بن عجرة : يا كعب بن عجرة الصلاة قربان ، والصيام جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار .

يا كعب بن عجرة الناس غاديان فبائع نفسه فموبق رقبته ، ومبتاع نفسه في عتق رقبته)^(٣).

(١) سورة البقرة ١٨٣.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) الدر المنثور ٣١٧/٢.

وعن أنس (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى امرأة تبكي على صبي لها فقال لها : اتقي الله واصبري .
فقالت : وما تبالي أنت مصيبي ، فلما ذهب قيل لها : إنه رسول الله ، فأخذها مثل الموت ، فأنت بابه فلم تجد عليه بوابين .
فقالت : لم أعرفك يا رسول الله ، فقال : إنما الصبر عند أول صدمة^(١) .

ويبين الحديث أعلاه سهولة وصول أي إنسان إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لتكون سلامته من الإغتيال كل يوم معجزة حسية له ، وليكون عدد هذه المعجزات في هذا الباب وحده بعدد أيام بعثته سواء أيامه قبل الهجرة أو بعدها ، فتفضل الله عز وجل وميز وأخبر عن صفات المنافقين وفيها زجر لهم عن التعدي والتماذي في الظلم .
لقد أخبرت الآية أعلاه عن الشبه واتحاد الحكم وفرض الصيام بين المسلمين والأمم التي سبقتهم ، ولو دار الأمر بين فرض الصيام أول مرة على نوح عندما خرج من السفينة كما قيل أم أنه يشمل الأمم التي سبقتهم .
الجواب هو الثاني لأصالة الإطلاق في الآية الكريمة ولوحدة الموضوع في تنقيح المناط بخصوص علة خلق الناس وهي العبادة ، ولورود الخبر بصوم آدم عليه السلام ، قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(٢) .

وليس من حصر لمنافع الصيام ، وجاء الطب الحديث ليعين شطراً من هذه المنافع ، ولا يختص الأمر بالصحة والعافية إنما يشمل تهذيب النفس ، وصلاح المجتمع .

(١) الدر المنثور ١/٣١٥ .

(٢) سورة الذاريات ٥٦ .

قانون توثيق التنزيل للوقائع

من الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم نزول القرآن بذكر الوقائع والأحداث التي جرت في فترة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفيه مسائل :

الأولى : إفادة الوضوح والتأكيد والبيان في هذه الوقائع وعدم اللبس أو الخلط فيها .

الثاني : بيان معجزات متعددة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : دعوة العلماء في كل زمان لإستقراء المعجزات النبوية من تلك الوقائع ، في ضوء القرآن والسنة .

الرابع : إقامة الحجة على الذين كفروا لأنهم أصرّوا على التعدي والظلم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(١).

الخامس : صيرورة الوقائع والأحداث أيام النبوة نوع طريق لدخول الناس الإسلام .

السادس : قانون تأكيد الوقائع والأحداث لصدق نزول القرآن من عند الله سبحانه قال تعالى ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٢).

السابع : قانون اتعاظ المسلمين من الآيات التي تبين الوقائع والأحداث وانتفاعهم منها .

(١) سورة النساء ٦٢.

(٢) سورة الحج ٥٤.

الثامن : ذكر القرآن للوقائع والأحداث شاهد على فضل الله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين ، قال تعالى ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١) وقال تعالى ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

التاسع : بيان حب الله عز وجل للمسلمين ورأفته بالناس جميعاً ، وصرف البلاء الخاص والعام عن الناس ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يُنَحِّهِمُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣).

العاشر : إستحضار المسلمين في كل جيل وقائع أيام النبوة وتوجههم إلى الله عز وجل بالشكر على نعمة التوفيق والرشاد والظفر فيها .

الحادي عشر : تأكيد قانون صبر النبي معجزة ، لأنه قابل الأذى الذي لاقاه هو وأهل بيته وأصحابه بصبر وحلم هو شعبة من الوحي ، ولآيات القرآن موضوعية في هذا الصبر .

الثاني عشر : بيان اتحاد السنخية فيما لاقاه الأنبياء السابقون من الأذى ، وما لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولزوم صبر المسلمين وعدم ديبب الشك إلى نفوسهم بسبب إصرار كبار كفار قريش على المجحود ، قال تعالى ﴿وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَاتِلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرًا مِمَّا هُنَا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٤).

(١) سورة النساء ١١٣.

(٢) سورة النور ١٤.

(٣) سورة الرعد ٣٩.

(٤) سورة آل عمران ١٤٦.

ومن صفات كتابة التاريخ أثر الميل والهوى والمبالغة في الوصف والتدوين ، والتفت الملوك والسلاطين إلى هذه المسألة فصاروا يقدقون على الذي يكتب الملاحم ، ويؤلف الكتب التي تمجدهم وأفعالهم وتعمل على تثبيت حكمهم.

ومن رحمة الله عز وجل بالناس وتفضله بالمنع من هيمنة واستحواذ السلاطين والطواغيت على كتابة التاريخ نزول الكتب السماوية التي توثق الوقائع التي حدثت في أيام النبوة توثيقاً سماوياً ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(١).

فان قلت ذكر القرآن الوقائع التي تخص أيام النبوة ، والجواب ما بينه القرآن أعم من الوقائع التي حدثت في أيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ بدأت بذكر خلق السموات والأرض ، ثم الإخبار عن خلق آدم ونفخ الروح فيه ، وقال الله عز وجل للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) وفيه دعوة للناس للجوء إلى القرآن واقتباس أصول ومناهج التاريخ منه ، وذكر قصص الأنبياء والأمم السالفة .

لقد سخر الله عز وجل للناس النعم الكونية ليذكروه في كل زمان ، وهذا التسخير الذي تتجلى آياته كل يوم زاجر عن إدعاء بعض الطواغيت الربوبية ، وإن ادعاها بعضهم مثل نمرود وفرعون فانه لا يلاقي التأييد من عامة الناس ويبتليه الله بأن يرسل له رسولا ليس عنده سلاح ولا جيش فيقهر الطاغوت في سلطانه كما يوثق القرآن قصة إبراهيم مع نمرود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي

(١) سورة فصلت ٤٢.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾.

وكما في إحتجاج موسى عليه السلام على فرعون ، وهي مدرسة مستقلة في القرآن ، ويمكن أن تؤلف مجلدات متعددة باسم (قصة موسى وفرعون في القرآن) ، والمسائل المقتبسة منها ، وكيف أن موسى لم يقاتل فرعون إنما اختار بالوحي المغادرة والهجرة هو وبنو اسرائيل.

قانون آيات الوقائع

لقد جعل الله القرآن كتاب رشاد ، وسبيل صلاح ، قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْهُو عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٢).

وتوثق آيات القرآن الوقائع أيام النبوة بما يتيح للعلماء تناولها من وجوه:

الأول : سبب الحدث مثل معركة بدر وإدعاء المشركين تعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لقافلة أبي سفيان.

لقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يخرجون في الكتائب والسرايا حول المدينة ، ويعودون من غير قتال ، ولم يتعرضوا الى أهل قرية أو مال لأحد من الكفار مما جعل النفوس تميل اليهم ، وصار الناس يتدبرون في سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وتعاهدهم للصلاة خمس مرات في اليوم .

(١) سورة البقرة ٢٥٨.

(٢) سورة فصلت ٤٤.

وينظر الركبان وأهل القرى الذين يمر بهم المسلمون إلى التفات وانصات الصحابة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمره لهم بالصلاح وسنن التقوى مما أفاض رؤساء الكفر ، وأدركوا أن أهل القرى في طريقهم إلى الإيمان ، فأثاروا الفتنة اذ اتفق خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ذات الأيام الذي مرت بها قافلة أبي سفيان قادمة من الشام (بلغ أهل مكة خبر خروجهم ، فنادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة النجاء النجاء على كل صعب وذلول ، غيركم أموالكم ، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً)^(١).

الثاني : مقدمات الحدث ، مثل معركة أحد وهو إعداد قريش للمعركة لسنة كاملة مع التهديد طيلة هذه المدة بقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأسر أصحابه .

وكانت قريش تبث برسائل التهديد الخطية والشفوية إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فيردون عليهم بدعوتهم إلى الإسلام ، وتلمس النعم والطمأنينة التي تصاحب الإيمان ، وفي التنزيل ﴿الْأَبْذِكِرَ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢).

وفي الآية أعلاه تحد للذين كفروا بالتدبر في حالة نفوسهم وأنهم محرومون من الطمأنينة لتلبسهم بالشرك ، وإصرارهم على التعدي.

الثالث : علوم الغيب وموضوعيتها في الأحداث والوقائع .

الرابع : سرد تفصيل الحدث .

ومن خصائص آيات القرآن أنها تبث النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة على ذكر تفاصيل الحادثة وأخبارها .

(١) الكشف ٣٢٧/٢.

(٢) سورة الرعد ٢٨.

وجاء زمن التابعين ليتوجهوا إلى الصحابة الذين بقوا في الدنيا بعد مغادرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، فيكثر من السؤال عن تلك الوقائع وأسباب نزول الآيات ، وتفاصيل الأحداث التي تدل بذاتها على معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ومن الآيات في المقام انتقال عدد من صحابة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأمصار وإقامتهم فيها ، فقد نقل الإمام علي عليه السلام دار الخلافة إلى الكوفة وانتقل معه عدد من المهاجرين والأنصار ، وسكن عدد من الصحابة كأنس بن مالك البصرة وهو من صاحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقام بخدمته ، وشاء الله أن يعمر ببركة دعاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم له ، ومنهم من سكن الشام خاصة بعد حكم بني أمية .

ومنهم من أقام في مكة ومنهم من سكن الطائف ، ومنهم من انتقل إلى مصر ، ومنهم من تنقل بين عدد من هذه الأمصار ، أو قصدوا التابعون في محل سكنه أو التقوا معه في الحج والعمرة ، وزيارة المسجد النبوي . ليسهل على التابعين السماع من الصحابة ، وفيه تفقه في الدين .

الخامس : بيان نتائج ومنافع الأحداث التي وقعت أيام النبوة ، ويبين القرآن تلك المنافع على نحو التعيين أحياناً والإجمال والإشارة أحياناً أخرى ، كما في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) ، لحث المسلمين على التقوى والخشية من الله عز وجل وندبهم لتعاهد الفرائض وعمل الصالحات.

وهل هذه الندب خاص بالصحابة أم أنه أعم ، الجواب هو الثاني . فهو يشمل أجيال المسلمين والمسلمات إلى يوم القيامة .

ومن أسرار الآيات التي تتناول الوقائع أنها لا تقف عندها ، إنما تشع بضياء الهداية والدلالة على الصلاح ونبذ العنف والإرهاب إلى جانب الإعجاز البلاغي فيها الذي يجذب الأذان لسماعها ، فمع أن بعض آيات الوقائع قد تتحدث عن القتال ولكنها تبعث الشوق في النفوس للإنصات لها لوجوه :

الأول : آيات القتال حرب على القتال .

الثاني : بيان قانون وهو دلالة آيات القتال على حال الدفاع التي كان عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

الثالث : صيغ البلاغة القدسية التي عليها آيات القرآن ، إذ أنها أسمى وأعلى من كلام البشر ، فإن قلت كلام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم شعبة من الوحي فهل يرقى الى بلاغة القرآن ، الجواب لا .

الرابع : من منافع آيات الوقائع أنها استئصال للقتال ومقدماته ، ومنه التحذير من التحريض على القتال والمكر بقوله تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ﴾^(١).

وتبين آيات الوقائع والأحداث قانوناً وهو أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم (لم يغز أحداً) مع أن هذه الآيات لا تختص بالقتال إنما تشمل الأحداث ومنها مثلاً أول نزول القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحاله عندما رجع إلى البيت وهو يقول (زملوني زملوني) (عن جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي

بين السماء والأرض ، فجثيت منه رعباً ، فرجعت فقلت : زملوني ، زملوني ، فذرّوني^(١).

وهل تدخل الإشاعة في الوقائع والأحداث مثل حادثة الإفك ، الجواب نعم ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

ترى ما هي النسبة بين آيات القرآن والوقائع التي وقعت أيام النبوة ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق ، فمضامين آيات القرآن أعم ، نعم هناك آيات نزلت بخصوص الوقائع والأحداث منها ما يتعلق بمعارك الإسلام مثل معركة بدر ومقدماتها .

وقد ورد عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة الأنفال في بدر (وكان نزولها بعد المعركة إذ بينت تفاصيل المعركة ، وصدق جهاد المسلمين ، وصبرهم في ساحة المعركة ، وصفة قتالهم وهي الدفاع عن النبوة والتنزيل ، وتنزههم عن الأغراض الدنيوية وحب جمع الغنائم ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{(٣)(٤)} .

وتبين آيات معركة بدر كيفية استعداد المسلمين للمعركة بالتوكل على الله والتطلع لنزول الملائكة .

(١) الكشف والبيان للثعلبي ١٥٦/١٤.

(٢) سورة النور ١١.

(٣) سورة آل عمران ١٦١.

(٤) أنظر الجزء السابع والأربعون بعد المائة الذي جاء خاصاً بتفسير هذه الآية الكريمة.

فمن إعجاز نظم آيات القرآن مجئ آيات بشارة المدد الملكوتي في معركة أحد بعد آية النصر في معركة بدر ، إذ قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَتَمَّ أَذِلَّةً فَأَتَوُا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) وفيه شاهد بأن المسلمين لم يقصدوا الغزو ولا يقصدونه .

فان قلت قد علمنا أن المسلمين لم يقصدوا الغزو والقتال في معركة بدر ، فكيف نعلم أنهم لا يقصدونه الجواب لما جاء في آية (بدر) من الأمر لعموم المسلمين بتقوى الله ، والخشية منه سبحانه ، ومن مصاديق التقوى استحضر البرهان والموعظة ، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢) ، إنما كان المشركون هم الذين يصرون على غزو المدينة .

وهل في نزول هذه الآيات إنذار للذين كفروا ، الجواب نعم . وكل آية من القرآن هي إنذار للذين كفروا سواء في منطوقها أو مفهومها ، كما تبث الحسرة في نفوسهم بسبب تخلفهم عن الإيمان ، فكيف وهم لم يكتفوا بهذا التخلف إنما جهزوا الجيوش العظيمة لقتال النبي الذي جاءهم بالدعوة إلى التوحيد ، وكان ينادي في المسجد الحرام ، وفي مواطن الحج (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) .

فنزلت آيات القرآن لتبين لأجيال المسلمين وأهل الكتاب والناس جميعاً تمادي المشركين في الغي ولجؤهم إلى التعدي والظلم بأقصى وجوهه وهو الهجوم المتكرر على المستضعفين ، إذ أن قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة النحل ١٢٥.

وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴿١﴾ حجة على الذين كفروا إلى يوم القيامة بأنهم أصروا على قتال النبي وأصحابه مع قلتهم وضعفهم ، وهو أمر ظاهر للعيان إلى جانب انتفاء أي سبب لهذا القتال ، وكذا بالنسبة لأغلب القتال في الأرض ، وحتى لو كان هناك سبب للقتال فيدرك المتحاربان أثناء وبعد القتال أن الخسارة في القتال أكبر من الغايات التي نشب من أجلها ، ومن التنازل لدفع القتال ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (٢).

ومن إعجاز القرآن في المقام إخباره عن حال الندم التي صار عليها قاييل بن آدم عندما قتل أخاه هابيل لقوله تعالى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (٣).

ولم يرد لفظ ﴿النَّادِمِينَ﴾ بالتعريف بالألف واللام في القرآن إلا في الآية أعلاه ، مع وروده أربع مرات بلفظ نادمين في ذم الكفار من الأمم السابقة ، وكفار قريش والمنافقين ، قال تعالى ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (٤).

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة النساء ١٢٨.

(٣) سورة المائدة ٣١.

(٤) سورة المائدة ٥٢.

آيات الأحكام ودلالاتها على عدم الغزو

من المعروف في علم التفسير مسائل (آيات الأحكام) وهي الآيات التي تتضمن بيان الأحكام الشرعية ودلائلها في مسائل الحلال والحرام ، ومعاني علم الفقه وتشمل آيات الأحكام بالمعنى الأعم وجوهاً :

الأول : الأحكام العقائدية .

الثاني : الأحكام التي تتعلق بالسلوك .

الثالث : أحكام السنن والأخلاق .

الرابع : أحكام وشؤون الأسرة ، وهل منه قوله تعالى ﴿فَلَا تَقْلُ لَهَا﴾ أن^(١) الجواب نعم.

وتدخل أحكام النكاح والطلاق والإرث في آيات الأحكام فاذا ورد هذا الإصطلاح مطلقاً ، فالمراد الأحكام الفقهية ويتجلى في التحقيق بآيات الأحكام وضبطها وبيانها إعجاز ذاتي وغيري للقرآن ، بما فيه مسألة عدد آيات الأحكام التي اختلف فيه على وجوه:

الأول : خمسمائة آية ، وهو المشهور .

الثاني : مائتا آية .

الثالث : مائة وخمسون آية .

الرابع : عدم حصر آيات الأحكام بعدد مخصوص من آيات القرآن.

والمختار على وجوه :

الأول : كل آية من القرآن هي من آيات الأحكام سواء في منطوقها أو مفهومها إلا ما قل .

الثاني : كل آية من القرآن تتضمن حكماً أو أكثر مثل قوله تعالى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ أَوْ بِهْوَاءٍ أَوْ غَيْرِ الْمَشْهُورِ فَلَكُمْ أَنْ تَقْرَأُوا آيَاتِ الْكِتَابِ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقْرَأُونَ﴾

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وفيها عدة أحكام وهي :

الأول : الصيام واجب أيام معينة ومحصورة في كل سنة ، وقد جاءت الآية بتعيينه بقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾^(٢) ليكون من إكرام الله عز وجل للصائمين وشهر الصيام أنه الشهر الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن.

الثاني : تأكيد وجوب الصوم الذي ذكرته الآية السابقة وتقدير الآية : صوموا أياماً معدودات .

الثالث : الرخصة للمريض في شهر رمضان بالافطار .

الرابع : الرخصة للمسافر أيام شهر رمضان أو بعضها بالإفطار مدة السفر.

الخامس : وجوب قضاء المريض إذا تعافى في ذات الشهر الذي أفطر فيه ، أما إذا استمر به المرض من أول رمضان وإلى نهاية شعبان من ذات السنة فليس عليه قضاء إنما تجب عليه الفدية وهي ثلاثة أرباع كيلو غرام من الطعام عن كل يوم إفطار ، وقيل نصف صاع أي مدين : كيلو ونصف ، والمختار أنه مد ، ويستحب مدان ، وقد ذكرته في رسالتي العملية^(٣) وقضاء ما فات من أيام الصيام لقوله تعالى ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾^(٤).

السادس : الرخصة للشيخ الكبير والعجوز بالإفطار ، مع قيام كل منهما باطعام مسكين في كل يوم ، لبيان أن الصيام حق الله عز وجل والرخصة في افطاره لا تسقط مسمى الواجب بل ينتقل التكليف إلى إطعام

(١) سورة البقرة ١٨٤.

(٢) سورة البقرة ١٨٥.

(٣) أنظر الحجة ٢.

(٤) سورة البقرة ١٨٥.

المسكين ، وفيه شاهد على حب الله للمساكين خاصة وأن الصيام عون للفقراء ، ومناسبة لمعرفة حالهم وعوزهم .

(عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية { وعلى الذين يطيقونه فدية }^(١) فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ، ثم نزلت هذه الآية { فمن شهد منكم الشهر فليصمه }^(٢) فنسخت الأولى إلا الفاني إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر)^(٣).

(وأخرج ابن حبان عن سلمة بن الأكوع قال : كنا في رمضان في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من شاء صام ومن شاء أفطر وافتدى ، حتى نزلت هذه الآية { فمن شهد منكم الشهر فليصمه }^(٤) ^(٥)).

وكان أنس بن مالك حين هرم وبلغ عمره نحو مائة سنة يفطر رمضان ويطعم لكل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً أي أنه لم يفطر في السبعين أو الثمانين من عمره مع أنه كان يسكن البصرة ، وشرط من أيامها شديد الحر. ومات أنس بن مالك سنَى إحدى وتسعين للهجرة في قصره بالطف على فرسخين من البصرة ، وأختلف في عمره والأرجح أنه تسع وتسعون سنة .

(قال أبو عمر يقال إنه آخر من مات بالبصرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أعلم أحداً مات بعده ممن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أبا الطفيل عامر بن وائلة ويقال إن أنس بن مالك قدم

(١) سورة البقرة ١٨٤.

(٢) سورة البقرة ١٨٥.

(٣) الدر المنثور ١/٣٥٧.

(٤) سورة البقرة ١٨٥.

(٥) الدر المنثور ١/٣٥٧.

من صلبه من ولده وولد ولده نحو من مائة قبل موته وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له فقال: " اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك له. قال أنس فإني لمن أكثر الأنصار مالاً وولداً ويقال إنه ولد لأنس بن مالك ثمانون ولداً منهم ثمانية وسبعون ذكراً والبتتان الواحدة تسمى حفصة والثانية تكنى أم عمرو ^(١) .

السابع : بيان قانون وهو أن الصوم أفضل من الإفطار والفدية ، ففي قوله تعالى ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ^(٢) مسائل :

الأولى : الصوم للذي يطيقه ويتحمله بصعوبة خير له وأعظم أجراً وثواباً من الإفطار ودفع الفدية .

الثانية : الصائم شهر رمضان خير من العاجز عنه .

الثالثة : جاءت الآية بصيغة الجمع ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ لبيان أن القادرين على الصوم أفضل للأمة من إشاعة الإفطار بالسفر والإطاقة ونحوه .
الرابعة : الصوم خير من الإفطار في رمضان بسبب السفر والقضاء فيما بعد.

ولو أحصينا الأحكام الواردة في القرآن ففيه وجوه :

الأول : عدد الأحكام في القرآن أكثر من عدد آيات القرآن التي مجموعها (٦٢٣٦) آية .

الثاني : عدد آيات القرآن أكثر من عدد الأحكام .

الثالث : التساوي بين الأحكام الواردة في القرآن وبين عدد آيات القرآن .

(١) الإستيعاب ٣٥/١ .

(٢) سورة البقرة ١٨٤ .

الرابع : آيات الأحكام هي الأكثر بلحاظ مستلزمات المسائل والإبتلاء في هذا الزمان والأزمنة اللاحقة مما يلزم معه استنباط الأحكام من آية مخصوصة أو من الجمع بين آيتين أو أكثر ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

فلا ينحصر الإحصاء في المقام بالآيات التي تتضمن التصريح والذي تتضمنه ذات آية واحدة إذ تشمل آيات الأحكام التي تستنبط من الجمع بين آيتين أو أكثر .

فمثلاً ورد عن (نعجة بن بدر الجهني إن امرأة منهم دخلت على زوجها وهو رجل منهم أيضاً فولدت في ستة أشهر فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان وأمر بها ترجم ،

فدخل عليه علي بن أبي طالب فقال : إن الله تعالى يقول في كتابه : {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} وقال : (وفصاله في عامين) قال : فوالله ما عبد عثمان ح أن بعث إليها ترد. قال عبد الله بن وهب : ما استنكف ولا أنف)^(٢).

وكما في استنباط حرمة شرب الخمر بأن نعتته آية بأنه إثم وآية أخرى حرمت الإثم ، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ - وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١١١/١٢ .

(٣) سورة الأعراف ٣٣.

وكما في استقراء حرمة الإستمناء من عمومات قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْجَاهِهِمْ حَافِظُونَ﴾ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ^(١).

بحث أصولي

يتصف الحكم الشرعي وخطاب الشارع الخاص بأفعال المكلفين بأنه على أقسام :

الأول : الطلب والأمر .

الثاني : التخيير .

الثالث : الوضع .

وهذا الحكم ينقسم الى قسمين :

الأول : الحكم التكليفي .

الثاني : الحكم الوضعي ، وقد تقدم بيانه.

وينقسم الحكم التكليفي إلى :

الأول : الواجب وهو لغة اللازم والفرض والحتم والثابت ، وفي

الإصطلاح ما أمر به الشارع وعلى وجه الإلزام ، ولا يجوز تركه ، مثل

الصلوات الخمس والزكاة ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ^(٢) ، وقال

تعالى ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ ^(٣).

وللواجب تقسيمات متعددة بلحاظ ذاته أو أوانه.

(١) سورة المؤمنون ٥-٧.

(٢) سورة النور ٥٦.

(٣) سورة النساء ١٠٣.

الثاني : المندوب وهو لغة المدعو أما اصطلاحاً فهو ما أمر الشارع به ، ولكن ليس على نحو الإلزام والوجوب مثل الحج المستحب الذي يكون في سنة أخرى غير السنة التي أدى المكلف فيها الحج الواجب .
ويسمى المندوب المستحب والسنة والنفل ، والمندوب مطلوب بذاته وفيه الأجر والثواب ، وقد يطلب لغيره ، ويكون مقدمة لواجب أو متعقباً له أو متمماً له بفضل من الله .

عن تميم الداري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته ، فإن كان أكملها كتبت له كاملة ، وإن لم يكن أكملها قال الله تعالى للملائكة : انظروا هل تجدون له من تطوع فأكملوا به ما ضيع من فريضته؟ ثم الزكاة مثل ذلك ، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك ^(١) .

الثالث : المباح وهو الذي يكون فيه المكلف بالخيار إن شاء فعله وإن شاء تركه ، أو أنه لا يتعلق بخصوصه أمر أو نهى لذاته ، ويسمى الحلال والجائز ، وإن كان هذان اللفظان يشملان ما هو أعم من المباح ، وقيل بعدم ترتب الثواب والعقاب على المباح ، وليس بتام فقد يفعل العبد المباح فيأتيه الثواب لذات الفعل أو لنية قصد القربة فيه ، أو لأنه برزخ دون الولوج في الحرام كما في إباحة وطئ الزوجة ، وفي الأكل في ليلة رمضان امثالاً لقوله تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ^(٢) ، وخلاف المباح المحذور .
وهل المباح من الأحكام التكليفية فيه وجوه :

(١) الدر المنثور ٩٨/٢ .

(٢) سورة البقرة ١٨٧ .

أولاً : انه ليس من الأحكام التكليفية لأن التكليف هو خطاب الشارع بالأمر أو النهي .

ثانياً : ذكر المباح في الأحكام التكليفية لإتمام قسمة الأفعال بلحاظ الأحكام وللتسامح .

ثالثاً : يكون المباح من الأحكام إذا أريد به قصد القرية أو الشكر لله أو اعتقد اباحته .

رابعاً : المباح من الأحكام التكليفية ، وهو بعرض واحد مع الأحكام الأربعة الأخرى .

والمختار هو الجامع بين الوجه الثالث والرابع أعلاه ، وجاء تقييد المباح بالقول (لذاته) فقد يكون المباح مستحباً وواجباً ، إذا كان مقدمة لواجب كشراء الماء للوضوء مع اليسر والقدرة على شراء الماء من غير حرج لوجوب ما لا يتم الواجب إلا به ، وإن قيل في علم الأصول أن تحصيل مقدمة الواجب ليس بواجب ، خاصة مع جواز الانتقال إلى الطهارة البديلة بالتيمم .

أو كما في السفر لطلب الرزق إذا انحصر به مورد المعيشة ودفع الرmq ، أو قد يكون السفر مكروهاً أو محرماً كما إذا كان للهو أو لفعل الفاحشة .
الرابع : المكروه وهو لغة المبنغوض .

وفي الإصطلاح ما نهى عنه الشارع على وجه الترك وينبغي تركه ، ويثاب الذي يتركه ، ولا يعاقب فاعله ، مثل الطلاق وهو أبغض الحلال إلى الله ، ومثل تأخير الغسل من الجنابة والحيض وكراهية النفخ في الشراب ، ولا ينبغي التشديد على النهي عن المكروه كما يستلزم النهي عن المحرمات .

وهناك باب خاص في الفقه اسمه مكروهات الصلاة ، وقد ورد في رسالتي العملية (الحجة / باب من مكروهات الصلاة :

وهي أمور:

الأول: الإلتفات بالوجه قليلاً ، والإلتفات بالقلب.

الثاني: العبث باللحية او غيرها من اعضاء البدن او اللباس.

الثالث: القران بين السورتين على الاقوى ، أي من غير ان يفصل

بينهما بسكتة ونحوها.

الرابع: عقص الرجل شعره وهو جمعه وجعله في وسط الرأس وشده

او ليّه وادخال اطرافه في أصوله ونحوه من الهيئات المشابهة.

الخامس: كثرة حركة اليد وعدم استقرارها ، والعبث هو فعل ما لا

فائدة به ، ومنه مسح الخصى والرمل والتراب ، وعن أبي ذر قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام أحدكم في الصلاة فلا يمسح

الخصى فإن الرحمة تواجهه^(١).

السادس: البصاق.

السابع: نقض الاصابع أي فرقعتها وتصويتها.

الثامن: التمطي.

التاسع: التثاؤب الاختياري.

العاشر: الأنين.

الحادي عشر: التأوه.

الثاني عشر: مدافعة البول والغائط ، فلا يكون المصلي

حاقناً ولا حاقباً ، والحاقن هو الذي احتبس البول ، أما

الحاقب فهو الذي احتبس الغائط ، ومنه احتباس الريح ،

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا يصل

أحدكم وهو يدافعه الأخبثان^(٢).

(١) النسائي / السنن الكبرى ١/ ١٩٢.

(٢) صحيح ابن حبان ٩/ ١٣٢.

الثالث عشر : مدافعة النوم.

الرابع عشر : الامتخاط.

الخامس عشر : التصاق القدمين في حال القيام.

السادس عشر : وضع اليد على الخاصرة.

السابع عشر : تشبيك الأصابع.

الثامن عشر : تغميض العينين ، وقيل باباحته لأنه أقرب للخشوع.

التاسع عشر : لبس الخف او الجورب الضيق الذي يضغط على القدم

والساق.

العشرون : حديث النفس، وعن الصادق عليه السلام: "ولا يشغل

نفسه بأمر الدنيا.

الحادي والعشرون : قص الظفر والأخذ من الشعر عمداً.

الثاني والعشرون : النظر الى المصحف وقراءته الا ان يكون عن

ضرورة او راجح شرعي فلا كراهة، ويلحق به النظر في الدعاء

المكتوب.

الثالث والعشرون : النظر الى الكتاب ونقش الخاتم.

الرابع والعشرون : التورك أي وضع اليد على الورك في حال

القيام.

الخامس والعشرون : الانصات في اثناء الصلاة لقائل كما لو كان

يستمع لحديث جماعة يمرون عليه.

السادس والعشرون : فعل ما ينافي الخشوع المطلوب في الصلاة .

ومنهم من قسم المكروه إلى قسمين :

الأول : المكروه كراهة تنزيهية ، أي المكروه بالدليل الظني .

الثاني : المكروه كراهة تحريرية ، ويراد منه المكروه بدليل قطعي ،

والمكروه في الإصطلاح أخص من المكروه العام لغة ، قال تعالى ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ

الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴿١﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿٢﴾.

الخامس : الحرام وهو لغة الممنوع ، وفي الإصطلاح ما نهى عنه الشارع على وجه الترك ، ويثاب الذي يتركه ، ويؤثم ويستحق العقاب الذي يأتيه ويفعله مثل : أكل الربا وعقوق الوالدين والزنا ويسمى الحرام بأسماء أخرى:

أولاً : الممنوع .

ثانياً : المعصية .

الثالث : الذنب .

الرابع : الإثم .

والأصل في لفظ التحريم والنهي (لا تفعل) (ولا يحل) ولكنه يأتي بألفاظ أخرى مثل الوعيد على الفعل وترتب الحد على الفعل ، والنعت بالفساد ، أو أن الله عز وجل لا يحب ذات الفعل أو فاعله كما في قوله تعالى ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجِبِّكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ*وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ﴿٣﴾.

وقد لا يأتي (لا يحب) أو لفظ (لا ينبغي) ويراد منه الكراهة.

(١) سورة الحجرات ٧.

(٢) سورة الاسراء ٣٨.

(٣) سورة البقرة ٢٠٤-٢٠٥.

بحث أصولي بين الشرط والركن

الحمد لله الذي جعل العبادة ملازمة للإنسان في الأزمنة المتعاقبة ، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) وتتضمن العبادة الحكم التكليفي والوضعي وهو تقسيم استقرائي .
ينقسم الحكم الشرعي إلى قسمين :

الأول : الحكم التكليفي ، وهو خطاب الله عز وجل المتعلق بأفعال المكلفين من جهة الإقتضاء والفعل والتخيير والترك فهو مطلوب لذاته ، وفي مقدور العبد واستطاعته فمثلاً فريضة الحج لا تجب مع عدم استطاعة الزاد والراحلة ونحوها من الأسباب والأحكام الوضعية وتعذر المقدمات ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٢) والصيام يجب على البالغ العاقل المختار ، ويسقط عن المريض والمسافر أداء ويجب قضاء ، قال تعالى ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

الثاني : الحكم الوضعي : وهو خطاب الله تعالى يجعل الشيء سبباً أو شرطاً لشيء أو مانعاً منه فكان الحكم الوضعي مطلوب لغيره .
وقد يكون الحكم الوضعي ليس من مقدور العبد كما في ميراث ذي القربة ، والنكاح والزوجية حكم وضعي يترتب عليه حكم تكليفي على

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) سورة آل عمران ٩٧ .

(٣) سورة البقرة ١٨٤ .

الزوج كوجوب النفقة وعلى الزوجة كالطاعة فيما أمر الله به ، وقد ينتزع الحكم الوضعي من الحكم التكليفي وكذا العكس .

يتضمن الحكم الوضعي كلاً من الشرط والركن ، والصحيح والباطل والسبب والعلة والمانع ، والرخصة والعزيمة .

والشرط لغة هو العلامة ، والجمع شروط وشرائط وأشرط ، قال تعالى ﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾^(١).

والشرط في الإصطلاح ما يلزم من وجوده الوجود ، ومن عدمه العدم ، فاذا لم يحل أوان الزوال لا تصح صلاة الظهر لأن وقتها لم يدخل بعد. والفرق بين الركن والشرط، أن الركن جزء من الفعل وركن الشئ جانبه المتين ، والناحية القوية ، وما يتقوى به الملك من الجند وغيرهم ، ومنه قوله تعالى في فرعون ﴿فَتَوَكَّلْ بِرُكْبِهِ﴾^(٢) ، والركن العشيرة ، والأمر العظيم ، وفي التنزيل ﴿لَوْ أَن لِّي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ أَوْيَ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾^(٣).

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي الى ركن شديد ، الى الله والملائكة معه .

وأركان كل شئ جوانبه التي يرتكز عليها ، والركن العمود. والركن هو الفرد والجزء الداخِل في حقيقة الشئ ، وتحقق معه ماهيته ، وما يتم به الشئ ، والماهية هي الحقيقة الكلية . وكنه والشئ .

ومن الركن في الإصطلاح الركوع ، فلا تصح الصلاة بدونه سواء كان تركه عمداً أو سهواً أو جهلاً ، وكذا بالنسبة للسجدين ، وهل سورة

(١) سورة محمد ١٨.

(٢) سورة الذاريات ٣٩.

(٣) سورة هود ٨٠.

الفاتحة من أركان الصلاة ، المختار أنها ليست ركناً ، مع التسليم بوجوب قراءتها في كل ركعة .

وقال بعض الفقهاء بأن القراءة ركن زائد إذ قسموا الركن إلى قسمين :
الأول : الركن الأصلي ، وهو القيام والركوع والسجود .

الثاني : الركن الزائد^(١) كالقراءة وحدها ، وبها تتم الصلاة ، والمراد من الركن الزائد أي تتحقق ماهية الصلاة بدونه ، والشرط في الإصطلاح ما يتوقف عليه وجود الشيء الذي يجب فعله ، وليس هو جزء من حقيقة وماهية الفعل ، بل هو من مقدماته مثل وقت الصلاة ، فمثلاً طلوع الفجر شرط لصلاة الصبح ، ورؤية الهلال شرط لوجوب صيام شهر رمضان ، قال تعالى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٢) .

ومنه الوضوء ، ولابد لصحة الفعل العبادي من تحقق شروطه ، ومن شروط الصيام النية والطهارة .

والنسبة بين الركن والشرط هي العموم والخصوص من وجه ، فمادة الإلتقاء على وجوه :

الأول : كل من الركن والشرط شرط في صحة الفعل العبادي .

الثاني : يسمى كل من الركن والشرط الفرض ، لصفة الوجوب في كل منهما .

الثالث : توقف الفعل العبادي على ما له من الركن والشرط .

وأما مادة الاختلاف بين الركن والشرط .

أن الركن يدخل في ماهية وحقيقة الشيء ، فمثلاً الركوع جزء من ماهية وحقيقة الصلاة .

(١) أنظر التقرير والتحبير ٣٣/٤ .

(٢) سورة البقرة ١٨٥ .

والإمساك عن الأكل في شهر رمضان جزء من أركان الصوم ، أما الشرط فلا يدخل في ماهية الفعل العبادي كالإستقبال والوضوء للصلاة ، ولكنهما شرط في صحتها ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١) .

وبخصوص القبلة وتعيينها ، قال تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (٢) .

والشرط على شعبتين :

الأولى : شرط تكليف ، ويترتب عليه فعل العمل العبادي مثل البلوغ والعقل والإختيار .

الثانية : شرط صحة وأداء وهو الذي تتوقف عليه صحة الفعل العبادي مثل الطهارة .

(١) سورة المائدة ٦ .

(٢) سورة البقرة ١٤٤ .

وعن الإمام الباقر عليه السلام قال : ان الله تبارك وتعالى فرض الركوع ، والسجود والقراءة سنة ، فمن ترك القراءة متعمداً أعاد الصلاة ، ومن نسي فلا شئ عليه .

والمختار أن النية شرط في الصوم وليست ركناً فيه وأيهما أكثر الركن والشرط فيه وجوه :

الأول : الركن هو الأكثر .

الثاني : الشرط هو الأكثر .

الثالث : التفصيل ، فمن العبادات ما يكون الشرط هو الأكثر كالصلاة ، ومنها ما يكون الركن هو الأكثر .

وأركان العمرة خمسة :

الأول : النية .

الثاني : الإحرام .

الثالث : الطواف .

الرابع : السعي بين الصفا والمروة .

الخامس : التقصير .

وأركان الحج سبعة :

الأول : النية .

الثاني : الإحرام .

الثالث : الوقوف بعرفات .

الرابع : الوقوف بالمشعر .

الخامس : الطواف .

السادس : السعي بين الصفا والمروة .

السابع : التقصير أو الحلق .

أي أن النسبة بين العمرة والحج بلحاظ الأركان فقط عموم وخصوص مطلق، فيزيد الحج عن العمرة بركنين هما الوقوف بعرفات والوقوف بالمشعر .

والغزو ليس ركناً أو شرطاً في الإسلام والانتماء إليه ، وقد انقضت أيام الإسلام الأولى من غير غزو وإنما كان المشركون هم الغزاة ، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(١) ولم يرد لفظ لفظ سبيل ربك في القرآن إلا في الآية أعلاه .

كراهة الوقوف بمحاذاة الحجر الأسود

الحمد الذي جعل الطواف ركناً من أركان الحج .
ومن الآيات انسياب الطواف مع كثرة الطائفين ويبدأ الطواف من جهة الحجر الأسود ومحاذاة .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :
الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة وإنما سودته خطايا المشركين ، يبعث يوم القيامة مثل أحد^(٢) يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا^(٣) .
يستحب التكبير بمحاذاة الحجر الأسود عند الطواف مرة واحدة . من دون وقوف ، قال تعالى ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٤) .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس عن النبي صلى الله

(١) سورة النحل ١٢٥ .

(٢) أي مثل جبل أحد في حجمه وكبره .

(٣) الدر المنثور ١/٢٦١ .

(٤) سورة الحج ٢٩ .

عليه وسلم قال : إن الله يبعث الركن الأسود له عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد لمن استلمه بحق^(١).

وأخرج الأزرقى عن ابن عباس قال : الركن يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه ، والذي نفسي بيده ما من امرئ مسلم يسأل الله عنده شيئاً إلا أعطاه إياه .

وأخرج ابن ماجة عن عطاء بن أبي رباح . أنه سئل عن الركن الأسود فقال : حدثني أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : من فاضله فإنما يفاضل يد الرحمن^(٢).

وأخرج ابن خزيمة والطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : يأتي الركن يوم القيامة أعظم من أبي قبيس له لسان وشفطان ، يتكلم عن استلمه بالنية .

وهو يمين الله التي يصافح بها خلقه^(٣).

ويلاحظ عند الطواف الزحام مقابل الحجر الأسود بسبب وقوف أكثر الطائفين عنده طوعاً وانطباعاً ، والإشارة باليدين والتكبير عدة مرات ، سواء في المطاف الأرضي أو غيره.

والصواب أن التكبير مرة واحدة ومنهم من يبدأ التكبير قبل الوصول إلى محاذة الحجر الأسود ، ولا يصح هذا الوقوف خاصة عند الزحام لقاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام ، ولنفي الحرج في الدين ، ولما فيه من الإيذاء العام وإعاقة حركة الطواف وسير الطائفين ، فنرجو جعل مرشدين في الطواف بين الحجر الأسود ونهاية المطاف في الطابق الأرضي

(١) الدر المنثور ١/٢٦١.

(٢) الدر المنثور ١/٢٦١.

(٣) الدر المنثور ١/٢٦١.

من جهة جبل الصفا ولو اثنین يأمران الطائفین بالسير وعدم الوقوف ، وكذا في الطابق الأول والطوابق الأخرى عند الزحام فيها.

إن قيام بضعة منتسبين بحث الطائفین على عدم الوقوف مقابل الحجر الأسود سيمنع من حالات اختناق ، وسيوفر نحو ربع وقت الطواف ويخفف من الزحام في موسم الحج والعمرة خاصة في شهر رمضان ، ويرجى من الجهات المختصة في وفود الحاج من الدول المختلفة بيان الأمر لوفود حجيجهم وتفقههم بهذه المسألة ، وتعاونهم في انسياب حركة الطواف ، مع تجديد اقتراحنا بقطار الطواف في أحد الطوابق.

(عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اضْطَبَعَ فَاسْتَلَمَ وَكَبَّرَ ثُمَّ رَمَلَ ثَلَاثَةَ أَطْوَافٍ وَكَانُوا إِذَا بَلَغُوا الرُّكْنَ الْيَمَانِي وَتَغَيَّيُوا مِنْ قُرَيْشٍ مَشَوْا ثُمَّ يَطْلَعُونَ عَلَيْهِمْ يَرْمُلُونَ تَقُولُ قُرَيْشٌ كَأَنَّهُمُ الْغَزْلَانُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَكَانَتْ سَنَةً^(١)).

إن الذي يعانيه الطائفون من هذا الوقوف قد لا يحس به غيرهم .
وللبيت الحرام أربعة أركان هي :

الأول : ركن الحجر الأسود ويسمى أيضاً الركن الشرقي ، ويتصف بفضائل :

الأولى : الإنفراد بكون الحجر الأسود فيه والذي نزل أشد بياضاً من الثلج فسودته خطايا بني آدم كما ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : بني ركن الحجر الأسود على قواعد إبراهيم .

الثالثة : إنفراد هذا الركن بالإستلام والتقبيل .

الرابعة : ابتداء الطواف من ركن الحجر الأسود .

الخامسة : التكبير والإشارة إليه عند الوصول إليه اثناء الطواف .

السادسة : انتهاء الطواف عند ركن الحجر الأسود ليشهد للمسلم على أداء الحج ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١).
الثاني : الركن اليماني : وهو الذي قبل الحجر الأسود في الطواف ، وله فضيلة وهي بقاءه على قواعد إبراهيم عليه السلام ، أي بين ركن الحجر الأسود وبينه عموم وخصوص مطلق ففضائل ركن الحجر الأسود أكثر .

الثالث : الركن العراقي ، وهو الذي يلي ركن الحجر الأسود في الطواف وتسميته الركن العراقي معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للدلالة على دخول أهل العراق والشام الإسلام وزحفهم نحو مكة بشوق وإيمان لأداء فريضة الحج العبادية ، وانفاق المال وتحمل العناء والتعب قربة الى الله ، وفيه دعوة للسلام العامة.

الرابع : الركن الشامي : وهو الذي يلي حجر إسماعيل في الطواف ، وكل من الركن العراقي والشامي ليس على قواعد إبراهيم لأن قريشاً ضيقوا في مساحة وبناء البيت من جهتهما .

والحجر الأسود بمنزلة يمين الله فيبايع به كما يبايع على يد الرجل .
وعن (عَبْدُ اللَّهِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ بَيْنَ الرُّكْنِ الْيَمَانِيِّ وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾^(٢) ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ.

وَيَقُولُ إِذَا انْتَهَى إِلَى الرُّكْنِ الْعِرَاقِيِّ "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّكِّ وَالشَّرِّ وَالنَّفَاقِ وَالشَّقَاقِ وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ"^(٣).

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة البقرة ٢٠١.

(٣) ابن حجر العسقلاني / التلخيص ٥٣٨/٢ .

وفي قطع التلبية وجوه :

أولاً : على قول مشهور تقطع التلبية للمعتمر والذي يعتمر لحج التمتع عند الحجر الأسود وبه قال الحنفية والشافعية والحنابلة .

واستدل بقول (ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمسك عن التلبية في العمرة إذا استلم الحجر)^(١).

ثانياً : قطع التلبية عند دخول أدنى الحرم ، ونسب ابن عمر فعله إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثالثاً : تقطع التلبية إذا دخل الحرم **إن** كان **إحرامه** للعمرة من ميقاته ، أما إذا كان الإحرام من غير ميقات البلد الذي جاء منه كما لو كان من أهل العراق وأحرم من التنعيم فانه يقطع التلبية إذا دخل بيوت مكة أو المسجد الحرام ، وبه قال المالكية .

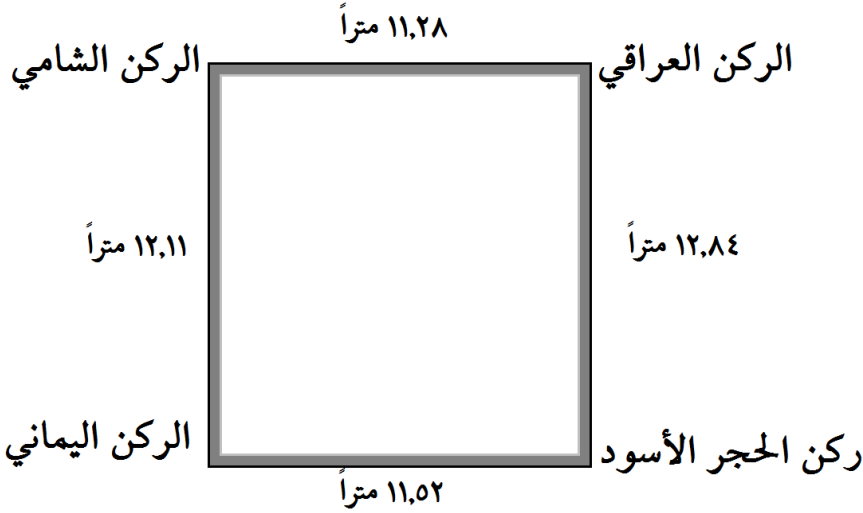
وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام **أنه قال** :

التمتع إذا نظر إلى بيوت مكة ، قطع التلبية عند عقبة المدنيين وكانت حدود بيوت مكة وتقع غرب الجبل الذي يشرف على شهداء مكة من الشرق ، ويسمى اليوم (ربع أبي مدافع) لتسمية الجبل المذكور باسم أبي مدافع لأن الأتراك أيام العثمانيين نصبوا عليه المدافع .

وعن الإمام الصادق عليه السلام (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخل من أعلى مكة من عقبة المدنيين عند الفتح)^(٢).

(١) صحيح ابن خزيمة ٢٠٥/٤.

(٢) البحار ٣٨٩/٢١.



ارتفاع الكعبة ١٤ مترأ

مخطط أسماء وأطوال أركان وأضلاع الكعبة، وليس من ضلع يساوي ضلعاً آخر فيها

وسياتي في الأجزاء التالية وفي ذات منهجية هذا الجزء كل من قانون:

الأول : قانون أداء الصلاة واقية من الإرهاب .

الثاني : قانون موضوعية العبادات في الحصانة من الإرهاب .

الثالث : قانون التفكير بالآيات الكونية وبدائع السموات والأرض حرز

من الإرهاب.

وقد تكرر في القرآن قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١) وفيه دعوة للناس

للناس للتدبر في أمور الدنيا والآخرة ، ومنه أن الإرهاب لا يحقق أي غاية

إلا الفساد والضرر والخسارة لصاحبه ولغيره .

الرابع : قانون السنة النبوية شاهد على تنزه الإسلام عن الإرهاب .

الخامس : قانون النصوص النبوية التي تنهى عن الإرهاب .

السادس : محاربة الإرهاب بالسنة النبوية .

السابع : عدم رضا النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ترويع الأمنين.

من الغازي في معركة أحد

لم يتعظ المشركون المنهزمون من معركة بدر بمن نجا من القتل والأسر يومئذ مما نزل بهم من المصائب المتعددة ولم يؤمنوا أو لا أقل يكفوا عن قتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فحالما دخلوا مكة نظروا إلى غير قافلة أبي سفيان موقوفة عند دار الندوة .

(فمشى اشراف قريش إلى أبي سفيان فقالوا نحن طيبو أنفس أن تجهزوا بريح هذه العير جيشا إلى محمد فقال أبو سفيان فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنوا عبد مناف فباعوها فصارت ذهبا وكانت ألف بعير والمال خمسين ألف دينار فسلم إلى أهل العير رؤوس أموالهم واخرجوا أرباحهم وكانوا يربحون في تجارتهم لكل دينار ديناراً^(١)).

ولما اجتمعت الأموال عند كفار قريش قاموا باستنفار العرب ، فطافوا على العرب وأخرجوا معهم بعض الشعراء لالقاء القصائد الحماسية ولذم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ومن هؤلاء الشعراء أبو عزة الشاعر .

(فخرج أبو عزة يسير في تهامة ويدعو بني كنانة وخرج مسافع بن عبد مناف ابن وهب بن حذافة بن جمح إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٢).

كل هذا والنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لم يبعثوا تهديداً لقريش ، ولم يغيروا عليهم ، ولم يتهايأوا لقتالهم ولا للدفاع ، مع أن أخبار هذا التحشيد تصل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين

(١) عيون الأثر ٤٠٥/١.

(٢) تاريخ الطبري ١٨٧/٢.

والأنصار ، خصوصاً وأن بقاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو الناس للإسلام جعل أهل مكة والقبائل على شعب :

الأولى : طائفة من الذكور والأنثى دخلوا الإسلام ، وهم على قسمين :

الأول : الذين دخلوا الإسلام وهاجروا إلى الحبشة أو المدينة ، وأيهما الأكثر ، الجواب الذين هاجروا إلى المدينة .

الثاني : الذين أسلموا ولكنهم بقوا في مكة أو في قراهم ، وهم على قسمين :

الأول : الذين أعلنوا إسلامهم .

الثاني : الذين أخفوا إسلامهم .

الثانية : طائفة من أهل مكة والقرى المحيطة بهم صاروا يميلون إلى الإسلام ، وهذا الميل من الكلي المشكك الذي كان على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً . فمنهم من يتجاهر بهذا الميل ، ويعلن عن رغبته دخول الإسلام أو قرب دخوله .

ومنهم الذين يتابعون نزول آيات القرآن ، ويتدبرون في معانيها في ميل ظاهر وجلي للإسلام ، وإقرار ضمني بصدق نزولها من عند الله ، وتجلت الحقائق بعد كشف ودفع الغشاوة التي كان الكفار يجعلونها على الأبصار (عن ابن عباس قال : لما قدم وفد اليمن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا : أبيت اللعن : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سبحان الله . . . ! إنما يقال هذا للملك ولست ملكاً . . . أنا محمد بن عبد الله .

فقالوا : إنا لا ندعوك باسمك . قال : فأنا أبو القاسم . فقالوا : يا أبا القاسم ، أنا قد خبأنا لك خبيئاً . فقال : سبحان الله . . . ! إنما يفعل هذا

بالكاهن ، والكاهن والمتكهن والكهانة في النار . فقال له أحدهم : فمن يشهد لك أنك رسول الله ؟ .

فضرب بيده إلى حفنة حصا فأخذها فقال : هذا يشهد أنني رسول الله فسبحن في يده فقلن : نشهد أنك رسول الله . فقالوا له : أسمعنا بعض ما أنزل عليك . فقرأ { والصفات صفاً }^(١) حتى انتهى إلى قوله : { فأتبعه شهاب ثاقب }^(٢) فإنه لساكن ما ينبض منه عرق ، وإن دموعه لتسبقه إلى لحيته ، فقالوا له : إنا نراك تبكي . . . ! أمن خوف الذي بعثك تبكي ؟ قال : بل من خوف الذي بعثني أبكي ، إنه بعثني على طريق مثل حد السيف ، إن زغت عنه هلكت . ثم قرأ { ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً }^{(٣)(٤)}.

الثالثة : طائفة تصر على الكفر والضلالة وتقيم على عبادة الأوثان ، وتمتنع عن التدبر في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتعرض عن آيات التنزيل ، قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾^(٥).

وفي هذه الطائفة أكثر رؤساء قريش وبيدهم قرار الحرب والسلام ، فكانوا يحملون الناس على قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكان بعضهم يخرج ابنه المسلم معه لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة الصفات ١.

(٢) سورة الصفات ١-١٠.

(٣) سورة الإسراء ٨٦.

(٤) سورة الكهف ٥٧.

(٥) الدر المنثور ٦/٣١٧.

وسلم كما حدث في معركة بدر وأحد ، فانحاز عدد منهم إلى جانب المسلمين عند وصوله إلى ميدان المعركة ، ومنهم من أبى الخروج فقيده بالسلاسل .

الرابع : طائفة يغلب عليهم السكوت وعدم إيلاء الأمر عناية كافية ، وهل هذه الطائفة هي الأكثر كما يجري في الأحوال السياسية العامة ، الجواب لا ، لنفاذ علوم ودلائل النبوة إلى شغف القلوب ، فمن مصاديق قوله تعالى ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾^(١) أن مصاديق البشارة والإنذار تدخل عند بعثة النبي لكل بيت وشاء الله عز وجل أن تصل أخبار ومعجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوان بعثته وما بعدها إلى أسماع عامة الناس ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٢) .

وإن كانت الآية أعلاه أعم لأن الرحمة قد تصل بالذات أو بالواسطة ، للقريب والبعيد .

وتحتمل جهة الغزو في معركة بدر وجوهاً :

الأول : المشركون هم الغزاة .

الثاني : النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار هم الغزاة .

الثالث : ليس من غزو في المعركة كما لو التقى الجيشان صدفة ، وحدثت مواجهة بينهما .

الرابع : كل من الفريقين غاز ، ويكون تقدير الآية : يوم التقى الجمعان الغازيان .

(١) سورة الأنعام ٤٨ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

والصحيح هو أن المشركين هم الغزاة والمعتدين من جهات :
الأولى : قيامهم بتوجيه التهديد والوعيد للنبي وأصحابه من أيام
 معركة بدر .

الثانية : تجهز الذين كفروا لنحو سنة كاملة للقتال ، وانشاد الأشعار
 التي تثير الهمم ، وجاءوا معهم إلى المعركة بالنساء ليضربن بالدفوف
 والطبل للتحريض على القتال .

الثالثة : تسيير الجيوش والزحف بها إلى المدينة ، وبذل الأموال الطائلة
 في اعدادها ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَهُنَّ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ
 يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(١) .

الرابعة : تعيير الذي يتخلف عن الخروج من قريش .
الخامسة : إكراه المسلمين من أهل مكة على الخروج إلى قتال النبي
 صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .
السادسة : فتح قريش باب التطوع للخروج لقتال النبي صلى الله عليه
 وآله وسلم

السابعة : الإلحاح والضغط على القبائل لتذكيرهم بالإحلاف التي
 تربطهم بقريش الأحابيش ، وفي وقائع معركة أحد (قال ابن إسحاق:
 وكان الحليس بن زيان أخو بني الحارث بن عبد مناة وهو يومئذ سيد
 الاحابيش مر بأبي سفيان وهو يضرب في شدة حمزة بن عبدالمطلب بزج
 الرمح ويقول: ذق عقق.

فقال الحليس : يا بنى كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون
 لحما ، فقال : ويحك اكتمها عني فإنها كانت زلة.)^(٢) .

(١) سورة الأنفال ٣٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٧٥/٣.

الثامنة : حملة تشويه وافتراء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين والمسلمات .

وفي ميدان معركة أحد خرج حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة بين الصفين فنادى : انا قاصم من ييارز برازا ، فلم يخرج إليه أحد ثم قال :

يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ زَعَمْتُمْ أَنَّ قَتَلَكُمْ فِي الْجَنَّةِ وَأَنَّ قَتْلَنَا فِي النَّارِ كَذَبْتُمْ وَاللَّاتِي لَوْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ حَقًّا لَخَرَجَ إِلَيَّ بَعْضُكُمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ فَضْرَبَهُ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ^(١).

وفي معركة الخندق (و حين أجلى الله الأحزاب قال (لا يغزوننا نحن نسير إليهم)^(٢).

لقد نزل قوله تعالى ﴿يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾^(٣) بخصوص معركة أحد ، ويكون تقدير الآية على وجوه محتملة :

الأول : يوم التقى الجمعان، جمع مشرك غاز وجمع مؤمن مدافع .

الثاني : يوم التقى الجمعان جمع معتدين ظالمين وجمع مسلمين صابرين .

الثالث : يوم التقى الجمعان جمع زحف نحو أربعمئة وخمسين كيلو متر لإرادة القتال ، وجمع خرج يدافع في أطراف مدينته .

الرابع : يوم التقى الجمعان جمع يرأسه عدد من المشركين وجمع يرأسه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) الروض الأنف ٢٥٨/٣ .

(٢) عيون الأثر ٨٤/٢ .

(٣) سورة آل عمران ١٦٦ .

الخامس : يوم التقى الجمعان جمع معهم ابليس ، وجمع معهم الملائكة .

السادس : يوم التقى الجمعان ، جمع يحملون أوزارهم يوم القيامة وهم المشركون وجمع يأتيهم الثواب في النشاطين وهم المؤمنون .

السابع : يوم التقى الجمعان فسقط سبعون شهيداً من المسلمين ونزل قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١) .

الثامن : يوم التقى الجمعان والأصل والأولى أن لا يلتقوا لتجلى صدق النبوة ووجوب اتباع الحق .

التاسع : يوم التقى الجمعان ليفوز المسلمون بالعفو والثواب .
العاشر : يوم التقى الجمعان في معركة أحد كما التقوا في معركة بدر .

الحادي عشر : يوم التقى الجمعان لتقوم الحجة على الذين كفروا .

الثاني عشر : يوم التقى الجمعان يوم مشهود لأهل السماء والأرض .

الثالث عشر : يوم التقى الجمعان (خسر هناك المبطلون) .
الرابع عشر : يوم التقى جمع المشركين وجمع الإيمان في ميدان معركة أحد ، لينسحب المشركون بحسرة وخيبة ، قال تعالى ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢) .

(١) سورة آل عمران ١٦٩.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

أي المعارك أشد على المسلمين

لقد وقعت عدة معارك بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واصحابه وبين المشركين ، وكان المسلمون في حال دفاع ولم يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببدء القتال فيها ، وأيها الأشد خطورة :

الأولى : معركة بدر ، وهي أول معارك الإسلام ، ولم يكن المسلمون قد تهيأوا لها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة إلى بدر وليس معه سيف.

الثانية : معركة أحد ولحق الخسارة الشديدة بالمسلمين وإنسحاب عدد منهم من ميدان المعركة .

الثالثة : معركة الخندق وإحاطة عشرة آلاف رجل بالمدينة المنورة لأكثر من عشرين ليلة .

الرابعة : معركة حنين إذ باغتت خيل وجيوش هوازن وثقيف المسلمين وهم خارجون من مكة متنعمون بالفتح ، قال تعالى ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوكُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ﴾^(١).

الخامسة : محاولات كفار قريش لإغتيال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصيرورة الذي يريد اغتياله بجانبه وتطاله يده لولا فضل الله ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

(١) سورة التوبة ٢٥.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

السادسة : ليلة الهجرة وإرادة قريش قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في فراشه ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(١).

السابعة : بعث المشركين رجالاً خلف النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في طريق الهجرة وإرادة قتله أو أسره هو وأبو بكر مع جعل جائزة لمن يأتي بهما حين أو ميتين.

والمختار أن كل معركة من معارك الإسلام الأولى كانت هي الأخطر على شخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى الإسلام والمسلمين ، لولا فضل الله عز وجل ، ونزول المدد الملكوتي منه سبحانه ، إذ أخبر قوله تعالى ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾^(٢) بخصوص معركة بدر أن المسلمين كانوا في حال ضيق وشدة عشية وصباح يوم بدر فلجأوا إلى الله مستنجدين مستغيثين يرجون النصر منه .

وهل كانت استجارة المسلمين لخصوص واقعة بدر، الجواب لا ، إنما كانوا يستغيثون من وجوه :

الأول : صرف أذى وشرور المشركين يوم بدر (قال أبو جهل : اللهم أولانا بالحق فانصره . ورفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة في الأرض فلن تعبد في الأرض أبداً)^(٣) وفيه شاهد على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يغز المشركين ،

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة الأنفال ٩.

(٣) الدر المنثور ٤/٤١٧.

ولم يسع للقتال ، وأنه كان يحافظ على نفسه وعلى أصحابه من القتل والأسر لأنهم بيضة الإسلام ومصدر إشعاع ضياء الإيمان .

فلم يقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعائه : اللهم ان لن تنصر هذه العصاة ، إنما قال (إن تهلك هذه العصاة) فسأل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الله عز وجل خروجهم سالمين من المعركة ، ولكن الله ذو الفضل العظيم إذ رزق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه النصر المبين يومئذ .

وهل تجدد هذا الدعاء والتضرع من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كل معارك الإسلام اللاحقة بعد معركة بدر أم أنه مخصوص بمعركة بدر ، الجواب هو الأول .

الثاني : في معركة بدر وكل معركة يسأل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الله عز وجل النجاة والسلامة فهم لا يريدون القتال ولم يطلبوه بدليل قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾^(١) .

وصحيح أن الله عز وجل هو الذي كتب وفرض القتال على المسلمين ، ولكنه ترشح عن إصرار الذين كفروا عليه ، ولم يتركوا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وشأنهم يقيمون الصلاة في المدينة . ومن أسباب الأذى ودنو الضرر إلى المسلمين في معارك الإسلام مجئ المشركين في كل مرة بضعف العدد والعدة التي جاءوا بها في المعارك السابقة عن قصد وعمد في الاستعداد للمعركة ، وفي إختيار أوانها بقصد التسابق مع الزمن وإزدياد عدد المسلمين ، ودخول أفراد وجماعات فيه . وإن قلت أن دخول الفرد الإسلام لا يكفي في محاربة الذين كفروا ، فلا بد من كون قتالهم واجباً عينياً على المسلمين ، الجواب لم يثبت هذا الوجوب ، إنما جاءت آيات القرآن بالترغيب بالدفاع لذا ثبت أن الأصل

في الدفاع أو الجهاد هو أنه فرض كفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين ، وليس للحاكم أن يعلن الحرب والقتال ثم يجعله واجباً على الناس ، أو تقوم طوائف وجماعات بتحريض الشباب على الهجمات والإضرار بالناس في أنفسهم وممتلكاتهم ، قال تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(١).

وقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يأذن لكل من يطلب منه الإذن بالعودة أو الرجوع عن المعركة ، وجاء النهي عن الفرار أمام جيوش كفار قريش لأن الله عز وجل قد ضمن إدخال الرعب في قلوبهم وعودتهم بخزي وخيبة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلَاقُوهُمْ إِلَّا بِأَعْقَابٍ وَخَلْفًا وَلَا يُجَاوِزُكُمْ إِلَاهُ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَمَنْ يَنْصَرِكْ بَعْدَ ذَلِكَ سَاءَ أَلْحِقُوا الْكُفَّارَ بِكُفْرَانِهِمْ وَاللَّهُ وَاعْدٌ يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ﴾ (٢).

وعن نافع أنه سأل ابن عمر قال : إنا قوم لا نثبت عند قتال عدونا ولا ندري من الفئّة أماننا أو عسكرنا؟ فقال لي : الفئّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقلت : إن الله تعالى يقول ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ
الْأَدْبَارَ ﴾ (٣)، قال : إنما أنزلت هذه الآية في أهل بدر لا قبلها ولا
بعدها.

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم عن أبي

(١) سورة النساء ٤٦.

(٢) سورة الأنفال ١٥-١٦.

(٣) سورة الأنفال ١٥.

سعيد الخدري في قوله ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِدَبْرَةٍ﴾^(١) قال : إنها كانت لأهل بدر خاصة^(٢).

أي أن الآية تتعلق في معركة أصر الدين كفروا على إبتداء القتال والهجوم فيها فتفضل الله بهزيمتهم وخزيهم.

لقد كانت كل معركة خاضها المسلمون محنة عظيمة ، وبلاء يهدد وجود كل من :

الأول : الإسلام .

الثاني : النبوة وشخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : التنزيل .

الرابع : الصحابة من المهاجرين والأنصار .

الخامس : المدينة المنورة والعمارة فيها ، والمسجد النبوي .

السادس : عموم أهل المدينة وأموالهم وبيوتهم وزروعهم .

ويدل إستعداد قريش للمعارك وتحشيدهم لها وبذلهم الأموال في العدد والعدة والمؤن للقتال أنهم لا يرضون إلا بقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واستئصال الإسلام .

وهل من جهة خارجية من ملوك ذلك الزمان تقف وراء هذا الإصرار على القتال مثل الدولة الفارسية والرومانية ، والملوك الآخرين في الجزيرة واليمن ، الجواب لا دليل عليه ، خاصة وأنه لم يصل مدد وخيل ومؤن من تلك الدول لقريش ، ولم يرسلوا مع قوافل قريش جنوداً يحفظونها في الطريق ، قال تعالى ﴿وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ﴾^(٣).

(١) سورة الأنفال ١٦.

(٢) الدر المنثور ٤/٤٢٦.

(٣) سورة الفتح ٢٠.

وفيه تخفيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وبيان لقانون وهو أن الله عز وجل أراد تثبيت الإسلام في مكة والمدينة وأنحاء الجزيرة وإصلاح أهلها لتكون نواة إشعاع سبل الهداية وبأقل خسائر في الأرواح.

وكانت الممالك الكبرى في ذلك الزمان كالدولة الرومانية والفارسية يتصفون بالتعقل وإجتباب التهور وأسباب المغامرة ، فلا يزحفون بجيوشهم في عمق الصحراء خاصة وأنهم يعلمون بأن العرب يغدرون بهم ، يرافقونهم في النهار ويغيرون عليهم في الليل ، أو أن الذي يغير عليهم غير الذي يرافقهم لتعدد قبائل العرب وانتماء الأفراد لها ، بالإضافة إلى قلة الماء والكأ في الجزيرة ، فمياه الآبار فيها تكفي لأفراد قلائل يمرون عليها بين اليوم والآخر.

وقد يأتون للبئر فلا يجدون فيه ماء فيجلسون عنده ليوم أو يومين أو ثلاثة إلى أن يكون فيه ماء يكفي لتزودهم به ، فكيف اذا جاء جيش جرار مع الخيل والإبل وحطوا بجوار البئر.

ليكون من معاني قوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ ^(١) الحكمة الإلهية بسلامة البيت من جيوش الملوك والغزاة ، وقيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتبليغ رسالته على الوجه الأكمل بعيداً عن جور السلاطين ، وليبيان مسألة وهي أن نقل إبراهيم لزوجته هاجر وابنه إسماعيل من الشام إلى موضع البيت مقدمة لبعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونوع طريق لأداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم رسالته .

لِذَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١) ومن معاني الآية أعلاه بيان فضل الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بازاحة الموانع التي تحول دون تبليغه الرسالة ، ويمنع هجوم الدول الكبرى عليه ، ولو هجموا فان ذات مدد الملائكة يكفي لردهم وخسارتهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿بَلِّغْ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٢) .

لقد علم كل من ملك الروم والفرس ببعثة نبي في الجزيرة فلم يتعجلوا الأمر وانتظروا الأخبار ، وكانوا منشغلين بالقتال الشديد بينهم ، وأهل بلاد الروم يميلون إلى خبر بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم أصحاب كتاب .

وما أن تم صلح الحديبية إلا وبادر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى بعث رسائل إلى ملوك زمانه يدعوهم إلى الإسلام ، وفيه قطع للطريق على قريش كيلا يسعون في تحريضهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بأنهم قلة في العدد والعدة ، فلا بد للدارسين من التدبر في أسرار توجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الرسائل إلى ملوك زمانهم بعد صلح الحديبية والمنافع العظيمة فيه.

(١) سورة المائدة ٦٧.

(٢) سورة آل عمران ١٢٥.

في التلاوة

تدل زيادة المباني على زيادة المعنى مثل قوله تعالى ﴿وَعَلَّتْ أَبْوَابُ﴾^(١) في قصة يوسف عليه السلام ، فلم تقل الآية (وغلقت) على نحو التخفيف ، إنما وردت بصيغة التشديد للمبالغة .
وكما في قوله تعالى ﴿وَرَتَّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(٢) وهل يدل التشديد في لفظ ﴿وَرَتَّلْ﴾ على الثاني في القراءة والتدبر في معاني الألفاظ إذ أن رتل لا تأتي كي ينقل إلى رباعي ، إنما هي صيغة رباعية موضوعة لهذه السنخية من القراءة.

لذا فإن الزيادة في المبني التي تدل على الزيادة في المعنى ، إنما هي بالنقل من وزن إلى وزن آخر أعلى منه ، وتكون الزيادة في المعنى بالفعل وما يفيد معنى الفعل مثل اسم الفاعل واسم المفعول .
(وعن ابن مسعود قال : لا تهذوا القرآن كهذا الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل ، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب)^(٣) .
والترتيل مادة وعون على التفكير في ذخائر القرآن .
وهل الترتيل من مقدمات ووجوه عزل الخبيث عن الطيب ، والمنافق عن المؤمن .

الجواب نعم ، ومن الترتيل المد وبيان الحروف من مخرجها ، واتباع الحركات وتحسين الصوت والخشوع . والتمهل الذي هو نوع طريق للتدبر والتفكير للقارئ والسامع ، قال تعالى ﴿سَنُلْقِيْكَ عَلَيْهِمْ قَوْلًا ثِقِيلًا﴾^(٤) .

(١) سورة يوسف ٢٣ .

(٢) سورة المزمل ٤ .

(٣) الدر المنثور ١٦١/٦ .

(٤) سورة المزمل ٥ .

(عن أنس: أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: كانت مداً، ثم قرأ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم.

وقال ابن جريج، عن ابن أبي مليكة عن أم سلمة: أنها سئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقالت: كان يقطع قراءته آية آية، {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ (٤) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن سفيان، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها" (٥).

التصغير

في زيادة المعنى زيادة بالمبنى ، ولكن قد تأتي الزيادة في عدد حروف الكلمة للتصغير ، ويكون من وجوه :

الأول : ضم الحرف الأول .

الثاني : فتح الحرف الثاني .

الثالث : زيادة ياء ساكنة بعد الحرف الثاني ، وتسمى هذه الياء ياء

التصغير ، ومنه كتاب تصغر إلى كتيب ، ومثل قلم تصغر إلى قُليم .

وللتصغير في اللغة العربية أغراض وهي :

(١) سورة الفاتحة ١.

(٢) سورة الفاتحة ٢.

(٣) سورة الفاتحة ٣.

(٤) سورة الفاتحة ٤.

(٥) تفسير ابن كثير ٢٥٠/٨.

الأول : الإخبار عن قلة الحجم عن الحال الطبيعية المتعارفة في الوجود الذهني .

الثاني : المحبة والشفقة مثل ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾^(١)
﴿يَا بَنِيَّ إِنِّي أَنَا الْبَنِيُّ الْمَقَالَحَةُ مِنْ خَرْدَلٍ﴾^(٢).

الثالث : التقليل في الشأن ، وبيان أنه أدنى من المعارف للمعنى مثل كاتب تصبح كويتب .

ويسمى هذا القسم بالتحقير ، ولم يرد في القرآن التصغير بمعنى التحقير وعدم الوجود هذا من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيَّ آدَمَ﴾^(٣).

الرابع : إرادة تقريب الزمان وإنعدام الفترة فاذا صلى المسلم صلاة العصر قبل المغرب بقليل يقول : صليت المغرب قبيل المغرب ، ولم يقل قبل المغرب .

الخامس : قصد تقريب المكان والتفاؤل فيه كما لو قيل : فوق الجدار بدل فوق الجدار .

السادس : التدليل (قال جعفر بن سليمان : سمعت امرأة في بعض الطرق وهي تتكلم ببعض الرفث فقلت لها إنكن صويحبات يوسف ، فقالت له المرأة : واعجباً نحنُ دعونا إلى اللذة ، وأنتم أردتم قتله ، فمن أصحابه نحنُ أو أنتم ، وقتل النفس أعظم مما أردناه)^(٤).

(١) سورة يوسف ٥.

(٢) سورة لقمان ١٦.

(٣) سورة الإسراء ٧٠.

(٤) الكشف والبيان للثعلبي ١٦٦/٧ .

وكما في قوله تعالى ﴿أَنَّهُمْ رُوِيَ﴾ ^(١) أي قليلاً ورويداً مصدر أروود بالترخيم ، ولا يأتي إلا مصغراً.

ولا يتغشى التصغير بعض الكلمات والأسماء ، فيمكن القول أن أكثر كلمات اللغة العربية لا تقبل التصغير وهي :

الأول : الأسماء المبنية كالاستفهام والشرط واسم الإشارة والاسم الموصول والضمائر.

الثاني : لا يقع التصغير بالأفعال .

الثالث : الأسماء المعظمة مثل الأسماء الحسنى لله عز وجل وأسماء الأنبياء والملائكة .

الخامس : سور الموجبة الكلية مثل كل ، والجزئية مثل بعض .

ولم تصغر الوقائع التي وردت في القرآن والسنة ، وفيه دلالة على عظيم شأنها بورودها في القرآن .

ويكون وزن التصغير على وجوه :

الأول : فُعيل ، ويكون لتصغير الأسماء الثلاثية إذ يضم الحرف الأول ، ويفتح الثاني ، وتضاف بعده ياء التصغير مثل ثور ثوير ، ولو كان الاسم الذي يراد تصغيره منتهياً بتاء التأنيث فتبقى تاء التأنيث على حالها مثل شجرة وشجيرة ، وأما إذا كان غير منتهى بتاء التأنيث فيضاف إلى آخره تاء التأنيث في حال التصغير مثل هند تصبح هنيذة .

الثاني : مُفِعل وهو وزن التصغير الخاص بالكلمات الرباعية إذ يتم ضم الأول وفتح الثاني وزيادة ياء ساكنة بعد الثاني مع كسر الحرف قبل الأصلي مثل مجلس تصغر إلى مجيلس .

وإذا كان الحرف الثاني عبارة عن حرف زائد يقلب إلى واو مثل راشد تصغر رويشد .

لغة آدم

قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ^(١) تبين هذه الآية الصلة والعلقة بين الاسم والمسمى ، واللفظ والمعنى ، من غير أن تذكر اللغة المخصوصة التي علّم الله عز وجل بها آدم هذه الأسماء ، وهو من إعجاز القرآن وإكرام الله عز وجل للناس جميعاً في لغاتهم المتعددة ، وقيل أن الله عز وجل علّم آدم اللغات كلها ، وأن أولاده أخذوا منه هذه اللغات ، وهو بعيد إنما علمه اللغة التي يتفاهم بها مع الملائكة لقوله تعالى ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ^(٢) .

وسمّي آدم لأنه خلق من أديم الأرض ، وهذه التسمية من الشواهد على أن لغته كانت العربية .

وقيل أن آدم كان يتكلم باللغة السريانية.

والمختار أن الملائكة يتكلمون اللغة العربية ، وهو لا يمنع من تكلمهم بأكثر من لغة ، ومعرفتهم لغات الأمم خاصة وأنهم يقومون بتدوين أقوال الناس ، قال تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ^(٣) .

وأراد بعض العرب أن تكون لغة القرآن غير العربية ظناً منهم أن لغة الكتب السماوية التوراة والإنجيل والقرآن واحدة فجاء الرد من عند الله ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَاهُمْ يَوْمَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

(١) سورة البقرة ٣١.

(٢) سورة البقرة ٣٣.

(٣) سورة ق ١٨.

أَعْجَبِي^١ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ^٢ ﴿١﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِي^٣ وَعَرَبِيٍّ قُلُّ هُوَ الَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾^(٢).

بأن القرآن وحى وليس من كلام البشر إذ أن النبي محمداً رجل أمي لا يقرأ ويكتب واختلفوا في دعواهم بالذي قام بتعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أقوال :

الأول : غلام الفاكهة بن المغيرة ، واسمه جبر ، وكان يدين بالنصرانية واسلم (وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلم محمداً فيقول لا والله بل هو يعملني ويهديني)^(٣).

الثاني : عبد لبني الحضرمي اسمه يعيش ، وكان يقرأ الكتب الأعجمية.

الثالث : غلام لبني عامر بن لؤي اسمه يعيش^(٤).

الرابع : غلامان نصرانيان أحدهما اسمه يسار والآخر جبر ، وهما من عين تمر وكانا صيقلين ، أي يعملان بجلو وشحذ السيوف ويقرأان التوراة والإنجيل .

الخامس : الصحابي الجليل سلمان الفارسي ، إذ أنه درس كتب الأولين ، عن الضحاك .

السادس : غلام بمكة اسمه بلعام كان يقرأ التوراة .

السابع : رجل نصراني يتكلم الرومية واسمه أبو ميسرة .

الثامن : عداس غلام عتبة بن ربيعة .

التاسع : عابس غلام حويطب بن عبد العزى^(١) .

(١) سورة النحل ١٠٣.

(٢) سورة فصلت ٤٤.

(٣) تفسير القرطبي ١٥٨/١٠.

(٤) تفسير القرطبي ١٥٨/١٠.

العاشر : أبو فكيهة الرومي ، قاله النضر بن الحارث بن عبد الدار^(٣).
الحادي عشر : في معنى قوم آخرون في قوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتِرَاءِهِ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾^(٣).
 إذ قيل الذين أعانوه هم اليهود ، وقيل يسار وعداس وأبو فكيهة
 الرومي^(٤).

ويدل هذا التعدد وكثرة الذين ينسب لهم الكفار القيام بتعليم النبي
 محمد صلى الله عليه وآله وسلم على إفترائهم على النبي ، واتخاذهم
 المغالطة.

وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يمر على بعض هؤلاء
 ويسمع كلامهم ، ولكن هذا لا يعني أنه يأخذ منهم إنما كان يعلمهم ويبين
 لهم ما يوحى إليه ويذكر الكتب السماوية السابقة .

وقيل أن الملائكة يتكلمون فيما بينهم بنوع لغة كالإشارة الإرادية ، أي
 بلا صوت ولا حروف وعبرة ، ولكن ورد قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ
 عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥).

وكان الشياطين يصعدون في السماء ليسترقوا السمع ونقل اخبار
 الملائكة مما يدل على أن لغة الملائكة ليست خاصة بهم .

(١) الكشف ٤٠١/٢.

(٢) الكشف ٤٢٤/٤.

(٣) سورة الفرقان ٤.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٧٤/٢.

(٥) سورة البقرة ٣١.

عن ابن عباس قال : كان الشياطين لهم مقاعد في السماء يستمعون فيها الوحي ، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيكون باطلاً.

فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ، ولم تكن النجوم يرمي بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس : ما هذا الأمر إلا لأمر حدث في الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائماً يصلي بين جبلي نخلة ، فأتوه فأخبروه ، فقال : هذا الحدث الذي حدث في الأرض^(١).

ترجمة سعيد بن جبير

روي عن (سعيد بن جبير ، قال : كنت أقرأ هذا الحرف {الذين هم عند الرحمن إناثاً} فسألت ابن عباس فقال ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾^(٢)، قلت : فإنها في مصحفني عند الرحمن قال : فامحها واكتبها {عباد الرحمن} بالألف والباء . وقال : أتاني رجل اليوم وددت أنه لم يأتني ، فقال : كيف تقرأ هذا الحرف { وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً }^(٣) قال : إن أناساً يقرأون الذين هم عند الرحمن فسكت عنه ، فقلت : اذهب إلى أهلك^(٤) .

والقراءة (هم عند الرحمن) قرأ بها ابن كثير وابن عامر ونافع^(٥).
مما يدل على وجود نسخ متعددة من القرآن في أيام الصحابة وأن الكلمات النادرة التي تختلف عن الأصل سرعان ما ينقحها الصحابة

(١) الدر المنثور ١٠/١١٥.

(٢) سورة الزخرف ١٩.

(٣) سورة الزخرف ١٩.

(٤) الدر المنثور ٩/٩٠.

(٥) تفسير بحر العلوم ٤/١٠٦.

والتابعون وفق قراءة ومصحف الصحابة ، وسعيد بن جبير بن هشام مولى بني أسد وكان أسود اللون من أهل التقوى ، أخذ العلم عن ابن عباس وعن عبد الله بن عمر ، وعن عائشة ، ثم سكن الكوفة فصار إماماً ومعلماً فيها .

وكان يحج سنة ويعتمر أخرى ويقوم الليل وربما ختم القرآن في ثلاثة أيام .

وقد قتله الحجاج سنة (٩٥) للهجرة ، وكان الحجاج قد جعله على نفقات الجند في بعث عبد الرحمن بن محمد الأشعث إلى قتال رييل ملك الترك ، وعبد الرحمن هذا ابن محمد بن الأشعث بن قيس الصحابي الذي قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سنة عشر في وفد كندة وكان رئيسهم .

وقال ابن إسحاق ابن شهاب قدم الأشعث بن قيس في ستين راكباً من كندة وذكر خبراً طويلاً في ذكر إسلامه وإسلامهم وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أماناً ولا نتنفي من أيينا^(١) .

وسمي الأشعث لشعث رأسه ، وتزوج أخت أبي بكر أم فروة بعد أن ارتد وجيء به من اليمن إلى المدينة أسيراً فولدت محمداً ، وتولى الأشعث ولاية أذربيجان في أيام عثمان بن عفان فعزله الإمام علي عليه السلام (عن أذربيجان ، وأرمينية وكان عاملاً لعثمان عليها ، وصرف جريراً عن همدان ، وكان عاملاً لعثمان عليها ، وكان في نفس الأشعث عليه من ذلك شيء ، فكان منه الميل إلى خديعة عمرو بن العاص قد أراد به تحكيم أبي موسى الأشعري)^(٢) .

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ٤٣/١ .

(٢) سمط النجوم ٤٩١/١ .

وتوفي سنة (٤٠) للهجرة بعد شهادة الإمام علي عليه السلام بأربعين ليلة ، وابنته زوجة الإمام الحسن عليه السلام.

ومحمد بن الأشعث من قادة عبيد الله بن زياد في الكوفة أرسله للقبض على مسلم بن عقيل وأعطاه الأمان ولم يمض عبيد الله بن زياد أمانه .

وكان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث مغروراً في نفسه ويتفاخر بأنهم ملوك كندة ويسمي الحجاج ابن أبي رغال ، وكانت ثورته أشد الثورات وحركات التمرد على بني أمية ، ولم تكن خروجاً على خلافتهم ، إنما كانت ضد شخص الحجاج ، وقيل كان سبب خروجه تهديد الحجاج له بعزله ونصب أخيه محمد بن الأشعث محله لأنه توقف عن قتال ملك الترك أيام الشتاء ولذا قام عبد الملك بن مروان بعد تعدد المعارك بين الحجاج وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بتخيير أهل العراق باستبدال الحجاج بعبد الرحمن بن الأشعث في الولاية عليهم على أن يضعوا السلاح ، ولكن عدداً من قادة عبد الرحمن لم يرضوا خشية القتل ، وكان الحجاج قد بعث عبد الرحمن على رأس أربعين ألف مقاتل ، وكان عم عبد الرحمن قد حذر الحجاج من توليته وإمارته ، وكانت كل المعارك بينهما لصالح عبد الرحمن والتي استمرت لسنة (٨٢) و(٨٣) للهجرة إلا آخرها.

إذ التقى الجيشان عند دير الجماجم ، والذي سمي بهذا الاسم لمعركة وقعت بين إياد من العرب وبين الفرس قبل البعثة النبوية بنحو مائة عام وانتصرت فيها إياد ، فجمعوا رؤوس قتلى أعدائهم فسمي دير الجماجم .

لقد سار ابن الأشعث بجيش قوامه مائة ألف ، وقيل ومثلهم من مواليهم وهو بعيد إذ كان أهل الكوفة مع ابن الأشعث لبيان مسألة وهي خطأ الحجاج في بناء مدينة واسط والانتقال من الكوفة إليها مع أن مقر

الحكم في الشام ، واستمر القتال من شهر شعبان من سنة (٨٢) للهجرة إلى أن دخلت سنة (٨٣) .

وقد بايع سعيد بن جبير وعدد من القراء منهم عامر الشعبي وعبد الرحمن بن أبي ليلى وأبو البختري الطائي عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وكانت عنده كتيبة اسمها كتيبة القراء برئاسة جبلة بن زجر والذي قتل في معركة دير الجماجم هو وعدد من القراء .

قال الطبري : وجعل عبد الرحمن بن الأشعث (على القراء جبلة بن زحر بن قيس الجعفي وكان معه خمسة عشر رجلا من قريش وكان فيهم عامر الشعبي وسعيد بن جبير وأبو البختري الطائي وعبد الرحمن بن أبي ليلى ثم إنهم أخذوا يتزاحفون في كل يوم ويقتتلون وأهل العراق تأتيهم موادهم من الكوفة ومن سوادها فيما شاؤا من خصبهم وإخوانهم من أهل البصرة وأهل الشام في ضيق شديد .

قد غلت عليهم الاسعار وقل عندهم الطعام وفقدوا اللحم وكانوا كأنهم في حصار وهم على ذلك يغادون أهل العراق ويرأونهم فيقتتلون أشد القتال وكان الحجاج يدني خندقه مرة وهؤلاء أخرى حتى كان اليوم الذي أصيب فيه جبلة بن زحر ثم إنه بعث إلى كميل بن زياد النخعي وكان رجلا ركيئا وقورا عند الحرب له بأس وصوت في الناس وكانت كتيبته تدعى كتيبة القراء يحمل عليهم فلا يكادون يبرحون ويحملون فلا يكذبون فكانوا قد عرفوا بذلك .

فخرجوا ذات يوم كما كانوا يخرجون وخرج الناس فعبى الحجاج أصحابه ثم زحف في صفوفه وخرج ابن محمد في سبعة صفوف بعضها على أثر بعض وعبى الحجاج لكتيبة القراء التي مع جبلة بن زحر ثلاث كتائب وبعث عليها الجراح بن عبد الله الحكمي فأقبلوا نحوهم (قال أبو مخنف) حدثني أبو يزيد السكسكي قال أنا والله في الخيل التي غيبت لجبلة

بن زحر قال حملنا عليه وعلى أصحابه ثلاث حملات كل كتيبة تحمل حملة فلا والله ما استتقصنا منهم شيئاً^(١).

إن خروج القراء والمراد من هذا الإصطلاح في الغالب الفقهاء شاهد على الظلم والجور الذي يتصف به الحجاج. وكان بطشه شديداً ، والأولى والواجب على عبد الملك المبادرة إلى إبداله ، ولكنه أعطاه سلطة مطلقة في العراق .

إن معركة دير الجماجم من المآسي والظلم على الإسلام وأهل العراق خاصة في تأريخه الطويل ، فكان الأجدد بالخليفة في الشام عزل الحجاج خاصة وأن موضوع القتال قضية شخصية بين عبد الرحمن والحجاج تتقوم في الجملة بارتكاب الجور الذي عليه الحجاج وإصراره على الفتك وجرأته في سفك الدماء وخروج القراء وعامة الناس عليه، إنما كان عبد الملك يومئذ يمد الحجاج بالجنود من الشام .

وانهزم جيش عبد الرحمن بن الأشعث فصار على وجوه :

الأول : هروب عبد الرحمن بن الأشعث إلى رتييل ملك الترك ، وهرب معه عبيد بن أبي سبيع التميمي ، وأرسل الحجاج في طلبه عمارة بن تميم اللخمي ، وعندما أيقن عبد الرحمن بن الأشعث أنه سيسلم إلى اللخمي قتل نفسه منتحراً في سنة خمس وثمانين للهجرة ، وهو فعل حرام .

الثاني : دخول عامة الجيش إلى الكوفة فدخلها الحجاج الذي دعا الناس إلى مبايعته ، والذي يأتي للبيعة يقول له الحجاج أتشهد على نفسك أنك قد كفرت .

فان قال نعم بايعه ، أما إذا قال لا فان الحجاج يقوم بقتله . وهل هذا التشديد بالبيعة من الحجاج أم بأمر من عبد الملك .

عن عبيد الله بن عمر البكر اوي : قال : كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ادع الناس إلى البيعة فمن أقر بالكفر فخل سبيله إلا رجلا نصب راية أو شتم أمير المؤمنين . فدعا الناس إلى البيعة على ذلك حتى جاءت بنو ضبيعة فقرأ عليهم الكتاب فنهض عمران بن عصام فدعا به الحجاج فقال : أتشهد على نفسك بالكفر ، قال : ما كفرت بالله منذ آمنت به فقتله^(١).

وعمران بن عصام العنزي أوفده الحجاج على رأس وفد إلى عبد الملك بن مروان ليزين له بيعة ولده الوليد (فقام عمران خطيبا فتكلم وتكلم الوفد وحثوا عبد الملك وسألوه ذلك فقال عمران بن عصام أمير المؤمنين إليك نهدي ♦ على النأي التحية والسلاما أجبني في بنيك يكن جوابي ♦ لهم عادية ولنا قواما فلو أن الوليد أطاع فيه ♦ جعلت له الخلافة والذماما شبيهك حول قبته قريش ♦ به يستمطر الناس الغماما ومثلك في التقى لم يصب يوما ♦ لدن خلع القلائد والتماما فإن تؤثر أخاك بها فإننا ♦ وجدك لا نطق لها اتهاما ولكننا نحاذر من بنيهِ ♦ بنى العلات مأثرة سماما ونخشى أن جعلت الملك فيهم ♦ سحابا أن تعود لهم جهاما فلا يك ما حلبت غدا لقوم ♦ وبعد غد بنوك هم العياما فأقسم لو تخطأني عصام ♦ بذلك ما عذرت به عصاما ولو أنى حبوت أخا بفضل ♦ أريد به المقالة والمقاما لعقب في بنى على بنيهِ ♦ كذلك أو لرمت له مراما فمن يك في أقاربه صدوع ♦ فصدع الملك أبطاء التماما فقال عبد الملك يا عمران انه عبد العزيز أي ولاية العهد لأخيه عبد العزيز بن مروان والي مصر آنذاك .

(١) تاريخ خليفة بن خياط ٤٧/١.

قال عمران : احتل له يا أمير المؤمنين .

قال على أراد عبد الملك بيعة الوليد قبل أمر ابن الأشعث لان الحجاج بعث في ذلك عمران بن عصام فلما أبى عبد العزيز أعرض عبد الملك عما أراد حتى مات عبد العزيز

ولما أراد أن يخلع أخاه عبد العزيز ويبيع لابنه الوليد كتب إلى أخيه إن رأيت أأنصير هذا الامر لابن أخيك فأبى فكتب إليه فاجعلها له من بعدك فانه أعز الخلق على أمير المؤمنين .

فكتب إليه عبد العزيز إنى أرى في أبى بكر بن عبد العزيز ما ترى في الوليد فقال عبد الملك اللهم ان عبد العزيز قطعني فاقطعه فكتب إليه عبد الملك احمل خراج مصر فكتب إليه عبد العزيز يا أمير المؤمنين انى وإياك قد بلغنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا وإنى لا أدرى ولا تدري أينما يأتيه الموت أولا فان رأيت أن لا تغث على بقية عمري فافعل فرق له عبد الملك وقال لعمرى لا أغث عليه بقية عمره^(١).

وكان عمران بن عصام مخلصاً لبني أمية ولكنه كان يكره الحجاج ، فلم يشفع له عند الحجاج إخلاصه لبني أمية فقتله لأنه لم يرض لنفسه أن يقول أنه كافر.

خرج عمران مع ابن الأشعث على الحجاج وكان صالحاً عابداً، مقرئاً، يقص بالبصرة.

روى عن: عمران بن حصين، وقيل عن رجل، عن عمران، وهو الصحيح.

قال المثنى بن سعيد: أدركت عمران بن عصام، وهو إمام مسجد بني ضبيعة، يؤمهم في رمضان، ويختتم بهم في كل ثلاث، ثم أمهم قتادة، فكان يختتم في كل سبع.

(١) تاريخ الطبري ٦٦٤/٣.

روى عنه: قتادة، وأبو التياح، وابنه أبو جمرة.
وظفر به الحجاج فامتحنه، وقال: أتشهد على نفسك بالكفر قال : ما
كفرت بالله منذ آمنت به، فقتله في سنة ثلاثٍ وثمانين^(١).
والظاهر أن هذه البيعة المستحدثة المنكرة بخصوص أصحاب عبد
الرحمن بن الأشعث.

الثالث : تفرق بعض الجنود في البلدان والقرى ، وهرب سعيد بن جبير
إلى أصبهان ، فكتب الحجاج يطلبه إلى واليها الذي سأل سعيداً أن يخرج
من أصبهان (قال الطبري: أظنه أنه لما هرب من الحجاج ذهب إلى أصبهان
فكتب إليه : إن سعيداً عندك فخذ.

فجاء الأمر إلى رجل تخرج، فأرسل إلى سعيد: تحول عني، فتنحى
عنه، فأتى أذريجان، فلم يزل بأذريجان فطال عليه السنون.
واعتمر فخرج إلى مكة فأقام بها، فكان ناس من ضربه يستخفون فلا
يخبرون بأسمائهم.

قال : أبو حصين وهو يحدثنا هذا الرجل لا يؤمن، وهو رجل سوء،
وأنا أتقيه عليك، فاطعن واشخص،

فقال: يا أبا حصين، قد والله فررت حتى استحيب من الله: سيجيئني
ما كتب الله لي. قلت: أظنك والله سعيداً كما سمتك أمك^(٢).

وتنقل في البلدان وارسل الحجاج نفرأ في طلبه وأصحابه ومعرفة
مواضعهم ثم لجأ سعيد إلى مكة ، وكان واليها خالد بن عبد الله القسري
فأشار على سعيد بن جبير بالهرب ، ولم يثبت هذا إنما سأله الهرب
الرسول الذي بعثه خالد القسري .

(١) تاريخ الإسلام / الذهبي ٢١٠/٢.

(٢) تاريخ الرسل والملوك ٤٨/٤.

وكان بعض الملوك والأمراء يرضى بحال فرار بعض خصومهم والخارجين على طاعتهم ما دام لا يسبب الضرر أو يهيج الناس أو يجمع الجنود عليه ، وذات الهروب والتخفي استضعاف.

ثم أرسل خالد بن عبد الله القسري إلى الحجاج ثلاثة شد وثاقهم وهم:

الأول : مجاهد بن جبير ، فحبس في السجن إلى أن مات الحجاج .

الثاني : طلق بن حبيب الذي مات في الطريق من مكة إلى الكوفة خوفاً من بطش الحجاج ولسوء معاملة الجنود له كسجين وشدة الوثاق .

الثالث : سعيد بن جبير الذي قتله الحجاج بعد حوار بينهما .

وأرسل خالد بن عبد الله القسري عمرو بن دينار وعطاء لأنهما مكيان.

وقيل بعث الوليد بن عبد الملك^(١) خالد بن عبد الله القسري واليا على مكة وأمره بالقبض على سعيد بن جبير ، وكان الوالي عليها مسلمة بن عبد الملك (فبينما هو يخطب على المنبر، إذ أقبل خالد بن عبد الله القسري من الشام واليا عليها، فدخل المسجد، فلما قضى مسلمة خطبته، صعد خالد المنبر، فلما ارتقى في الدرجة الثالثة، تحت مسلمة، أخرج طومارا مختوما، ففضه ثم قرأه على الناس.

وفيه : بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى أهل مكة، أما بعد: فإني وليت عليكم خالد بن عبد الله القسري، فاسمعوا له وأطيعوا، ولا يجعلن امرؤ على نفسه سبيلا، فإنما هو القتل لا غير، وقد برئت الذمة من رجل آوى سعيد بن جبير ، والسلام.

ثم التفت إليهم خالد وقال: والذي نحلف به، ونحج إليه، لا أجده في دار أحد إلا قتلته، وهدمت داره، ودار كل من جاوره، واستبحت حرمة.

(١) في رواية ابن قتيبة أن الخليفة هو عبد الملك بن مروان .

وقد أجلت لكم فيه ثلاثة أيام، ثم نزل، ودعا مسلمة برواحله ولحق بالشام، فأتى رجل إلى خالد فقال له: إن سعيد بن جبير بواد من أودية مكة، مخفيا بمكان كذا، فأرسل في طلبه، فأتاه^(١).

وقال سعيد قبل قتله: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد يقتله من بعدي، ومات الحجاج بعد سعيد بخمس عشرة ليلة إذ وقعت في جوفه الأكلة (ويروى أنه كان يقول بعد قتل سعيد: يا قوم ما لي ولسعيد بن جبير، كلما عزمت على النوم أخذ بحلقي)^(٢).

سرعة البعير

لقد أكرم الله عز وجل الإنسان بأن سخر له الدواب والرواحل، لتكون آية في عظيم خلق الله يتدبر الناس فيها، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ^(٣) ولم تقل الآية أعلاه: أفلا تنظرون بصيغة الخطاب، لتدل الآية في مفهومها على الثناء على المؤمنين وأنهم يتدبرون في بديع صنع الله عز وجل، ولم يرد لفظ ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه.

وقد وردت الألفاظ والأسماء الخاصة بالبعير بصيغ متعددة:

الأول: لفظ البعير منها قوله تعالى ﴿وَبَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾^(٤) وقوله تعالى

﴿وَلَمَّا جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾^(٥) ولم يرد لفظ بعير في القرآن إلا في الآيتين أعلاه، وفي سورة يوسف خاصة.

(١) الإمامة والسياسة ٨٨/٢.

(٢) مروج الذهب ٤٢٠/١.

(٣) سورة الغاشية ١٧.

(٤) سورة يوسف ٦٥.

(٥) سورة يوسف ٧٢.

الثاني : لفظ الجمل والجمع جمال ، قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾^(١) والمراد من الجمل البعير ، ضربت الآية كمثل في الإستحالة لأنه أضخم الحيوانات عند العرب .
والتدبر الطبي في قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقْتُ﴾^(٢) ، يكشف أسراراً بخصوص الجمل .

والسم في الآية : الخرت والثقب الذي في رأس الأبرة الذي يدخل فيه الخيط .

ليبان أن الذين كفروا لا يدخلون الجنة أبداً ، فان قيل الله عز وجل قادر على أن يوسع ثقب الأبرة ويضيق الجمل ويقصر ويطوي قوائمه يوم القيامة بحيث يدخل فيه .

الجواب ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾^(٣) وهو سبحانه على كل شئ قدير .

ومن خصائص يوم القيامة تفضل الله بنشر تسعة وتسعين وجهاً من رحمته تعالى و(عن ابن عباس . أنه كان يقرأ {الجمل} يعني بضم الجيم وتشديد الميم ، وقال : الجمل الحبل الغليظ ، وهو من حبال السفن .
وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ عن مجاهد قال : قراءة ابن مسعود : حتى يلج الجمل الأصفر في سم الخياط .

(١) سورة الأعراف ٤٠.

(٢) سورة الغاشية ١٧.

(٣) سورة الروم ٤.

وأخرج ابن المنذر عن مصعب قال : إن قرئت الجمل فإننا نعرف طيراً يقال له الجمل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن مجاهد حتى ﴿يَلْجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^(١) .

قال : الجمل حبل السفينة ، وسم الخياط ثقبه .
وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة في الآية قال : الجمل الحبل الذي يصعد به إلى النخل ، الميم مرفوعة مشددة^(٢) .

وسئل ابن عمر عن الآية قال : الجمل ثقب الأبرة .
ولما سئل ابن مسعود عن قوله ﴿حَتَّى يَلْجَ الْجَمَلُ﴾ قال متهمكماً (زوج الناقة)^(٣) .

(عن الإمام الباقر عليه السلام: أما المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها، وأما الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد:

اهبطوا به إلى سجين، وهو واد بحضرموت، يقال له: برهوت ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، أي لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون ابدا)^(٤) .

الثالث : الناقة وهي أنثى الجمل ، وهي على وزن فعلة بالتحريف ، وتجمع على نوق (وقد تَجْمَعُ على أُنثى، أَيْانق. نِياق. وبعيرٌ مُنَوَّقٌ، أي مذللٌ مروضٌ. وناقةٌ مُنَوَّقَةٌ. والنَوَاقُ من الرجال: الذي يروض الأمور

(١) سورة الأعراف ٤٠.

(٢) الدر المنثور ٤/٢٣١.

(٣) الدر المنثور ٤/٢٣٠.

(٤) البحار ٧٠/١٨٤.

ويُصلحها. وتَنَوَّقَ في الأمر، أي تَأَنَّقَ فيه. وبعضهم لا يقول تَنَوَّقَ. والاسم منه النِيقَةُ .

وفي المثل: " خَرَقَاءُ ذاتُ نِيقَةٍ " ، يضرب للجاهل بالأمر وهو مع جهله يدعي المعرفة ويتأَنَّق في الإرادة. والانتياقُ مثل الانتقاء^(١).

وورد لفظ الناقة سبع مرات في القرآن ، مرتين في سورة الأعراف ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِنَّا كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٢)، ومرة واحدة في كل من سورة هود ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾^(٣)، وسورة الإسراء ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^(٤)، وسورة الشعراء ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ شَرِبْ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾^(٥)، وسورة القمر ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ﴾^(٦)، وسورة الشمس ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾^(٧).

وكلها في معجزة النبي صالح ، ووردت باسم ناقة الله كما في قوله تعالى ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾^(٨).

(١) الصحاح في اللغة ٢/٢٢٩.

(٢) سورة الأعراف ٧٧.

(٣) سورة هود ٦٤.

(٤) سورة الإسراء ٥٩.

(٥) سورة الشعراء ١٥٥.

(٦) سورة القمر ٢٧.

(٧) سورة الشمس ١٣.

(٨) سورة الشمس ١٣.

الرابع : العير مؤنثة وهي الإبل التي تحمل المتاع فلا تسمى عيراً إلا إذا كانت محملة بالمتاع .

وفي المثل : لا هو في العير ولا في النفير ، أي ليس من أصحاب التجارة ولا من أهل الحرب والمرابطة في الثغور .

(كما يقال للإبل إذا حملت الطيب : اللطيمة ، وإذا حملت الذهب : العسجدية)^{(١)(٢)} .

وأكثر كتب اللغة لم تذكر العير بمعنى الإبل ، وقيل تطلق العير أيضاً على الرجال والجمال .

وقد ورد لفظ العير في القرآن ثلاث مرات كلها في سورة يوسف ، وهي :

الأولى : قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذْنٌ مُؤَدِّنٌ أَنَّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾^(٣) .

الثانية : قوله تعالى ﴿ وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾^(٤) .

الثالثة : قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنُفْتَدُونُ ﴾^(٥) .

(١) المذكر والمؤنث ٦/١ .

(٢) سعيد بن ابراهيم التستري الكاتب ت ٣٦١ هجرية - ٩٧٢ م كتاب المذكر والمؤنث .

(٣) سورة يوسف ٧٠ .

(٤) سورة يوسف ٨٢ .

(٥) سورة يوسف ٩٤ .

الخامس : الهيم ، وهي الإبل العطاش ، قال تعالى ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ﴾^(١) ، تشبيهاً لحال الكفار يوم القيامة ، وأنهم كالإبل المريضة التي تمص الماء مصاً ولا تروى منه .

واستدل ابن عباس عليه بقول لبيد بن ربيعة :

أجرت إلى معارفها بشعب ... واطلاح من العبدي هيم^(٢) .

السادس : البدنة : والجمع البدن ، وتقع على الإبل والبقر لضخامة بدنها ، وقد ذكرت في القرآن مرة واحدة وبصيغة الجمع بقوله تعالى ﴿وَالْبُدْنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٣) .

وخص مجاهد لفظ البدن بالإبل دون البقر^(٤) ، وهناك أسماء للإبل في الجاهلية بلحاظ موضوع مخصوص ، قال تعالى ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٥) .

والسائبة : وهي الناقة التي كانوا في الجاهلية يجعلونها سائبة ومتركة للآلهة ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوائب^(٦) .

وروى محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التميمي عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) سورة الواقعة ٥٥ .

(٢) الدر المنثور ٣٩٢/٩ .

(٣) سورة الحج ٣٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٢٥/٥ .

(٥) سورة المائدة ١٠٣ .

(٦) الدر المنثور ٥٠٠/٣ .

لأَكْثَمَ بن الجون : يا أَكْثَمَ رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبة في النار، فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا بك منه، وذلك إنه أول من غير دين إسماعيل ونصب الأوثان، ونحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، ولقد رأيت في النار يؤذي أهل النار ريح قصبه فقال أَكْثَمَ : تخش أن يضرني شبهه يا رسول الله، قال : لا أنت مؤمن وهو كافر^(١).

والبعيرة فعيلة بمعنى مفعولة من بَحَرَ إذا شق فإذا انتجت الناقة عشرة أبطن شقوا آذانها وتركوها ترعى من غير أن ينتفع بها. والوصيلة : وهي الناقة التي تلد سبعة أبطن ، فإن كان السابع ذكراً ذبحوه وأكل منه الرجال والنساء ، أما إذا كانت أنثى تركوها في المرعى ، وقالوا وصلت أخاها ، ويكون لبنها محرماً على النساء ، وقيل الوصيلة من الغنم.

وأما الحام فهو الذكر من الإبل الذي ينتج من صلبه عشرة أبطن ، فيقال : حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنعه أحد من الكلاء والماء.

ويستطيع البعير عامة أن يحمل ٢٠٠-٣٠٠ كيلو غرام وينهض بالحمل الثقيل ويبرك به.

السابع : العِشار ، بكسر العين ، وهي الناقة التي أتى عليها من أول وقت الحمل عشرة أشهر.

ويشترك البعير مع البقر والغنم باسم الأنعام ، قال تعالى ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾^(١).

وقد ذكرت الآية أعلاه الخيل ثم الأنعام مجملة ، قال تعالى ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾^(٢)، ومتوسط عمر الجمل ٣٠-٤٠ سنة ويمكن أن يقطع الجمل أربعين كيلو متر في الساعة ركضاً ويتصف الجمل بأنه سريع الإنقياد ، ويستطيع السير مسافة ١٤٤ كم في عشر ساعات ويقدر على قطع المسافة بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام ، ولكن الجيش أبطأ في المسير لمراعاة الأضعف وكثرة الأثقال ، وتكرار التوقف.

ترى بكم قطع المنهزمون من قريش المسافة بين بدر ومكة الجواب في ثلاثة أيام على الأرجح إذ كانت إبلهم تركض بهم كما أنهم لم ينسحبوا بانتظام ، وليس عندهم غطاء ، وأنى يكون هذا الغطاء والملائكة وطيفهم يلاحقهم ، قال تعالى ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٣)، لتبادر قريش على السعي في الثأر ، ولم يكن هذا الثأر مطلوباً بذاته خاصة وأنهم أدركوا صدق معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وكان عدد المطعمين من المشركين في زحف جيشهم الى بدر عشرة ، بينما لم يستغرق المسير هذا العدد من الأيام ، مع الإقامة ليلة في بدر ، ربما لأنهم كانوا يذبحون في الغداء والعشاء ، أو يشترك اثنان أو أكثر في الذبح في اليوم الواحد مع مستلزمات الإطعام من الخبز ونحوه ، وليس في الأخبار

(١) سورة آل عمران ١٤.

(٢) سورة التكوين ٤.

(٣) سورة الأنفال ١٢.

عن مطعمين للجيش في طريق الهزيمة والعودة ، وهو من مصاديق ﴿فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(١).

قانون (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ)

ورد تنزيه مقام الربوبية من الظلم وفق التنزيل أعلاه في شطر من آيات من القرآن هي :

الأول : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٢).

الثاني : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣).

الثالث : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

ومن مصاديق عدم ظلم الله عز وجل للناس بعثه الأنبياء وانزاله الكتب السماوية لهداية الناس ، وهل تدل آية البحث على نفي الظلم عن الله عز وجل ، وأنه سبحانه منزّه عن ظلم الناس ، الجواب نعم ، ويمكن انشاء قانون وهو كل آية قرآنية تدل على عدم ظلم الله للناس ، ويمكن تأكيد مصاديق هذا القانون في كل آية من القرآن لتؤلف في هذا القانون مجلدات عديدة .

فتذكر الآية القرآنية ثم تبين دلالتها في المنطوق أو المفهوم على تنزه الله عز وجل عن ظلم العباد كافة ، برهم وفاجرهم ، ولكن الذين كفروا هم الذين ظلموا أنفسهم ، وقادوها إلى العذاب الأليم في النار .

(١) سورة آل عمران ١٢٧.

(٢) سورة هود ١٠١.

(٣) سورة النحل ١١٨.

(٤) سورة الزخرف ٧٦.

وتدل آيات القرآن والبراهين الكونية ، وماهية خلق الإنسان على أن الله عز وجل لا يظلم أحداً ، وفي التنزيل ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ بَظْلًا لِلْعَبِيدِ﴾^(١) وقال تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾^(٢) .

والظلم هو التعدي ، ووضع الشئ في غير موضعه ، وليس في القضاء والقدر شر وظلم ، فان قلت النار شر ، والجواب إنما هي عقوبة بلحاظ الحكمة في الخلق وهي عقوبة وعذاب للظالمين ، إنما يصدر الظلم والشر من بعض العباد ، كما ورد في قوله تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾^(٣) أي أن الله عز وجل خلق الجن والإنس للخير ، ولكن طائفة منهم تعمل الشر .

وعن (أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا.

يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" ولهذا قال تعالى: { كَذَّابٌ آَلٌ فَرَعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ }^(٤).

إن الوعيد بالعذاب الأليم للذين كفروا ، والوعيد بالعذاب المهين الذي ورد في آيات متعددة من القرآن كما بقوله تعالى ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ

(١) سورة الحج ١٠.

(٢) سورة العنكبوت ٤٠.

(٣) سورة الفلق ١-٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٧٧/٤.

كَفَرُوا أَنَّمَا نُنْزِلُ لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُنْزِلُ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١﴾
رحمة بالناس ، ودعوة سماوية للتنزه عن الكفر والضلالة .

ومن فضل الله عز وجل أنه أنعم على الناس بأن قربهم إلى منازل الهدى ، والثواب العظيم في الجنة فهو سبحانه لم يكتف بعدم ظلمهم إنما رغبهم بالصلاح وسلامة النفس من العذاب ، وهو من لطف الله بالناس جميعاً .

وكل آية من القرآن من مصاديق اللطف ، وهي سلاح يومي في إبعاد الإنسان عن الظلم للذات والغير .

وسياتي في الأجزاء التالية وفي ذات منهجية هذا الجزء كل من :

الأول : قانون أداء الصلاة وافية من الإرهاب .

الثاني : قانون موضوعية العبادات في الحصانة من الإرهاب .

الثالث : قانون التفكير بالآيات الكونية وبدائع السموات والأرض حرز من الإرهاب .

وقد تكرر في القرآن قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢) وفيه دعوة للناس للتدبر في أمور الدنيا والآخرة ، ومنه أن الإرهاب لا يحقق أي غاية إلا الفساد والضرر والخسارة لصاحبه ولغيره .

الرابع : قانون السنة النبوية شاهد على تنزه الإسلام عن الإرهاب .

الخامس : قانون النصوص النبوية التي تنهى عن الإرهاب .

السادس : محاربة الإرهاب بالسنة النبوية .

السابع : عدم رضا النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ترويع الأمنين .

(١) سورة آل عمران ١٧٨ .

(٢) سورة البقرة ٢١٩ .

لفظ القلم عربي

لقد بعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في مكة وأنزل عليه جبرئيل بالوحي ، قال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١) وقيل ما لم يعلم أي الخط ، ولكن المعنى أعم .

وورد لفظ القلم مرتين في القرآن ، الأولى في الآية أعلاه ، والأخرى بقوله تعالى ﴿ز وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(٢).

ويروى أن سليمان سأل عفريتاً عن الكلام فقال : ريح لا ييقى ، فقال : فما قيده ، قال الكتابة ، وهل يلحق بهذا المعنى التوثيق بالتسجيل والمسموع أو المصور كما في الإرتقاء التقني في هذا الزمان أم لا بد من الكتابة .

المختار أن هذا التسجيل على هيئته في هذا الزمان هو منزلة بين المنزلتين وقد يكون كالكتابة خاصة مع كثرة وسهولة النسخ والحفظ المتعدد.

وعن عبد الله بن عمر قال : قلت يا رسول الله اكتب ما اسمع منك من الحديث ، قال نعم فاكتب فان الله تعالى علم بالقلم .

وأختلف في أول من كتب بالقلم :

الأول : آدم عليه السلام ، عن كعب الأحبار^(٣) .

الثاني : النبي إدريس^(٤) .

(١) سورة العلق ١-٥ .

(٢) سورة ن ١ .

(٣) النكت والعيون ٤/٤٣٦ .

(٤) الكشف والبيان ٩/٢٧ .

الثالث : التعدد فيمن من كتب لأنه من فضل الله وعمومات ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (وقد قيل : إن آدم عليه السلام أعطي الخط فصار وراثته في ولده)^(١).

لتكون قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتدوين القرآن والسنة رحمة بالناس ، وسبيلاً لنجاتهم يوم القيامة .

وهل كلمة القلم عربية أم ليست عربية لأنه ليس لها جذر ، المختار أنها عربية ، ولو سألنا أيهما السابق نزول القرآن أم صناعة النحو .

الجواب هو الأول ، والمختار أن صناعة النحو والكلام والأصول ونحوه لا تحيط بمعاني ودلالات وخزائن آيات القرآن ، وإن كانت قواعد لضبط الكلمة ، وساعدت في سلامة القرآن من التحريف ، فمثلاً تقسم الواو إلى قسمين :

الأول : حرف عطف .

الثاني : أداة استئناف .

والمختار أنه قد ترد الواو بالمعنيين معاً في آن واحد ، إذا كان معنى الآية القرآنية يحتمل هذا التعدد والجمع .

ويمكن إنشاء قانون وهو أن قواعد اللغة والكلام والمنطق والأصول ونحوها من العلوم لا تقيد إطلاق الآية القرآنية وتعدد الوجوه والمقاصد السامية فيها ، خاصة وأن معانيها متجددة في كل زمان .

وثبت في علم الأصول أن ترتب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة له .

وكثير من اللغات السامية تفرعت عن اللغة العربية لأن أهلها هاجروا من الجزيرة العربية وتحدثوا في بدايات هجرتهم بالعربية ثم أخذت لغاتهم صفة الاستقلال مثل :

الأولى : اللغة الأكادية التي هي أقرب اللغات السامية إلى اللغة العربية ، وظهرت في بلاد الرافدين أي العراق قبل الميلاد ، وانتشرت في الهلال الخصيب ويصنفها المستشرقون ضمن اللغات السامية الشرقية .

الثانية : اللغة العبرية ، وهي من اللغات السامية وهي التي كتب بها العهد القديم ، وهي لغة كنعان ، وسميت بالعبرانية لأن العبرانيين حملوها من بعد الكنعانيين وهم أهل فلسطين وضعفت هذه اللغة في القرن الخامس قبل الميلاد واللغة العبرية الحالية مشتقة ومتفرعة عنها .

الثالثة : اللغة الآرامية ، وانتشرت في وسط بلاد الشام والهلال الخصيب ، وسادت هذه اللغة بعد سقوط الدولة الآشورية ، وذكر أنها لغة السيد المسيح وتلامذته ، ولا زالت هذه اللغة متداولة على الألسن بين معتقي المسيحية في بلدان الشرق الأوسط ، وكانت اللغة الرسمية في القرن السابع قبل الميلاد في بلاد الشام وتدمر .

الرابعة : اللغة الحبشية ، وتسمى اللغة الأمهرية ، وهي لغة سامية يتحدث بها سكان أثيوبيا .

وسميت اللغات السامية نسبة إلى الساميين وهم أبناء سام بن نوح ، ويتكلم باللغات السامية في هذا الزمان نحو خمسمائة مليون شخص ، وأكثر هذه اللغات انتشاراً هي اللغة العربية إذ يتحدث بها أكثر من (٤٣٠) مليون شخص ، ثم اللغات الأمهرية الحبشية ويتحدث بها (٢٧) مليون . والظاهر أن هذه اللغات تفرعت عن اللغة العربية ، لذا تجدها متشابهة في الجذر وما يسمى بالنظائر السامية للجذور العربية .

وقد حفظ الله اللغة العربية إلى أن وثقها وحفظها القرآن لتبقى لغة حية إلى يوم القيامة.

قانون عدم نسخ آيات الصلح

الحمد لله الذي جعل القرآن ﴿تَبَيَّنَ لَكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) ومنه ذات مضامين وعلوم القرآن إذ أخبر عن وقوع النسخ فيه ، قال تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) . والنسخ لغة هو الإزالة والمحو .

وفي الإصطلاح رفع حكم شرعي أو لفظه ليحل محله حكم آخر .
ويفسر القرآن بعضهم بعضاً ، قال تعالى ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) ليفيد الجمع بين الآيتين تعلق النسخ بآيات القرآن وأحكام الحلال والحرام والأمر والنهي والإطلاق والتقييد والإباحة والمنع ، وليس في الآيات الكونية ولا في الأخبار والقصص لأنها إخبار عن وقائع قد حدثت ، ومن شرائط النسخ أن التنزيل اللاحق قد ينسخ حكماً سابقاً إذا قام الدليل واتحد الموضوع لتعذر الجمع بين دليلين .

ولإجماع العلماء على وقوع النسخ إلا القليل النادر .
وقالوا أن السنة النبوية تنسخ القرآن .

(١) سورة النحل ٨٩ .

(٢) سورة البقرة ١٠٦ .

(٣) سورة النحل ١٠١ .

والمختار أنها لا تنسخ القرآن ، نعم أنها تقيد إطلاقه ، وعلى القول بأنها ناسخة فلا بد من ذكر الآيات التي نسختها السنة والأحاديث الناسخة ، كي يمكن مناقشة كل واحدة منها .

وأستدل على نسخ السنة للقرآن وجوه :

الأول : ما ورد عن عائشة أنها قالت (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات فنسخن بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن)^(١).

ولكن المدار في النسخ على الموجود بين الدفتين ، والناسخ والمنسوخ في الحديث أعلاه لم يردا في القرآن .

كما استدل بما ورد عن بريدة قال (إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها)^(٢).

نعم هذا الحديث يجمع الناسخ والمنسوخ من السنة النبوية ويمكن الإستدلال به على وجود النسخ في السنة النبوية مع ثبوت سند ودلالة الحديث الناسخ ، ولكنه ليس من النسخ القرآني .

وقد حصر السيوطي في الإتيان الآيات المنسوخة في عشرين آية وأقر بوجود خلاف في النسخ في بعضها ، ولكنه قال : ولا يصح دعوى النسخ في غيرها^(٣).

والمختار أن عددا منها لم يثبت فيه النسخ .

ومع أنه قال بأن آيات الصفح والعفو غير منسوخة بآية السيف فانه ذكر إن قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَرُّهُهُ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا

(١) الدر المنثور ٦٩/٣.

(٢) مسند أحمد ١٧٩/٣.

(٣) أنظر الإتيان في علوم القرآن ٢٥٥/١.

يَرَا لَوْ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١﴾ منسوخة بقوله تعالى ﴿إِنْ عِدَّةُ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ .

وقال (أخرجه ابن جرير عن عطاء بن ميسرة) وذكره جهة القول أمانة على أنه لم يمل إلى النسخ فيها ، والمختار أنه لا نسخ بين الآيتين أعلاه ، ولا بد للفقهاء من إجتناّب السرد والإكثار من القول بالنسخ خاصة في آيات القتال ، إذ ذهب عدد من المفسرين إلى القول بأن آية السيف ، وهي قوله تعالى ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُواهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ نسخت مائة آية ومنهم من قال نسخت مائة وأربعاً وعشرين آية ، ولا دليل عليه ، وقد صدرت عدة أجزاء من هذا السفر تبين عدم نسخ آية السيف لعدد من الآيات ، وستأتي تنمة إن شاء الله .

كذلك قال بالنسخ في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِدَ وَلَا أَيْمَانَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَغَوَّزَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ

(١) سورة البقرة ٢١٧.

(٢) سورة التوبة ٣٦.

(٣) سورة التوبة ٥.

وَرَضُونَا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَايُ قَوْمِ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ بأنها منسوخة بإباحة القتال فيه ^(١) ، وليس من ناسخ في المقام ، لإمكان الجمع بين الآيتين ، إذ تنحصر إباحة القتال بالدفاع وصرف العدو ، وعدم طمع المشركين بالإغارة على المسلمين في الشهر الحرام .

وقد يكون القدر المتيقن من الآية أعلاه بالحذر والحيلة من القتال بخصوص موسم ومواطن الحج ، فيجب على المسلمين إجتناّب الفتنة ومقدمات القتال والتفجيرات ونحوها في موسم الحج ، وفي كل أيام السنة لأنه خلاف .

كما قال بأن قوله تعالى ﴿افْرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ^(٢) منسوخة بقوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ ^(٣) .

(١) سورة المائدة ٢.

(٢) الإتيان ٢٥٥/١.

(٣) سورة التوبة ٤١.

(٤) سورة التوبة ٩١-٩٢.

وبقوله ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١) ولكنه ليس من النسخ ، إنما هو من المطلق والمقيد ، والمجمل والمبين .

وهل النسخ من إعجاز القرآن الجواب نعم إنه من إعجاز القرآن الذاتي والغيري ، ومنه الحكمة في رفع الحكم مع بقاء التلاوة ، وأوان رفعه ، لبيان سبل التخفيف في القرآن ، والتذكير بنعم الله وأهلية المسلمين لتلقي النسخ بالقبول والعمل كما في تغيير القبلة وتحويلها إلى البيت الحرام ، وإن كان استقبال النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين لبيت المقدس غير موجود في القرآن ، ولكن الآية تدل عليه ، وتخبر عنه ، وتمنع من إنكاره ، قال تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

وهل يمكن وقوع ما يؤدي إلى جواز العمل بالمنسوخ ، الجواب نعم ، وهو من أسرار عدم رفع التلاوة ، وفي النسخ بيان لحكمة الله وإطلاق مملكته ، وأن مقاليد الأمور بيده ، ومنها الأحكام الشرعية .

وهل في النسخ رسالة إلى حكام المسلمين والمشرعين في عموم بلدان الأرض ، الجواب نعم ، فاذا وجدوا مادة في الدستور أو قانوناً يتعارض مع المصلحة العامة أو أن الأفضل الإنتقال إلى غيرها فلا بد من المبادرة إلى هذا التغيير الذي يتقوم بالتخفيف بما فيه الصلاح والإصلاح وكيلا يبقى الحاكم مصراً على رأي أو قول إذا كانت المنفعة في تبديله وتغييره .

(١) سورة التوبة ١٢٢.

(٢) سورة البقرة ١٤٤.

وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(١). وهل يمكن معه القول أن بقاء المنسوخ في القرآن دليل على أن النسخ على نحو الموجبة الجزئية ، الجواب لا دليل على هذا الحصر والتقييد (وعن أبي عبد الرحمن السلمي : إنَّ علياً عليه السلام مرّ بقاص يقصُّ في جامع الكوفة بباب كندة فقال : هل تعلم النَّاسُخ من المنسوخ؟

قال : لا. قال : هلكت وأهلكت)^(٢).

وجاءت آيات من القرآن بالصلح من جهات :

الأولى : الحث والتدبر إلى الصلح .

الثانية : الترغيب بالصلح .

الثالثة : بيان قانون وهو أن الصلح هو الأولى والأفضل ، قال تعالى

﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾^(٣).

الرابعة : بيان القرآن لمنافع الصلح .

الخامسة : ذكر القرآن للصلح بين الأفراد والوثام الأسري ، والوفاق

بين الطوائف ، والصلح بين المسلمين والكفار ، كما في صلح الحديبية .

(لا تدعوني قریش اليوم إلى خطة يسألون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم

إياهما ثم قال للناس انزلوا قيل له يا رسول الله ، ابالوادى ماء تنزل عليه

فأخرج سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل في قلب من تلك

القلب فغرز في جوفه فحاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعطن)^(٤).

(١) سورة آل عمران ٤٠.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢١٠/١.

(٣) سورة النساء ١٢٨.

(٤) عيون الأثر ١١٥/٢.

قال تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١) وقال سبحانه بخصوص صلح الحديبية ﴿وَعَدُكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٢).

ومنهم من سمى صلح الحديبية (غزوة الحديبية)^(٣) ولكن خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها إلى أداء العمرة ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه ليس معهم إلا سلاح الراكب ، ولم يقصدوا الهجوم أو القتال ، ثم حينما جاءت قريش وارادوا التفاوض مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم : قال : لا يسألونني أمراً فيه نفع إلا اجبتهم مما يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يقصد القتال .

ويتوجه الأمر بالصلح إلى أطراف الخلاف والنزاع وإلى غيرهم أيضاً بالشفاعة والوساطة وفك الخصومة بالعدل ، قال تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(٤) .

وندب الله المسلمين للإصلاح بين الناس مطلقاً على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ومللهم ، قال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا

(١) سورة الفتح ١.

(٢) سورة الفتح ٢٠.

(٣) أنظر ابن كثير / السيرة النبوية ٣٥٥/٢.

(٤) سورة الحجرات ٩-١٠.

وَصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ليكون هذا الصلح من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ .

ومن الإعجاز والتكامل التشريعي في القرآن كل من :
الأول : أحكام الأسرة .

الثاني : أصل المودة بين الزوجين ، قال تعالى ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ .

الثالث : الحياة اليومية في البيت .

الرابع : أحكام الأولاد وتربيتهم .

الخامس : البر بالوالدين ، قال تعالى ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ﴿٤﴾ .

السادس : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل البيت .

السابع : منع مقدمات الخلاف والخصومة وأسباب الخلاف ، كما في

أحكام النشوز ، وسبل صرفه ودفعه ، قال تعالى ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ ﴿٥﴾ .

الثامن : قيمومة الرجل داخل الأسرة مع بيان أسباب القيمومة وهو

الإنفاق ، قال تعالى ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَاتِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي

(١) سورة البقرة ٢٢٤ .

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٣) سورة الروم ٢١ .

(٤) سورة الاسراء ٢٣ .

(٥) سورة النساء ٣٤ .

تَخَافُونَ نَشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿١﴾.

التاسع : العدل والإنصاف داخل الأسرة .

العاشر : التدخل للإصلاح بين الزوجين عند وقوع الخلاف ، قال تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (٢).

لقد أراد الله عز وجل إصلاح الأسرة لأنها نواة المجتمع الصالح ، ولمنع كثرة زيادة المحاكم وطرق أبواب الحكومة من قبل الزوج أو الزوجة أو الأولاد.

وفي إصلاح الأسرة حرب على الإرهاب وبيان لقبحه ومنع منه ، لتخرج أجيال تنفر من الإرهاب ولا ترضى به وتحاربه .
وسياتي في الأجزاء التالية وفي ذات منهجية هذه الأجزاء إن شاء الله كل من قانون :

الأول : قانون أداء الصلاة وافية من الإرهاب .

الثاني : قانون موضوعية العبادات في الحصانة من الإرهاب .

الثالث : قانون التفكير بالآيات الكونية وبدائع السموات والأرض حرز من الإرهاب .

وقد تكرر في القرآن قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) وفيه دعوة للناس للتدبر في أمور الدنيا والآخرة ، ومنه أن الإرهاب لا يحقق أي غاية إلا الفساد والضرر والخسارة لصاحبه ولغيره .

(١) سورة النساء ٣٤ .

(٢) سورة النساء ٣٥ .

(٣) سورة البقرة ٢١٩ .

- الرابع : قانون السنة النبوية شاهد على تنزه الإسلام عن الإرهاب .
- الخامس : قانون النصوص النبوية التي تنهى عن الإرهاب .
- السادس : محاربة الإرهاب بالسنة النبوية .
- السابع : عدم رضا النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ترويع الأمنين.

بحث كلامي

إن الله عز وجل هو الأول والآخر وهو قلدر على كل شيء ، وهو واجب الوجود فنسبة الوجود له أبدية أزلية متصلة ، فوجود وجوب الباري عز وجل من جميع الجهات ، وهو كمال وجودي يفوق حد التصور ، ولم يسبق وجوده شئ ، لأن الأشياء كلها من خلقه سبحانه والمخلوق تابع للخالق ، وهو دائم باق ، لإستحالة النقص على الذات المقدسة الواجبة وهو سبحانه مستغن عن العلة حدوثاً واستدامة ، وفي التنزيل ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

وتتعدد ضروب النسبة بين الموضوع والمحمول على جهات :

الأولى : نسبة الضرورة الدائمة التي لا تقبل الإنفكاك كنسبة الطهور للصلاة لقول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (لا صلاة إلا بطهور)^(٢) ، وهو ما يعبر عن النسبة فيه بالوجوب .

الثانية : النسبة الطارئة كالإحتراق بالنسبة للورقة إذا وصلناها بالنار ، وتكون نسبة المحمول إلى الموضوع فيه ممكنة ويسمى الإمكان .

الثالثة : النسبة غير المستقرة مثل الصحة والعافية بالنسبة للإنسان فلا يقال على الإنسان إذا مرض أنه معافى وهو من عالم الإمكان يطرأ عليه التغير والنقص .

(١) سورة الحديد ٣.

(٢) الكشف ٤٦٦/٤.

الرابعة : نسبة ضرورية السلب مثل حلول الأجل بالنسبة للإنسان ، قال تعالى ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١) ويستدل عليها بالقول : الثلاثة زوج ، وهو الممتنع أي امتناع نسبة المحمول إلى الموضوع ، ومنه إمتناع شريك الباري .

الخامسة : نسبة السلب الجزئي كما في حال الخسوف الجزئي للقمر^(٢) والجهة الثانية والثالثة والخامسة أعلاه تأسيس لأول مرة في هذا البحث وكذا بالنسبة للأمثلة من القرآن والسنة .

وواجب الوجود واجب بذاته من غير علة أو سبب فهو خالق الأكوان كلها ، ونزلت سورة الإخلاص في ثناء الله عز وجل على نفسه ، قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٣) .

وقد يكون الوجوب بوجود علته ، فهو واجب بغيره ، مثل وجود النهار عند طلوع الشمس .

وقيل الشئ ما لم يجب لم يوجد .

والممتنع على قسمين :

الأول : الممتنع لذاته ، وهو شريك الباري ، فليس من شريك أو ند لله عز وجل .

الثاني : الممتنع لعدم وجود أو تحقق علته ، كانهدام اللقاح بالنسبة للتكاثر ، أو عدم اخضرار الأرض لإمتناع العلة التي هي فضل الله في نزول المطر .

ومن خواص الممكن تساوي الوجود والعدم بالنسبة له كما في وجود الإنسان والآلة ، له ماهية بالمعنى الأخص ، وهو محتاج ومفتقر إلى العلة

(١) سورة يونس ٤٩.

(٢) وهذا الإمتناع جزئي ، ويدخل في عالم الإمكان .

(٣) سورة الاخلاص ١-٤.

لقانون وهو كل ممكن محتاج ، وهو من بديع صنع الله بأن كل مخلوق محتاج إلى رحمته وإلى أسباب استدامة وجوده .

ومن خواص الممكن تعلق وجوده بواجب الوجود بالذات ، فلا يوجد الممكن أو يدوم وجوده إلا بمشيئة من عند الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾^(١)، وذكرت للإمكان أقسام وهي :

الأول : الإمكان الخاص وهو الذاتي : بمعنى سلب الضرورتين وهما ضرورة الوجود وضرورة العدم ، فلا يقدر الممكن على الوجود بذاته ولا العدم بذاته ولا التقدم أو التأخر ، ولا البياض ولا السواد كقولك : الإنسان ممكن.

الثاني : الإمكان الوقوعي : ويراد منه إمكان وقوع شئ وليس على نحو القطع والواقع ، كما كان جفاف البحر ، أو زوال جبل منه ، وما هو محال مثل اجتماع الضدين أو ارتفاعهما معاً ، كالصيام والإفطار أو لكونه محالاً بسبب غيره مثل استحالة وجود المعلول إذا لم توجد علته ، كتعذر الدواء بالنسبة لمرض مخصوص ، فإذا كان الإنسان مصاباً بمرض يشفى منه بعلاج مخصوص ولكنه غير موجود أولاً يستطيع الحصول عليه فان الشفاء يكون من الممكن الوقوعي.

ومن الممكن الوقوعي القول النادر بأن القرآن ليس فيه ناسخ ومنسوخ مع إمكان وقوعه عقلاً ، قال تعالى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢)، والإجماع على وقوع النسخ في القرآن وهو المختار .

(١) سورة الرعد ٣١.

(٢) سورة البقرة ١٠٦.

الثالث : الإمكان الاستعدادي : وهو كيفية في الشئ المادي تجعله مؤهلاً لأن يكون بحال أخرى كقابلية نواة التمر للزراعة وصيرورتها فسيلاً ثم نخلة فيها ثمر .

وبين الإمكان الذاتي والإمكان الاستعدادي عموم وخصوص مطلق ، إذ يتعلق الإمكان الذاتي بالماهية ، بينما يخص الإمكان الاستعدادي الشئ الموجود فعلاً ، ويكون قابلاً للنماء والزيادة أو العكس .
والإمكان الاستعدادي من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً .

وقابلية الصحابة للغزو من الإمكان الوقوعي والاستعدادي ، ولكنهم لم يقوموا بالغزو ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء بالمعجزات والبرهان الجلي الذي يدل على وجوب عبادة الله ، ومن يتخلف عنها فلا يضر إلا نفسه في النشاطين ، ولكن فريقاً من رؤساء الكفر أصروا على الهجوم والغزو على مدينة الرسول وقتاله .

إذ الغزو ليس ممتنع الوجود ، وتتصف الحياة اليومية في الجزيرة بالغزو المتبادل بين القبائل ، فمنع منها الإسلام بالتقوى ، والوعيد والعقوبة فمن الوعيد قوله تعالى ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَفسُوفُونَ﴾^(١) ، ومن العقوبة قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢) .

(١) سورة المائدة ٣٢ .

(٢) سورة البقرة ١٧٩ .

ليكون هذا المنع من عالم الإمكان وشاهداً على فضل الله عز وجل على المسلمين والناس ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

قانون العودة من حمراء الأسد سكية

وهل من موضوعية لعودة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من حمراء الأسد بخصوص واقعة أحد ، الجواب نعم ، من جهات :
الأولى : التخفيف من شدة وقع المصيبة إذ عادوا من حمراء الأسد بسلامة وأمان ، وهل هذه العودة بشارة الأمن في واقعة الخندق ، الجواب نعم .

الثانية : المواساة من عند الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بأن أنعم عليهم بالعودة من حمراء الأسد سالمين ، قال تعالى ﴿فَاتَّقُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يُمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾^(٢).

الثالثة : المنع من أسباب النفرة من خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في الكتائب والسرايا ، فليس من خوف من هذا الخروج لأنهم عادوا من حمراء الأسد سالمين .

الرابعة : تكرار البشارة لأهل المدينة بعودة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سالماً من حمراء الأسد ، مثلما عاد سالماً من القتل من معركة أحد.

الخامسة : لقد كان أهل المدينة في حال خشية من كربة جيش الذين كفروا خاصة وأن الركبان والمسافرين كانوا ينقلون أنباء عزم

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة آل عمران ١٧٤.

أبي سفيان وأصحابه على العودة ، فحينما عاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حمراء الأسد بعد خمسة أيام من خروجه إليها انتفت أسباب الخوف .

السادسة : تنمية ملكة الصبر عند المسلمين والمسلمات وبيان مسألة وهي حسن توكل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه على الله عز وجل ، فعندما بلغهم خبر مجي جيش المشركين خرجوا بجراحاتهم مع قلة العدد والعدة ، قال تعالى ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١).

السابعة : بعث الخوف والفرع في قلوب الذين كفروا فاذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه خرجوا خلفهم بجراحاتهم ، ومع شدة المصيبة التي لحقتهم يوم معركة أحد ، فمن باب الأولوية القطعية أنهم يخرجون للقائهم في حال الصحة والسلامة والمعافة من المصائب .

وليكون من معاني عودة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من حمراء الأسد أنها صلوات ورحمة من عند الله لأنهم تلقوا الخسارة وفقد الأحبة في معركة أحد بالصبر والإسترجاع وهو من عمومات قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٢).

وكان خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى حمراء الأسد بالوحي ، وكذا كل من :

(١) سورة الانفال ٦٥.

(٢) سورة البقرة ١٥٦.

الأول : وقوف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عند حمراء الأسد وعدم تجاوزها .

الثاني : بقاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ثلاثة أيام في حمراء الأسد .

الثالث : أوان عودة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من حمراء الأسد بالوحي أيضاً .

وذكر أنه (نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: ارجع يا محمد، فإن الله قد أربع قريشا ومروا لا يلوون على شيء، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة^(١).

ليان قانون وهو أن جبرئيل عليه السلام ينزل في أوان الحرب ليصرفها ويدفعها ، ويحضر عندما تتم مقدمات القتال ، فيمنع من تحقق ذي المقدمة ، فالعلة التامة هي وجود المقتضي وفقد المانع ، وليس من مقتض للقتال بين المسلمين وغيرهم أمس واليوم وغداً ، سواء بالنسبة للمسلمين أو الطرف الآخر ، أما كفار قريش فقد جعلوا نصب أعينهم غايات خبيثة ممتنعة الوقوع ، وهي :

الأولى : قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : منع توالي نزول القرآن .

الثالثة : استباحة المدينة .

الرابعة : ثار قريش لهزيمتهم في معركة بدر .

الخامسة : قتل طائفة من المهاجرين والأنصار وأسر طائفة أخرى .

لماذا نزل القرآن منجماً

لقد نزل القرآن ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نجوماً أي مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة أيام البعثة النبوية وبحسب الوقائع ، وتسمى العرب المفرق : منجماً .

وفزع الكفار من كيفية نزول القرآن على الوقائع والأحداث ، وتوالي نزول آيات الوعد والوعيد وبيان الأحكام ، فليس كل آيات القرآن نزلت حسب الوقائع .

وكل آية تنزل من السماء سواء كان لها سبب نزول ومتعلقة بمحادثة أو ليس لها سبب نزول وغير متعلقة بمحادثة أو واقعة مخصوصة ، تكون سبباً لهداية طائفة من الناس ، وتنزل كالصاعقة على رؤوس الذين كفروا مما أظاهم وتمنوا أن يكون نزول القرآن دفعة واحدة ، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾^(١) .

ولم يرد لفظ (جملة) في القرآن إلا في الآية أعلاه ، وبينت الآية قانوناً وهو أن في تفريق نزول القرآن منافع عظيمة منها تقوية قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة .

وهل تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو العلة الوحيدة لنزول القرآن مفرقاً ، وليس دفعة واحدة ، الجواب لا إنما جاء للبيان والدلالة على وجود أسباب ومنافع لهذه الكيفية في هذا النزول منها :
الأولى : تعدد المرات التي ينزل فيها الملك بالوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : تيسير حفظ وتوثيق المسلمين لآيات القرآن ، وكل من :
الأول : نزول الآية .

الثاني : محل نزول الآية .

الثالث : توثيق موضوع الآية .

الرابع : أسباب نزول الآية .

الخامس : مقدمات نزول الآية القرآنية .

السادس : فيوضات وبركة نزول الآية القرآنية .

الثالثة : تدبر المسلمين في آيات القرآن ومضامينها القدسية .

الرابعة : تطلع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه لنزول

الملك بالوحي كما في قوله تعالى ﴿كَذَرَى تَقَلُّبُ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُلَاقِيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

ومن الإعجاز أنهم كانوا يميزون بين نزول الملك بالقرآن وبين نزوله بالحديث القدسي والسنة النبوية كما أن حال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما يصيبه أثناء نزول القرآن يختلف عن أحواله كلها من جهات :

الأولى : تفصد جبين النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عرقاً في

اليوم الشديد البرد^(٢).

الثانية : ملاقة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الشدة عند نزول

الوحي ، وليس من حصر لكيفية هذه الشدة ، ولكنها تدل بجلاء على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعتره أمر سماوي وبعد أن تنكشف هذه الشدة يتلو على أصحابه آيات من القرآن يتجلى في ثناياها الإعجاز .

الثالثة : ثقل جسم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عند نزول

الوحي عليه فإذا أوحى إليه على ناقته بركت الناقة .

(١) سورة البقرة ١٤٤.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٢٤٤/٣ .

الرابعة : أوحى إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مرة فصارت فخذة على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن ترضها .

الخامسة : تجلي المنافع من نزول القرآن في الواقع وأفعال المسلمين ، فمن خصائص آيات القرآن إصلاح النفوس والتغيير النوعي في المجتمعات بما فيه النفع العام .

ومن أسرار نزول القرآن منجماً وصف القرآن بأنه قول ثقيل ، قال تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١) وتدعو الآية أعلاه المسلمين والناس جميعاً إلى نبذ الإرهاب والتنزه عن الظلم والتعدي ، وإلى الصدور عن القرآن ، وهو ثقيل من جهات :

الأولى : القرآن ثقيل في نزوله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثانية : ثقل وطأة التكاليف على الناس ، ولكن الله عز وجل يتفضل بتخفيفها وجعلها سهلة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٢) .

ومن الإعجاز أن الآية أعلاه نزلت بخصوص تكليف الصيام ، وتشمل أيضاً الصلاة والزكاة ، لأن الصلاة واجب يؤدي خمس مرات في اليوم في حال الإفطار والصيام ، وكذا الزكاة تؤدي عند حلول وقتها وتحقق شرائط وجوبها كالنصاب .

الثالثة : ثقل كلمات القرآن ساعة نزولها من السماء إلى الأرض ، وهل هي كالجرم الثقيل الذي إذا سقط من موضع مرتفع يكون له ثقل مضاعف

(١) سورة المزمل ٥ .

(٢) سورة البقرة ١٨٥ .

على الموضع الذي يقع فيه ، الجواب لا ، فهو قياس مع الفارق ، إنما ثقل القرآن أشد .

الرابع : ثقل القرآن على الذين كفروا لما فيه من التخويف والوعيد والتذكير بما ينتظرهم من العذاب الأليم .

ولا يختص هذا العذاب بأشخاصهم ، أو أنسابهم ، إنما بأفعالهم المذمومة والمعاصي التي إرتكبوها ومحاربتهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، وإبتدائهم الهجوم والغزو بالإضافة إلى إخبار القرآن عن بغض الله عز وجل للكافرين ، ورميهم بضروب الإبتلاء وأسباب الإمتهان ، قال تعالى ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١)(٢).

فقد يغفل الكافرون عن عالم الآخرة ، أو يتظاهرون بإنكار البعث والحساب ، فتأتي الآيات لتخبر عن سخط الله عليهم وهم في الدنيا .

وفي الحديث القدسي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يقول الله : كذبتني ابن آدم ولم ينبغ له أن يكذبتني ، وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني ، أما تكذيبه إياي فقله لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقله اتخذ الله ولداً وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه والبيهقي عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله . إنهم يجعلون له ولداً ، ويشركون به وهو يرزقهم ويعافيهم) (٣).

(١) سورة آل عمران ١٤١.

(٢) أنظر الجزء الثالث عشر بعد المائة من هذا السفر والذي ورد خاصاً بتفسير هذه الآية .

(٣) الدر المنثور ١/٢٠٩.

الخامس : ثقل آيات القرآن ودلالاتها على المنافقين إذ أنهم يحضرون الصلاة مع النبي ، وقد يخرجون معه للدفاع ، ولكنهم يثبون الأراجيف في المدينة ويظنون أن المسلمين لا يعلمون بمكرهم وخبثهم ، فنزل القرآن بفضحهم وما يقومون به ، قال تعالى ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

ويمكن إنشاء قانون وهو كل فضح للمنافقين في القرآن والسنة معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

لقد كان دفع شرور الكافرين والمنافقين مجتمعين ومتفرقين شاهداً على صدق نزول القرآن من عند الله ، إذ كان ثقيلاً عليهم ، وكان كل واحد من المنافقين يخشى أن تنزل آية من القرآن تذكره بالاسم وتفضحه .

وهل فيه نوع طريق لتوبتهم ، الجواب نعم ، وهو من أسرار عدم تقييد التوبة بالإذن من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو من الصحابة أو العلماء .

فالتوبة باب فتحه الله عز وجل لجميع الناس ، وهل تكفي التوبة القلبية .

الجواب نعم مع وجود المانع من إظهارها كالتقية والخشية من الظالمين ، ليكون من معاني إخبار الله عز وجل عن علمه بما تخفي الصدور ومنه قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٢) علمه تعالى بانابة العبد وميله إلى التوبة على نحو التدرج أو دفعة .

(١) سورة الفتح ٦.

(٢) سورة غافر ١٩.

وهل في نزول القرآن نجوماً ترغيب للناس بالتوبة وإنتقال بعض الناس إلى مقامات الهدى والرشاد وعلى نحو التدريج أو دفعة ، الجواب نعم ، وهو من أسرار قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١) .

السادس : جاء القرآن بالأمر بالدفاع ، قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢) .

ليدل بالدلالة التضمنية على أن المشركين سيهجمون على المدينة ويطلبون المبارزة ويصرون على القتال .

ومع خسارتهم في المبارزة فانهم يكررون الهجوم والغزو لذا أمر الله عز وجل المسلمين بالثبات لهم في ميدان المعركة ، وحرمة الفرار من أمام المشركين ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأُدْبَارَ﴾ (٣) واللقاء نوع مفاعلة ، ويدل على الحضور لدى الغير .

وتدل السنة النبوية على أن المراد من الآية أعلاه دفاع المسلمين ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرؤن لعلكم ستبلون بهم وسلوا الله العافية ، فإذا جاءوكم يبرقون ويرجفون ويصيحون فالأرض الأرض جلوساً ثم قولوا : اللهم ربنا وربهم نواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ، فإذا دنوا منكم فثوروا إليهم واعلموا أن الجنة تحت البارقة) (٤) .

(١) سورة القصص ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ١٩٠ .

(٣) سورة الأنفال ١٥ .

(٤) الدر المنثور ٤/٤٦٣ .

قانون إستقراء المسائل من التشابه اللفظي في القرآن

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحث أصحابه على الإكثار من ذكر الله حتى ساعة الوفاة ، وفيه شاهد بأنه لم يحثهم على القتال ، إنما كان يؤدبهم على التقوى وذكر الله ، و(عن معاذ بن جبل قال: إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن قال لي : أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل) ^(١).

وهل هذا الذكر تخفيف من وطأة ثقل التكليف ، الجواب نعم ، وهو شاهد على تلقي ثقل التنزيل بالإمثال وأداء الفرائض وعمل المستحبات ، فيكون ثقل التنزيل رحمة بالمسلمين والناس .

ومن التشابه اللفظي مثلاً ورود لفظ (ثقيلًا) مرتين في القرآن ، ليكون تقدير قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِيْكَ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً﴾ ^(٢) على وجوه :

الأول : انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً يكون سلاحاً وواقية يوم القيامة .

الثاني : القرآن ثقل في الميزان برجحان كفة قراءته وأجره والعمل بمضامينه القدسية .

الثالث : ثقل لأنه من بطنان العرش .

الرابع : القرآن ثقل لأنه أمانة الله في الأرض ، قال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا

الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ^(٣).

الخامس : ثقل التكليف التي في القرآن من الصلاة والصوم والزكاة والحج والخمس .

(١) مختصر تأريخ دمشق ٢٣٩/٢.

(٢) سورة المزمل ٥.

(٣) سورة الأحزاب ٧٢.

السادس : ثقل و طأة نزول القرآن وتبليغه على الكفار والمنافقين ، قال تعالى ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(١) .

السابع : القرآن ثقیل في نزوله لأنه كلام الله ، فلم يسمع قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والناس ولن يسمعو بعده مثله إلى يوم القيامة ، ليكون من معاني مثله في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) أي مثل ثقل ووطأة وعظمة آيات القرآن .

الثامن : إرادة قانون من الإرادة التكوينية وهو ثقل كلام الله عز وجل .
التاسع : القرآن قول ثقیل لا يطاق تلقيه إلا بمدد من عند الله اختص به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليكون من مختصات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومن معجزاته تلقي القول الثقيل والوحي من عند الله عز وجل .

العاشر : ثقیل على الكفار فيرمونه بأنه سحر ، لذا ورد بعد هذه الآية قوله تعالى ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَبِيلًا﴾^(٣) .

الحادي عشر : القرآن قول ثقیل ويبقى في الأرض إلى يوم القيامة ليكون قوله تعالى ﴿سَنُلْقِيْ عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيْلًا﴾^(٤) بشاراً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ونوع تحد لكفار قريش .

(١) سورة الأحقاف ٧.

(٢) سورة البقرة ٢٣.

(٣) سورة المزمل ١٠.

(٤) سورة المزمل ٥.

الثاني عشر : قول ثقيل يسلم من المعارضة ومن التحريض ، ولا يقدر أحد على الزيادة فيه أو النقيصة منه ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١).

الثالث عشر : يحمل القرآن صفة الثقل معنى الحقيقة ، والمجاز العقلي بمعنى الشدة والماهية وحال التلقي له والعمل بأحكامه بأطلاق اللازم وإرادة الملزوم .

الرابع عشر : القرآن قول ثقيل يتعارض مع الإرهاب ويمنع منه ، ويفضحه وأهله .

الخامس عشر : القرآن ثقيل لأنه حق يتضاد مع أهل الأهواء والشهوات ، وهو الذي يبقى في الأرض .

السادس عشر : القرآن ثقيل على الذين كفروا ، وهو أكثر ثقلًا ونفعًا وأثرًا من السيف ، فمع نزول آيات القرآن لا تصل النوبة إلى الغزو ، ومن الآيات أن القرآن ثقيل ، ولم يرد فيه لفظ السيف للدلالة على الإكتفاء بالآيات والإستغناء عن السيف في الدعوة الى الله ، وصرف أذى الذين كفروا .

السابع عشر : ثقل القرآن ليس كثقل المطر والبرد النازل من السماء ، لذا لم يقل الله (انا سننزل عليك قولاً ثقيلاً) إنما قال سبحانه ﴿إِنَّا سَنُلْقِيْكَ عَلَيْهِمْ قَوْلًا ثَقِيلاً﴾^(٢).

أي أن القرآن ثقيل وأن جاء بالوحي من قبل الملك وإن كان بجانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن عمر بن الخطاب قال (بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل

(١) سورة فصلت ٤٢.

(٢) سورة المزمل ٥.

شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ثم قال :

يا محمد أخبرني عن الاسلام قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت إليه سبيلا.

قال صدقت فعجبنا إليه يسأله ويصدقه ثم قال أخبرني عن الايمان. قال أن تؤمن بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كله خيره وشره قال صدقت قال فأخبرني عن الاحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال فأخبرني عن الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم بها من السائل.

قال فأخبرني عن أماراتها قال أن تلد الامة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان قال عمر فلبيت ثلاثا ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي عمر هل تدري من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فإنه جبريل عليه السلام أتاكم ليعلمكم أمر دينكم صفة الايمان^(١).

ويختلف نزول القرآن عن مضمون الحديث أعلاه الذي هو من الوحي وإخبار الملك ، أما القرآن فكان إذا نزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثقل عليه ، وتصيب عرقاً في اليوم شديد البرودة (كان إذا أنزل عليه الوحي تربد لذلك وجهه حتى يجد برودة فإذا سري عنه عاد وجهه أبيض كالقلب ، ثم تكلم بما أمر به)^(٢).

الثامن عشر : بيان قانون وهو من أسماء القرآن القول الثقيل .

(١) النسائي / السنن الكبرى ٥٣٨/٦.

(٢) الدر المنثور ٤٣٤/٩.

التاسع عشر : القرآن ثقيل لابد أن يقرأ بتمهل وتبيان وتدبر .
العشرون : القرآن قول ثقيل هو الذي ينفع في اليوم الثقيل وهو يوم
 القيامة ، قال تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا
 ثَقِيلًا﴾^(١).

الحادي والعشرون : توالي نزول القرآن من مصاديق ثقل القرآن.
الثاني والعشرون : القرآن كلام الله فهو قول ثقيل ليس من كلام البشر.
الثالث والعشرون : لقد أكرم الله عز وجل كلامه وسمّاه (قولاً ثقيلاً).
الرابع والعشرون : ثبوت وثقل القرآن في كل بقعة وبلدة من بلدان
 وأمصار الأرض ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَكَلِّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا
 فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) ويكون تقدير الآية أيضاً : فainما تولوا فثم
 كلام الله كونه قولاً ثقيلاً).

الخامس والعشرون : القرآن قول ثقيل لما فيه من الأمر للنبي محمد
 صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بالهجرة من مكة وسيأتي قانون هجرة
 النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الإرهاب.
 ومن ثقل القرآن نزول آية الهجرة وهو قوله تعالى ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ
 اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ
 هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٣).

(١) سورة الانسان ٢٦.

(٢) سورة البقرة ١١٧.

(٣) سورة التوبة ٤٠.

ومن الإعجاز أن ﴿ثَقِيلًا﴾ لفظ لم يرد في القرآن إلا مرتين أحدهما في الآية أعلاه والأخرى في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾^(١) لبيان نكتة وهي معرفة منافع ثقل وطأة نزول القرآن بلحاظ ثقل يوم القيامة ومواطن الحساب.

فمن بديع صنع الله الصلة بين عالم الدنيا والآخرة وصيرورة الدنيا مرآة للآخرة ، وفي التنزيل في أهل الجنة ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٢). لبيان أن ثقل يوم القيامة رحمة للمؤمنين مثلما هو ثقل القرآن ونزوله على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

فمن إعجاز القرآن دلالة التشابه اللفظي فيه على الأحكام وبيانه المسائل من علم الفقه والكلام والاجتماع .

فبعد أن وصفت آية أن القرآن قول ثقیل ذكرت آية قرآنية أخرى لفظ ﴿ثَقِيلٌ﴾ بخصوص عالم الحساب وطوله وشدة مواطنه (وعدد كلمات القرآن على ما روى ابن مسعود سبع وسبعون ألفا وتسعمائة وأربع وثلاثون)^(٣).

السادس والعشرون : القرآن قول ثقیل لأنه يأمر بالعدل والإنصاف وينهى عن الظلم والجور ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

(١) سورة الإنسان ٢٧.

(٢) سورة البقرة ٢٥.

(٣) الكرمي / الناسخ والمنسوخ ٢٣٩/١.

وَإِتِّبَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾.

لقد جعل الله عز وجل الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) ومن شرائط خلافته الحكم بالعدل وإجتنباب الظلم والذي لا يختص بالحكم بل يأتي حتى على نحو القضية الشخصية ، فهو نوع مفاعلة ، فالعدل من صفات الحكم والقضاء في الغالب .

أما الظلم ففيه أطراف :

الأول : ظالم .

الثاني : موضوع الظلم .

الثالث : المظلوم .

الرابع : مقدار ونوع الظلم ، لأن الظلم من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً .

سرية أبي سلمة إلى قطن

لقد انتهت معركة أحد في يوم واحد وهو الخامس عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة النبوية ، وهو اليوم الذي بدأت فيه ، وفي اليوم التالي خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى حمراء الأسد وأمضى خمسة أيام في الطريق والإقامة في حمراء الأسد ثم عادوا إلى المدينة بنزول القرآن في الثناء عليهم .

واجتهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في الصلاة والدعاء ، وصاروا يداوون جراحاتهم ، فجاءهم رجل إسمه (الوليد بن زهير بن طريف عم زينب الطائية وكانت تحت طليب بن عمير فنزل الطائي عليه

(١) سورة النحل ٩٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

فَأَخْبَرَهُ فَذَهَبَ بِهِ طَلِيبٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَ خَبَرَ بَنِي أُسَدَ وَمَا كَانَ مِنْ هُمُومِهِمْ بِالْمَسِيرِ. وَرَجَعَ مَعَهُمُ الطَّائِي دَلِيلًا وَكَانَ خَرِيتًا، فَسَارَ بِهِمْ أَرْبَعًا إِلَى قُطْنٍ^(١).

لقد أخبر الوليد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسدي جمعا حلفاء من بني أسد وغيرهم يريدون حرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإغارة على المدينة ، ولم يكن للمدينة يومئذ سور ، وهي إلى الآن بلا أسوار في شاهد على أنها حرم رسول الله وأنها محفوظة بفضل ورحمة الله.

وهل هذا الحفظ من مصاديق قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٢)، الجواب نعم فيما يخص أيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما بعدها بقوله تعالى ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٣).

ولم يكتف هذا الطائي بالإعراض عن الذين تجهزوا لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقف عند إخبار الصحابة بل توجه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره شخصياً بأن القوم تمالوا عليه للدلالة على خطورة الأمر ، وأن القوم أكملوا الخطط والتجهيزات للإغارة على المدينة. وهل تصديق النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخبر هذا الرجل من الشواهد على الأخذ بخبر الواحد وأنه حجة يوجب العلم ، الجواب لا ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعمل بالوحي ، ولوجود أمانة على قصد الكفار التعدي والهجوم.

وغايات تجهيز السرية أعم من موضوعها فقد ينتفع منها في غير موضوع الذين تتوجه إليهم.

(١) مغازي الواقدي ٣٤٤/١.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

(٣) سورة يوسف ٦٤.

وكل سرية خرجت من المدينة من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(١)، وطليحة بن خويلد الأسدي ممن شهد مع الأحزاب معركة الخندق، ثم قدم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة تسع للهجرة ودخل الإسلام، ثم ارتد عن الإسلام في أيام أبي بكر، وكانت له وقائع مع المسلمين وقتل عدداً من الصحابة ثم انهزم (فهرب حتى لحق بدمشق ونزل على آل جفنة، ثم أسلم وحسن إسلامه، وقدم مكة حاجاً أو معتمراً، وخرج إلى الشام مجاهداً، وشهد اليرموك وبعض الحروب).

قال ابن سعد: في الطبقة الرابعة، كان يعد بألف فارس لشدة وشجاعته وبصره في الحرب، انتهى. ولم يغمس عليه في دينه شيء، واستشهد بنهاوند سنة إحدى وعشرين مع النعمان بن مقرن وعمرو بن معدي كرب.

حدث ابن وهب قال، قال مالك بن أنس: إن طليحة تنبأ فلما تشامى القتال أتاه عيينة بن بدر فقال له: جاءك جبريل بعد، فقال: لا. ثم عاد إليه فقال: هل أتاك جبريل، فقال: لا، فعاد إليه مراراً كل ذلك يقول: لا.

فقال له عيينة: لقد تركك عندما كنت أحوج إليه.

ثم قال: من كان ها هنا من بني عامر فليرجع، فقال له طليحة: قاتلوا على أحسابكم، فأما دين فلا دين. قال: ثم إن طليحة أسلم وحسن إسلامه، وكان قد لحق بالروم.

وكتب عمر إلى عامله أن استشر طليحة الأسدي وعمرو بن معدي كرب في الحروب ولا تستشرهما في غيره، انتهى.

وكان طليحة واخوة سلمة قد قتلا الصحابي عكاشة بن محصن الأسدي.

ثم لحق طليحة بالشام فكان عند بني جفنة، ثم قدم مع الحاج المدينة مسلماً، فلم يعرض له أبو بكر، ثم قدم زمن عمر فقال له عمر: أنت قاتل الرجلين الصالحين يعني ثابت بن أقرن وعكاشة، قال: لم يهني الله بأيديهما وأكرمهما بيدي^(١).

وقال (زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدي أسد خزيمة. كان من ساداتهم وثبت على إسلامه حين ظهر طليحة بن خويلد ورد على طليحة في خطبة طويلة وشعر يقول فيه:

لهفي على أسد أضل سبيلهم ... بعد النبي طليحة الكذاب)^(٢). ويدل الخبر الذي وصل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه بقيام طليحة بجمع الجيوش للإغارة على المدينة على تجراً بعض الكفار من رجال القبائل على التعدي والإغارة على المدينة بعد معركة أحد من جهات:

الأولى: زحف كفار قريش إلى المدينة واطلالتهم عليها للقتال .
الثانية: عدم تعرض كفار قريش للهزيمة في معركة أحد ، مما أغرى بعض المشركين بالهجوم على المدينة ، لبيان مسألة وهي أن خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد مانع لكثير من المشركين من التجراً والتعدي والهجوم على المدينة .

ولم يترك النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خبر جمع طليحة الجيوش ، أو يبطئ في أمره بل أرسل على أبي سلمة ليكون أمر السرية التي تتوجه إلى طليحة وأصحابه ، وفيه دلالة على أن السرايا التي يبعثها

(١) الوافي بالوفيات ٢٩٩/٥.

(٢) الإصابة في معرفة الصحابة ٤٠٣/١.

النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن للهجوم والغزو ، ولم يبعثها النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكان مخصص إبتداءً ، إنما بعثها لدفع ضرر وأذى .

وأبو سلمة هو عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشي المخزومي ، واسلم في مكة بعد عشرة من أهل البيت والصحابه ، وهاجر هو وزوجته أم سلمة إلى أرض الحبشة (قال مصعب الزبيدي: أول من هاجر إلى أرض الحبشة أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم شهد بدرًا) ^(١).

وأبو سلمة أخو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحمزة بن عبد المطلب من الرضاعة ، أرضعتهم ثوية مولاة أبي لهب ، وأرضعتهم على التوالي :

الأول : حمزة بن عبد المطلب .

الثاني : رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : أبو سلمة وأخى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين أبي سلمة وبين سعد بن خيثمة الأنصاري .

وأبو سلمة أبن عمه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم برة بنت عبد المطلب .

وبعد أن هاجر إلى الحبشة عاد منها إلى مكة عندما بلغهم إسلام قريش ، وعندما وصل إليها هو وعثمان بن مظعون تبين عدم صحة الخبر فأجاره خاله أبو طالب بن عبد المطلب ، ثم عاد أبو سلمة إلى الحبشة ، وكان أبو سلمة عبد الله بن الأسد المخزومي قد اسلم في وقت واحد هو وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث والأرقم بن أبي الأرقم ، أي أن إسلامه قبل أن يدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم .

وحينما خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كتيبة العشيرة في السنة الثانية للهجرة استخلفه على المدينة .

وشهد أبو سلمة معركة بدر ، وكان حاضراً عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عندما جاء عبد الله بن مسعود بسلاح ودرع أبي جهل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ وجد أبا جهل في آخر رمق . فقال عبد الله بن مسعود (الحمد لله الذي أخزأك! قال: إنما أخزى الله عبد ابن أم عبد ! لقد ارتقيت مرتقي صعباً يا رويحي الغنم، لمن الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله.

قال ابن مسعود: فأقتلع بيضته عن قفاه، فقلت: إنني قاتلك يا أبا جهل! قال: لست بأول عبد قتل سيده! أما إن أشد ما لقيته اليوم في نفسي لقتلك إياي، ألا يكون ولي قتلي رجل من الأحلاف أو من المطيبين! فضربه عبد الله ضربة، ووقع رأسه بين يديه، ثم سلبه، فلما نظر إلى جسده، نظر إلى حصره كأنها السياط. وأقبل بسلاحه، ودرعه، وبيضته، فوضعها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال: أبشر، يا نبي الله بقتل عدو الله أبي جهل! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحقاً، يا عبد الله؟ فوالذي نفسي بيده، لهو أحب إلى من حمر النعم أو كما .

قال: وذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم ما به من الآثار، فقال: ذلك ضرب الملائكة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد أصابه جحش من دفع دفعته في مأدبة ابن جدعان، فجحشت ركبته. فالتمسوه فوجدوا ذلك الأثر.

ويقال إن أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي كان عند النبي صلى الله عليه وسلم تلك الساعة، فوجد في نفسه وأقبل على ابن مسعود فقال: أنت قتلتني؟ قال: نعم، الله قتله .

قال أبو سلمة: أنت وليت قتله؟ قال: نعم. قال: لو شاء لجعلك في كفه. فقال ابن مسعود: فقد والله قتلتته وجردته. قال أبو سلمة: فما علامته؟ قال: شامة سوداء بيطن فخذة اليمنى.

فعرف أبو سلمة النعت، وقال: جردته! ولم يجرد قرشي غيره! قال ابن مسعود: والله، إنه لم يكن في قريش ولا في حلفائها أحد أعدي لله ولا لرسوله منه، وما أعتذر من شيء صنعت به. فأسكت أبو سلمة، فسمع أبو سلمة بعد ذلك يستغفر من كلامه في أبي جهل.

وفرّح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل أبي جهل، وقال: اللهم، قد أنجزت ما وعدتني، فتمم على نعمتك! وقال: قال ابن مسعود يقولون: سيف أبي جهل عندنا، محلى بفضة، غنمه عبد الله بن مسعود يومئذ. فاجتمع قول أصحابنا أن معاذ بن عمرو وابني عفراء أثبتوه، وضرب ابن مسعود عنقه في آخر رمق، فكلّ قد شرك في قتله. ^(١)

وشهد أبو سلمة معركة أحد وجرح في عضده وعاد إلى منزله، وكان نازلاً في بني أمية بن زيد بالعالية بعد أن تحول من قباء ومعه زوجته أم سلمة بنت أبي أمية.

ولما سمع بخبر خروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمراء الأسد (ركب حماراً وخرج يعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه حين هبط من العصابة بالعقيق، فسار مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حمراء الأسد).

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة انصرف مع المسلمين ورجع من العصابة، فأقام شهراً يداوي جرحه حتى رأى أن قد برأ، ودمل الجرح على بغني لا يدري به ^(٢) وبعد أن عاد أبو سلمى من

(١) مغازي الواقدي ٣٣/١.

(٢) مغازي الواقدي ١٣٠/١.

حمراء الأسد انتفض علي جرحه ، وتوفى في الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث من الهجرة .

وحينما حضرته الوفاة قال (اللهم اخلفني في أهلي بخير، فأخلفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على زوجته أم سلمة فصارت أماً للمؤمنين وصار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ربيب بنيه: عمر وسلمة وزينب) ^(١) ، لتفوز بمرتبة أم المؤمنين ، قال تعالى ﴿النَّبِيِّ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ^(٢).

ودعا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أبا سلمة وقال له : أخرج في هذه السرية فقد استعملتك عليها ، عقد له لواء ، وبعث معه مائة وخمسين من الصحابة ، وأوصاهم بتقوى الله ، وفيه شاهد على عدم التعجيل بالقتال .

إذ كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوصي أمراء السرايا بعدم البدء بالقتال ، ولأن الغاية من السرية ليس الحرب والإغارة والقتال ، إنما تفريق الجموع التي تريد أن تهجم وتغير عن المدينة المنورة .

فسار أبو سلمة نحو ابني خويلد والجموع التي معها ففرقوا وسارعوا إلى الهروب والفرار ، وتركوا خلفهم أنعاماً كثيرة من الإبل والغنم ، فأخذها أبو سلمة مع ثلاثة مماليك لهم .

ولم يلحق المسلمون الذين جمعوا الجموع ، ولم يطاردوهم ويقتلون عدداً منهم ويؤسرون آخرين ، إنما إنقلبوا عائدين إلى المدينة مما يدل بالدلالة الإلتزامية على مسائل :

(١) الإستيعاب ٢٨٦/١ .

(٢) سورة محمد ٢٥ .

الأولى : علم أبي سلمة وأصحابه بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يلومهم على سرعة المجئ وعدم مطاردة الذين كفروا .

الثانية : إنتفاء الطمع وحب الإستيلاء على الغنائم وأسْر جماعة ثم المطالبة بالبدل والعوض ، إنما كان أسرى في معركة بدر لأنهم أصروا على القتال وهم الذين بدأوا المعركة.

الثالثة : لم تكن سرية أبي سلمة للقتال مع شدة التحدي بجمع الجيوش ، فاكثفوا بتفرقهم ، وقال ابن كثير أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي سلمة (سر حتى تأتي أرض بنى أسد فأغر عليهم، وأوصاه بتقوى الله)^(١).

وعلى فرض صحة هذا القول فإن الوقائع تدل على أن المراد من الإغارة تفريق الجموع ، وتؤكد مبادرة أبي سلمة وأصحابه على الرجوع والإكتفاء بتفريق جموع المشركين على التسالم بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يطلب منهم الغزو ، ولم يرضه لهم .

ومن الآيات أن طليحة هذا أسلم ثم ارتد ثم أسلم وجاهد واستشهد . لقد قام أبو سلمة بتقسيم أصحابه إلى ثلاث فرق ليس للقتال ، ولكن فرقة معه وفرقتين (في طلب النعم والشاء فأبوا إليه سالمين قد أصابوا إبلًا وشاء ولم يلقوا أحدا)^(٢).

أي أنه لم يسع إلى القتال ، ترى لماذا أخذ الإبل والغنم . الجواب لمنع المشركين من جمع الحشود مرة أخرى للإغارة على المدينة ، إذ يتخذون الغنم لإطعام الجنود والإبل للركوب والإغارة وللإطعام والإنفاق وحمل الأثقال.

(١) السيرة النبوية لابن كثير ١٢١/٣.

(٢) عيون الأثر ٨/٢ .

وكان من عادة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن الذين يلحقون أنعامهم وسبيهم ويدخلون عليه يعيد عليهم ما أخذ منهم حتى وإن لم يسلموا .

لقد بقي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد معركة أحد وكتيبة حمراء الأسد في المدينة مدة وهي :

الأول : بقية شهر شوال .

الثاني : شهر ذي القعدة .

الثالث : شهر ذي الحجة .

الرابع : شهر محرم ، فجاءه الخبر بهذا الشهر أن طليحة وسلمة ابني خويلد جمعا قومهما ثم صاروا يسيرون في بني أسد بن خزيمة إلى الحرب والهجوم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وتسمى هذه السرية أيضاً سرية أبي سلمة إلى ذي قطن ، وهو ماء لبني أسد.

وهل كانت سرية أبي سلمة حاجة ، الجواب نعم ، من جهات :

الأولى : إنها حاجة للمسلمين والمسلمات .

الثانية : لزوم تعاهد أمن المدينة ودفع المخاطر عنها .

الثالثة : إنها حاجة لأهل الكتاب من اليهود الذين كانوا في المدينة .

الرابعة : صرف شرور الحشود التي تسعى في الهجوم على المدينة ،

قال تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴿١﴾

لقد أراد طليحة بشجاعته المعهودة وفروسيته وأصحابه الإغارة على المدينة بعد معركة أحد التي وقعت في شوال من السنة الثالثة للهجرة والظاهر أن المنافقين أشاعوا أخباراً وأراجيف بأن المسلمين في حال ضعف ، فنزل قوله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾^(١) فخرجت سرية أبي سلمة نحو قطن ماء وديار طليحة وأخيه سلمة وحلفائهم الذين اجتمعوا على الإغارة على المدينة .

وأختار أبو سلمة تعجيل السير واتخذ طريقاً فرعياً ليصل إليهم قبل أن يبلغهم خبره لمنع استعدادهم لقتاله .

ليان قانون وهو إتصاف منهاج كتائب وسرايا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأمور :

الأول : الخطط التي تدفع القتال.

الثاني : الإجهاد في السير والعمل وهو من الشواهد على حسن امثالهم لأمر الله .

الثالث : الحرص على اجتناب سفك الدماء ، مما يدل على أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأمر السرايا بالغزو ، وكان يأمرهم بالإمتناع عن إشاعة سفك الدماء ، وهو من مصاديق رد الله عز وجل على الملائكة عندما أخبرهم عن خلق آدم وصيرورة الإنسان ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) إذ ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنْ أَعْلَمْتُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٣٩.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

فمن علم الله عز وجل أنه بعث النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يبعث السرايا لتفريق جمع المشركين الذين يعدون العدة لقتاله ، مما يدل على صدق نبوته صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو لم يؤمر أو يأمر بقتل الذين يريدون قتله واستباحة المدينة ، إنما كان يكتفي بتفريقهم لأنه يثق بفضل الله بالسلامة وبهداية الناس للإيمان.

نتائج سرية أبي سلمة

لقد خرج أبو سلمة بلواء الزجر إلى المشركين والوقاية من هجومهم وإغارتهم على المدينة .

لقد ابتدأت السنة الرابعة للهجرة بخروج هذه السرية في محرم لتكون تأديباً للقبائل من التعدي والهجوم على المدينة المنورة .

ومن الإعجاز في النبوة اقتران هذا التأديب طوعاً وقهراً بالدعوة إلى التوبة والإيمان ، قال تعالى ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١).

وعاد أبو سلمة وأصحابه ، وأخرج صفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عبداً من الثلاثة الذين أصابوهم ، ووزع على أصحابه الإبل فأصاب كل واحد منهم سبعة أبعرة ، وإذا كان معه مائة وخمسون من الصحابة فيكون مجموع الإبل (١٠٥٧) عدا الخمس وما أعطاه أبو سلمة للطائي الدليل إذ (أجزل له وارضاه)^(٢).

وذاات السهم أصاب كل مسلم في يوم قرقرة الكدر عندما قسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم النعم كما سيأتي بيانه إن شاء الله^(٣).

(١) سورة المائدة ٣٩.

(٢) أنظر مغازي الواقدي ٣٤١/١.

(٣) البداية والنهاية ٣٢١/٥.

وهل كانت قريش تخطط لتحريض القبائل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الجواب نعم ، ومن هذا التحريض سيرهم إلى معركة أحد ، وتحشيد القبائل معهم ، وعندما عادت قريش من معركة أحد أظهروا النصر والغلبة في المعركة لتهييج القبائل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن سعوا للإلتقاض على المدينة كل من :

الأول : طوائف من بني أسد بن خزيمة .

الثاني : قبائل عضل والقارة .

الثالث : بنو عامر .

الرابع : غطفان .

الخامس : بنو النضير .

لذا كانت سرية أبي سلمة حاجة لزجر الناس عن الهجوم على المدينة ، وللمنع من القتال والغزو ، فكان طليحة بن خويلد يعد بألف فارس ، فحينما سمعت القبائل بأنه وأخاه سلمة وقومهما ومن حالفهم انهزموا أمام مائة وخمسين من الصحابة صرفت مسألة الإغارة على المدينة . وقال الواقدي في أحد قولين له (عدداهم مائة وخمسة وعشرون رجلاً) ^(١) ولكنه ذكر في موضع آخر من كتابه أنهم مائة وخمسون فاستولوا على أموالهم وأفعالهم من غير قتال فإنزجرت تلك القبائل ، وصرفت الفكر عن غزو المدينة .

ومن أفراد سرية أبي سلمة :

الأول : أبو سبرة بن أبي رهم وهو أخو أبي سلمة لأمه أمه برة بنت عبد المطلب .

الثاني : عبد الله بن سهيل بن عمرو .

الثالث : عبد الله بن مخزومة العامري .

الرابع : معتب بن الفضل بن حمراء الخزاعي حليف في بني مخزوم .

الخامس : أرقم بن أبي الأرقم من بني مخزوم .

السادس : أبو عبيدة بن الجراح .

السابع : سهيل بن بيضاء .

من الأنصار

الثامن : أسيد بن الحضير .

التاسع : عباد بن بشر .

العاشر : أبو نائلة .

الحادي عشر : أبو عبس .

الثاني عشر : قتادة بن النعمان .

الثالث عشر : نضر بن الحارث الظفري .

الرابع عشر : أبو قتادة .

الخامس عشر : أبو عياش الزرقني .

السادس عشر : عبد الله بن زيد .

السابع عشر : خبيب بن يساف^(١) .

وقد انكشفت الحقائق وأن قريشاً لم ينتصروا في معركة أحد مع أن عددهم ثلاثة آلاف رجل خاصة وأن كل قبيلة تعجز بمفردها عن جمع نصف هذا العدد وكان رؤساء القبائل يتصفون بالحنكة والتخطيط للقتال والمكر في الغزو ، فأدركوا أن لا سبيل للإغارة على المدينة وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم يبلغ جمعهم حالما يقومون بالإعداد للغزو ، فيبادر إلى تفريق جمعهم والإستيلاء على أنعامهم لمنعهم من إعادة الكرة للعزم على الهجوم على المدينة .

(١) أنظر مغازي الواقدي ١/١٣٠.

وهو من عمومات قوله تعالى ﴿فَإِمَّا تَقِفْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ (١).

لقد كان جرح أبي سلمة في عضده فداواه مدة شهر والشم ، ولكنه عاد وأنفض عليه ، وهل يحتمل أن السيف الذي ضرب به كان مسموماً ، الجواب لا ، إذ كان العرب يعرفون أثر السم في الضربة ومحلها ، ولم يشيروا إليه ، ثم أن المشركين كانوا يضربون من أجل القتل .

لقد حققت سرية أبي سلمة الغاية منها بأن امتنعت القبائل عن الاجتماع والتحشيد لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ولم يعد لتحريض قريش في المقام شأن خاصة وأن أموالهم أصابها النقصان وتجارتهم البوار ، وتناقص عدد القوافل التي يسيرونها إلى الشام واليمن ، وحتى لو خرجت قافلة فان تكاليفها تزداد عليهم بكثرة الحراس والرجال والعبيد الذين يرافقونها مع الخوف في الطريق ، وتلمس الوقت والطريق المناسب لمسيرها إلى جانب ارتفاع الأسعار لتباطئ قريش بايفاء ديون تجار الشام.

ومن نتائج هذه السرية صيرورة أهل المدينة في أمان ، فقد كان بعض المنافقين يشيع بأنه مع مجئ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ساد القتل والخوف والحروب ، بينما كان أهلها في أمان ، فجاءت سرية أبي سلمة أماناً وسكينة لهم .

وما أن مرت بضعة سنوات حتى توافد الملوك والأمراء والوفود على المدينة ليعلموا اسلامهم ، وليتزودوا برؤية الطلعة البهية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويحملوا معهم الهدايا مع تعاقب الغنائم على المدينة ، وبعد إنتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى صار

المسلمون والمسلمات يقدون إلى المدينة لزيارة مسجد وقبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والسلام عليه .

لقد تم خروج سرية أبي سلمة بالوحي ، وكذا إختيار أبي سلمة نفسه فقد أحسن القيادة ، ولم يبطش أو يقتل ولم يطارد القوم بل اكتفى بتفريقهم ، وهل أوصاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإكتفاء بتفريق وتشتيت جمع المشركين ، أم أنه اجتهد وتسامح منه ، الجواب هو الأول ، فمن الإعجاز في وصايا النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأمرء السرايا أنها تدل على قانون وهو كأن النبي حاضر معهم ، وتبين أنه على علم بما سيحدث في ميدان المعركة ، وهو من عمومات ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

وإذا كان طليحة بن خويلد وحده يعد بألف فارس ، فلماذا لم يثبت وأصحابه أمامه سرية أبي سلمة ، الجواب إنه من مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

ولنصر المسلمين في معركة بدر وعدم هزيمتهم في معركة أحد موضوعية في ملاقاته الذين كفروا لهم بالفرار واجتناب ملاقاتهم .
وهل من موضوعية لدعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الناس للإسلام ، ونزول آيات القرآن في هذا الفرار ، الجواب نعم .
ليكون نزول الآية القرآنية مدداً للمسلمين من جهات :
الأولى : بعث المسلمين على التحلي بالصبر .

(١) سورة النجم ٢-٣.

(٢) سورة آل عمران ١٥١.

الثانية : تنمية ملكة الإيمان ، وتعاهد التقوى ، لقد كان الكفار يحاربون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، وكان المنافقون ييثون الدعايات الخبيثة والأكاذيب ، وما أن يخرج الصحابة في كتيبة أو سرية حتى يعلن المنافقون أنهم قتلوا أو سيقتلون .

ويقوم المنافقون بتوجيه اللوم إلى عوائلهم ﴿لَوْ كُنَّا عِنْدَ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لَيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(١) وهناك مسألتان :

الأولى : هل كان هناك بعض نساء الصحابة منافقات .

الثانية : هل كانت بعض أزواج المؤمنات منافقين ، الجواب لم يرد دليل على هذا المعنى والأصل البراءة ، وإن وجد فلن يستمر إذ توالى نزول آيات القرآن في ذم المنافقين والآيات التي تبين معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

كتيبة حمراء الأسد فرع معركة أحد

لقد كانت كتيبة حمراء الأسد فرعاً لمعركة أحد وملحقة بها ، وكانت نوع تدارك لما أصاب المسلمين من الخسائر ، فقد عاد المشركون من معركة أحد وهو يظهرون تحقيق النصر ومع الإبتعاد عن ساحة المعركة وتدبرهم في وقائعها صار عامة أفراد الجيش يتجاهرون بأن غزوتهم للمسلمين لم تحقق أيّاً من أغراضها فلم يقتلوا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ولم يستأصلوا الإسلام ، ولم يؤسروا اثنين أو أكثر من المسلمين ، بينما وقع سبعون من المشركين أسرى في معركة بدر ، وفي يوم واحد وهو السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة.

وندم المشركون على الانسحاب من معركة أحد في ذات اليوم وأرادوا إعادة الكرة على المدينة ، فبلغهم وهم في الروحاء خروج النبي محمد صلى

الله عليه وآله وسلم وأصحابه خلفهم يريدون الثأر منهم ، وقد خافت قريش من أمور:

الأول : الإنهزام أمام المسلمين في الروحاء.

الثاني : استحضار المشركين لواقعة بدر وسقوط سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً منهم.

الثالث : إنقلاب شطر وطائفة من جيش المشركين على رؤسائهم فمن خصائص العقل العام إنكاره للظلم ، واستهجانته للتعدي ، وهو من معاني قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١).

الرابع : وجود عدد من المسلمين في جيش المشركين ، وفي أية ساعة يظهرون إمتناعهم عن الإنقياد لرؤساء الجيش ، أو الإنقلاب عليهم.

الخامس : خشية رؤساء قريش من زعماء القبائل والحلفاء الذين معهم ، فهؤلاء قد لا يرضون بالرجوع إلى غزو المدينة ، كما أن هذا الغزولن يتحقق لورود الأخبار بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه خرجوا خلفهم ، ويحرص هؤلاء الزعماء على سلامتهم وسلامة رجالهم من القتل ، مع كثرة المرتزقة المستأجرين في جيش الكفار وهم يحسبون أن عملهم انتهى بدخول معركة أحد .

السادس : كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ينادي وسط الميدان في معركة أحد (قولوا لا إله الا الله تفلحوا) وهو قول ينفذ إلى شغاف القلوب فرجع فيه أفراد جيش المشركين إلى أهلهم .

وهل هو غنيمة الجواب نعم ، وهو موعظة وترغيب بالإيمان ، وزجر عن العودة لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ورب كافر ناقل للإيمان الى غيره .

السابع : رؤية جيش المشركين لمسائل منها معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وهل سلامته يومئذ معجزة له ، الجواب نعم ، لأن القتل كان قريباً منه ، وجاء المشركون من مكة وهم عازمون على قتله ، ثم صاروا قريبين منه وتصله حجارته ، وحددوا مكانه ، إذ أنه لم يفر ولم يتراجع ، ومع هذا عجزوا عن قتله ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾^(١).

الثامن : لقد ادعى المشركون في معركة أحد أنهم قتلوا النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ثم لم يلبثوا حين انسحابهم إلا وقد بلغهم أنه زاحف نحوهم هو وأصحابه وهو من أسباب إصابتهم بالكبت ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُنَّهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾^(٢).

فحينما سمع جيش المشركين بمجيئ النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه خلفهم ملأ الرعب قلوبهم ، وقد ورد عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : بعثت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلي ، ونصرت بالرعب فيرعب العدو وهو مني مسيرة شهر .

وقال لي : سل تعطه . فاخترت دعوتي شفاعاً لأمتي وهي نائلة منكم إن شاء الله من لقي الله لا يشرك به شيئاً ، وأحلت لأمتي الغنائم^(٣).

(١) سورة الاسراء ٤٥.

(٢) سورة آل عمران ١٢٧.

(٣) الدر المنثور ٤/٤٩٥.

قانون القلم الإيماني

تتصف نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأنها جاءت بالمعجزة العقلية والحسية التي جاء بها من عند الله وهي كافية في جذب الناس للهدى والإيمان ، وتنزيه الأرض من الظلم والإرهاب وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾^(١)، إذ تكون كفاية الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم تامة وتتصف بالكمال والإجزاء ، ودفع الأذى والضرر الذي يأتي من الكفار.

وعن قتادة قال : قال لي رجل : قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لتكفن عن شتم آلهمنا أو لتأمرنها فلتخبلنك ، فنزلت ﴿يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾^(٢) (٣).

وتبعث الآية أعلاه السكينة في قلب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتدعوه للقيام بتبليغ الرسالة بكل جد وعزم من غير التفات إلى تخويف الكفار له ولأصحابه.

فلا تصل النوبة إلى قيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالغزو ، ومن كفاية الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن كل آية تنزل من القرآن هي غزو لقلوب الذين كفروا ومجتمعاتهم. وأيها أكثر أثراً الغزو بالسيف أم الغزو بالقلم الإيماني. الجواب هو الثاني لذا ابتدأ نزول القرآن بقوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

(١) سورة الزمر ٣٦.

(٢) سورة الزمر ٣٦.

(٣) الدر المنثور ٤٥٣/٨.

الَّذِي خَلَقَ^(١).

فتقييد القراءة بأنها باسم الله علة لاستنباط المصطلح أعلاه (القلم الإيماني) فليس كل قلم أو ما يسمى بالغزو الثقافي له أثر فاعل في المجتمع ، وتبقى بصماته ومنافعه الى أجل بعيد ، إنما هو سلاح الإيمان فمن أسرار قوله تعالى ﴿وَنَفَخْ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾^(٢) ، استجابة العقول لدعوة الإيمان من غير حاجة إلى الهجوم بالسيف والغزو واستباحة المدن ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٣) ، النهي عن الغزو ، وبيان عدم وصول النوبة إليه .

نعم قد يبادر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسراياه إلى مباغته جمع المشركين الذين يريدون غزو المدينة كما في سرية أبي سلمة التي يتضمنها هذا الجزء إذ بلغ النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بعد معركة أحد بنحو شهرين أن طليحة بن خويلد وأخاه سلمة يجمعان بني أسد وحلفاءهم للإغارة على المدينة .

فارسل اليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا سلمة وأصحابه واكتفوا بتفريق جمعهم ، وعدم مطاردتهم في الأودية والشعاب ورؤوس الجبال وقد كانت هزيمتهم نصراً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إذ كان عدد أفراد السرية مائة وخمسين ، بينما كان طليحة وحده يعد بألف فارس ، والذي أسلم في عام الوفود ثم ما لبث أن ارتد بعد انتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى وجيء به أسيراً مقيداً عند أبي بكر.

(١) سورة العلق ١.

(٢) سورة السجدة ٩.

(٣) سورة العلق ١.

أبو عزة الشاعر

عندما كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه في حمراء الأسد جيئ له بأبي عزة الجمحي الشاعر ، وقد تقدم أنه وقع في الأسر في معركة بدر ، فسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يمن عليه بالفكاك من الأسر لأنه صاحب بنات ، فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه يومئذ عهداً من جهات :

الأولى : عدم قيام أبي عزة بمقاتلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلو خرجت قريش لقتاله لا يخرج معهم .

الثانية : لا يكثر أبو عزة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم جمعاً .

الثالثة : لا يظاهر أبو عزة أحداً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن أبا عزة صار يحرض القبائل على قتال النبي بأشعاره بترغيب وإغراء من صفوان بن أمية .

فبلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك فدعا عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولما مثل أبو عزة الشاعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حمراء الأسد ، (قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْلِنِي : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :

وَاللَّهُ لَا تَمْسَحْ عَارِضِيكَ بِمَكَّةَ بَعْدَهَا وَتَقُول : خَدَعْتَ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ اضْرِبْ عُنُقَهُ يَا زُبَيْرُ . فَضْرَبَ عُنُقَهُ .

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَبَلَّغَنِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ قَالَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جَحْرِ مَرَّتَيْنِ اضْرِبْ عُنُقَهُ يَا عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ فَضْرَبَ عُنُقَهُ .^(١)

(١) سيرة ابن هشام ١٠٤/٢ .

الصرفة

من خصائص الانبياء مجئ كل نبي بالمعجزة في الموضوع والحكم الذي يوليه قومه وأهل زمانه العناية الفائقة ، وقد يقومون بتحدي نبي زمانهم بطلب المعجزة في ذات الموضوع ، كما في النبي صالح إذ سأله قومه لإخراج ناقة من الجبل ، وجعلوا هذا الإخراج شرطاً لإيمانهم بدعوته والتصديق بنبوته ، قال تعالى ﴿ إِنَّا مَرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ ﴾^(١).

وكان قوم فرعون يهتمون بالسحر ويرجعون إليه ويتخذونه وسيلة وآلة وسبباً في العمل والمكر وبلغة ، فبعث الله عز وجل بآية الحية التي تأكل عصيهم ، وتفضح مكرهم إلى جانب معجزات عديدة جرت على يد موسى عليه السلام ، لتمام الحجة إذ كان موسى رسولاً إلى كل من :

الأول : بنو إسرائيل .

الثاني : فرعون وملئه .

الثالث : قوم فرعون .

الرابع : سحرة بلاد مصر .

الخامس : عامة أهل مصر ، لذا سأل موسى الله عز وجل أن يجعل هارون وزيراً له ، كما ورد في التنزيل ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي ﴾^(٢).

وتفضل الله عز وجل بتعدد الآيات والمعجزات التي جاء بها موسى عليه السلام ونال مرتبة أحد الرسل الخمسة أولي العزم ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي

(١) سورة القمر ٢٧.

(٢) سورة طه ٢٩-٣٠.

لَا ظَنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴿١﴾.

وتدل الآية أعلاه وآيات أخرى على تعدد الجهات التي بعث الله عز وجل إليها موسى ، ومنها قوله تعالى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ^(٢) ، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ^(٣).

وهل كانت معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم متعددة ،
الجواب نعم من جهتين :

الأولى : تعدد المعجزات الحسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم منها إنشقاق القمر ، وإرواء الماء القليل للجمع الكثير ، وإشباع الطعام القليل للجماعة.

الثانية : تعدد المعجزات العقلية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وكل آية من القرآن معجزة عقلية متعددة ، وبعث الله عز وجل عيسى عليه السلام وقد برع قومه بالطب فرزقه الله عز وجل الآيات من ذات جنس الطب ، بإحياء بعض الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص بأذن الله عز وجل .

وكان العرب أيام بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يعتنون بالبلاغة ، ويحسنون نظم الشعر الذي هو فرع البلاغة والبيان ، فجاء القرآن بصيغة بلاغية بمرتبة اسمى مما يقوله جهابذة ^(٤) البلاغة وأمراء الشعر بما

(١) سورة الأسراء ١٠١.

(٢) سورة القصص ٣٨.

(٣) سورة يونس ٧٩.

(٤) الجهابزة : جمع جهيز وهو الفطن والخبير بغوامض الأمور .

جعلهم يقفون مبهورين عند سماع القرآن ، ولا يختص إعجاز القرآن ببلاغته .

وقال عدد من العلماء أن إعجاز القرآن بالصرفة أي أن الله عز وجل صرف بلغاء العرب عن معارضته ولولا الصرفة لجاءوا بمثل القرآن والصرفة منهم :

الأول : أبو إسحاق الإسفراييني ت ٤١٨ هجرية - ١٠٢٧ ميلادية .

الثاني : إبراهيم بن سيار النظام ت ٢٣١ هجرية .

الثالث : السيد المرتضى ت ٣٥٥-٤٣٦ هجرية .

وإذا كان المراد من الصرفة هو صرف العرب عن الإتيان بما يفيد الشبهات والإتيان بقول وإدعاء إنه يشبه القرآن ، وبما يفتضح عند الناس بفضل من الله عز وجل فلا بأس بهذا القول .

أما إذا أريد من الصرفة أن العرب لو لم يصرفهم الله عز وجل عن الإتيان بمثل القرآن لجاءوا بمثله ، فهذا قول باطل وشبهة بدوية لا أصل لها ، قال تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١).

ومن الإعجاز في نزول القرآن متوالياً متعاقباً توالي إقرار العرب بالعجز عن الإتيان بمثله ، ومنع أهل الكفر والجحود من هذا القول ، فقبل أن يهيموا بالقول لو شئنا لجئنا بمثله تنزل آيات جديدة تجعلهم وعامة الناس في حال إنبهار وذهول ، إلى جانب دخول طائفة منهم الإسلام بسبب هذا الإعجاز المتعاقب .

وتدل آيات القرآن على بطلان القول بالصرفة ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿١﴾.

إذ تدل الآية على عجزهم حتى مع بذل الجهد ومن مقامات القدرة ، وإذا كان الله عز وجل صرف العرب عن الإتيان بمثله فإن الجن أيضاً عاجزون عن الإيمان بسورة منه مع أن أقل سورة ثلاث آيات وهي سورة الكوثر .

وجاء العلم الحديث والاتصال بين الغرب والشرق وتوثيق الوقائع وحفظ التراث والكتب لتتجلى ضروب من هذا العجز .
فلو اجتمع أهل المشرق والمغرب بواسطة الاتصال بينهم بوسائط الاتصال الحديث فإنهم يعجزون عن الإتيان بمثله ، وحتى لو ساندتهم الجن عليه .

ويتصف القرآن بالإعجاز الذاتي والغيري ، فهو بذاته معجزة يدرك الناس معه قانوناً وهو أنهم لا يستطيعون الارتقاء للإتيان بمعشار ما فيه من العلوم والأحكام وقواعد البلاغة ، فلا يختص إعجاز القرآن ببلاغته فمن إعجاز القرآن وجوه :

الأول : الأحكام التكليفية الخمسة في القرآن .

الثاني : أسباب نزول آيات القرآن .

الثالث : قصص القرآن ، ومضامينها وما فيها من السنن والمواعظ والعبر والتوثيق السالم من الزيادة والنقصان ، قال تعالى ﴿نَحْنُ نُقْصِرُ عَلَىكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (٢).

الرابع : أسباب نزول الآية القرآنية .

الخامس : الصلة بين الآية القرآنية والآية الأخرى وإستنباط العلوم منها

(١) سورة الاسراء ٨٨.

(٢) سورة يوسف ٣.

، وهو علم مستحدث ، ويتجلى فيه شطر من ذخائر القرآن ودرره العلمية والشواهد الإعجازية التي تدل على نزول القرآن من عند الله عز وجل ، ومن خصائص هذا العلم أن مصاديقه تستمر لآلاف السنين في التحقيق وإستقراء المسائل ^(١) .

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ^(٢) .

المقارنة بين الإستيلاء على قافلة أبي سفيان وبين نتائج معركة بدر

المشهور أول سرية في الإسلام كانت سرية حمزة بن عبد المطلب ومعه ثلاثون من الصحابة وحمزة عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأسن منه بسنتين ، وهو أخوه من الرضاة ، (عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (والذى نفسي بيده إنه لمكتوب عند الله عز وجل في السماء السابعة حمزة أسد الله وأسد رسوله) ^(٣) .

(وقال المدائني أول سرية بعثها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع حمزة بن عبد المطلب في ربيع الأول من سنة اثنتين إلى سيف البحر من أرض جهينة وخالفه ابن إسحاق فجعلها لعبيدة بن الحارث) ^(٤) . وقد لاقت سرية حمزة قافلة لقريش فيها أبو جهل ، ويحتمل هذا اللقاء وجوهاً :

الأول : كانت غاية السرية اعتراض القافلة ، (وَكَانَ أَوَّلُ لَوَاءٍ عَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ عَلَى رَأْسِ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ مِنْ مُهَاجِرِهِ وَكَانَ لَوَاءٌ أَيْضًا وَكَانَ حَامِلُهُ

(١) مراجعتي.

(٢) سورة الكهف ١٠٩.

(٣) ذخائر العقبى ١/١٧٥.

(٤) الاستعاب ١/١٠٩.

أَبُو مَرْثَدٍ كَنَازُ بْنُ الْحَصِينِ الْغَنَوِيُّ حَلِيفَ حَمْزَةَ وَبَعَثَهُ فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ خَاصَّةً يَعْتَرِضُ عِيراً لِقَرِيْشٍ جَاءَتْ مِنَ الشَّامِ .
وَفِيهَا أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ فِي ثَلَاثِمِائَةِ رَجُلٍ . فَبَلَغُوا سَيْفَ الْبَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ الْعَيْصِ ، فَالتَقُوا وَاصْطَفَوْا لِلْقِتَالِ فَمَشَى مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو الْجُهَنِيُّ ، وَكَانَ حَلِيفًا لِلْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا ، بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ حَتَّى حَجَزَ بَيْنَهُمْ وَلَمْ يَقْتَتِلُوا .^(١)

الثاني : غاية السرية قتال رجال القافلة والإستيلاء عليها .

الثالث : ملاقاته السرية صدفة لقافلة قريش .

والمختار هو الأخير ، من جهات

الأولى : لم يبعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم السرية لقتال رجال القافلة خاصة وأن عدد أفراد السرية هو ثلاثون ، بينما كان عدد رجال القافلة ثلاثمائة ، مع حال الضعف وقلة الأسلحة والمؤن عند المسلمين .

الثانية : لقد اتفق أن التقوا فلما مشى بينهم مجدي بن عمرو الجهني حجز بينهم ولم يحدث قتال .

والظاهر أن أبا جهل أضمر الحقد والرغبة في الإنتقام ، فجهز الجيوش لمعركة بدر ، وعندما مشى في صفوفهم عتبة بن ربيعة لمنع القتال أصر عليه أبو جهل فقتلا جميعاً يومئذ .

ليبان مسألة وهي أن الدعوة إلى الصلح ونبد القتال أمر حسن ، وأن رفض هذه الدعوة أمر مكروه خاصة عندما تكون هذه الدعوة لإجتنب محاربة النبوة والتنزيل .

وقال تعالى ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾^(٢) ، أي في ذاته وموضوعه وأثره .

(١) زاد المعاد ١٤٦/٣ .

(٢) سورة النساء ١٢٨ .

الثالثة : لم يكثر حديث المسلمين عن اللقاء بين السرية ورجال القافلة .

الرابعة : لم يندم المسلمون على فوات القافلة وعدم التعرض لها .

الخامسة : لم يوجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللوم إلى حمزة وأصحابه بخصوص الحجز بينهم وبين القافلة .

السادسة : لو كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر حمزة وأصحابه باعتراض القافلة والإستيلاء عليها لما رضوا بالحجز بينهم .

ولو تم الإستيلاء على قافلة أبي سفيان بدل معركة بدر أو قبلها لجلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى المدينة ألف بعير محملة بالبضائع ففيه مسائل :

الأولى : هيجان قريش وطوافها على قبائل العرب تحرضهم على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولأرسلوا الوفود إلى ملك الحبشة النجاشي وإلى ملوك الروم وفارس وغيرهم يبينون لهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه قاموا بالإستيلاء على القوافل فيحرضونهم جميعاً على النبي وأصحابه .

الثانية : منع قريش الناس من دخول الإسلام بتشويه سمعته وبالإكراه ، مع حمل الناس على محاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة وأن قريشاً أصحاب أموال طائلة ، وذوو صلات بالدول والقبائل .

الثالثة : قيام المنافقين ببث السموم وتحريف الوقائع ، ولا يذكرون حق النبي وأصحابه وأموالهم التي استحوذ عليها المشركون في مكة بغير حق ومن الفطرة الإنسانية النفرة من الإستيلاء على مال الغير بغير حق ، ولا يذكر المنافقون تعدي وظلم الذين كفروا ، وفي التنزيل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾^(١).

الرابعة : الفتنة عند المسلمين في كثرة الأموال وتقسيمها والإنشغال بها بينما تقوم قريش بالإعداد لهجوم كبير .

الخامسة : استمرار أهل الريب والشك في كل عصر وزمان بذكر موضوع الإستيلاء على القافلة وأن بداية الإسلام الإستحواذ على القوافل .

فهم يقولون أن الإسلام انتشر بالسيف وليس بتام فكيف إذا أضيفت له وبالوقائع الوثائقية أن الإسلام ابتدأ بالإستيلاء على القوافل ، فتفضل الله عز وجل ونجا النبوة والإسلام من شبهات وطعون أهل الريب ، قال تعالى ﴿وَلَا فُضِّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

لقد أنعم الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأن صرفه عن الإستيلاء على قافلة أبي سفيان وغيرها من القوافل ، إذ كانت قوافل قريش تجوب الصحراء ذهاباً وإياباً وتمر قريباً من المدينة ، وقد تصادف سرايا الصحابة فلم يتعرضوا لها ، وعدم التعرض هذا بأمر وإيعاز من قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان يوصيهم بعدم التعرض للقوافل ، وكما في سرية حمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

إذ لاقت قافلة لقريش فيها أبو جهل فتصاف الفريقان ولم يقع قتال ، وتفرقوا ، ولم تستنفر قريش في الحال بسبب هذه الواقعة ، ولكن الأمر اختلف في قافلة أبي سفيان فمع أنه لم يلاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ، ولم يتصاف الجمعان ، فقد بعث أبو سفيان رسولاً إلى مكة يخبر أهلها بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يريدون الإستيلاء على القافلة ويندبهم لنصرته ولا أصل لهذا القول .

مبالغة أبي سفيان بالخطر فتنة عامة

لقد بالغ أبو سفيان في خطورة الأمر ، وبعث إلى قريش بما يدل على قرب وقوع أموالهم وقافلتهم بيد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنه خرج من المدينة في طلبها والإستيلاء عليها ، إذ استأجر أبو سفيان وهو في الطريق ضمضم بن عمرو الغفاري ليذهب مسرعاً إلى مكة بأمره :

الأول : استصراخ قريش .

الثاني : النفير إلى العير .

الثالث : إنقاذ أبي سفيان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

الرابع : سلامة القافلة واسترداد الأموال في حال وقوعها بأيدي النبي وأصحابه .

ولا دليل على أي من هذه الأمور ، ولو شاء الله عز وجل لحال دون ضمضم ووصله إلى مكة ، ولو وصلت قافلة أبي سفيان بسلام ، ولكن شاء الله عز وجل أن تتم الأمور بمقاديرها وتقوم الحجة على الذين كفروا وتثبت الوقائع للناس جميعاً تعدي وجور الذين كفروا ، فوصل ضمضم إلى مكة ، ثم قام بابلاغهم بكيفية تبعث على النفير والمناجاة بالباطل من جهات :

الأولى : مجئ ضمضم مسرعاً يركض به بعيره ، ويستطيع البعير أن يقطع بالركض (١٤٠) كم في عشر ساعات أي وصل ضمضم في ثلاثة أيام إلى مكة .

الثانية : جدد ضمضم لأنف بعيره أي قطعه ، يقال (جدد: الجدد: قطع الأنف والأذن والشفة، جددته أجدعه جدعا) ^(١).

الثالثة : خروج ضمضم إلى مكة من بطن الوادي وهو واقف على بعيره ، وليس جالسا على الرحل لبيان أنه في مصيبة ، وحال نداء عام .

لقد نزل قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ^(٢) خطاباً للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لدعوة قومه إلى الإسلام ليسوقهم إلى الجنة ، ولكن طائفة من رؤساء قريش إختاروا الإستجابة لإنذار ضمضم هذا ليسوقهم إلى النار ، إذ سقط عدد منهم قتلى في معركة بدر مثل أبي جهل وعتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخيه شيبة ، وأميمة بن خلف في سبعين من قريش ، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ^(٣).

(١) العين ٤٩/١.

(٢) سورة الشعراء ٢١٤ .

(٣) سورة الزمر ٧٠-٧٢.

الرابعة : تحويل ضمضم رحله ، وفيه كناية عن كونه في مصيبة وذل ، وهو غير معنى تحويل الرحل الذي ورد على نحو المجاز والكناية في حديث ابن عباس قال (جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله هلكت . قال : وما أهلكك؟ قال : حوّلت رحلي الليلة . فلم يرد عليه شيئاً .

فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية { نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم } يقول : أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة^(١).

الخامسة : شق ضمضم قميصه لبيان شدة حزنه لما أصاب القافلة ، ولم يصبها شئ ، قال تعالى ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾^(٢) إن شق ضمضم قميصه تهيج لقریش رجالاً ونساءً خاصة وأن كل واحد منهم له مال وتجارة في قافلة أبي سفيان إذ كان مجموعها ألف بعير .

وهل كانت العين والحسد تصيب قریشاً وتجارتهما أثناء المرور على القبائل والركبان ، الجواب نعم ، ولم يكونوا يحترسون بالإيمان والقرآن والدعاء والصدقة .

السادسة : لم يدخل ضمضم مكة صامتاً ، ولم يكتف بالوقوف على قافلته وانتظار من يأتي ليسأله منهم ، ولم يتوجه إلى دار الندوة ويطلع رؤساء قریش على الأمر لأنه من الأسرار وخشية الهياج العام ، إنما كان ينادي بأعلى

(١) سورة الأنفال ٣٤.

(٢) سورة محمد ٢٥.

صوته (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، اللَّطِيْمَةُ اللَّطِيْمَةُ أَمْوَالَكُمْ مَعَ أَبِي سَفْيَانَ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ لَا أَرَى أَنْ تُذَرِكُوهَا ، الْغَوْثَ الْغَوْثَ) ^(١).

ويحتمل جهة صدور هذه الكلمات وجوهاً :

الأول : التلقين من قبل أبي سفيان .

الثاني : قيام أبي سفيان بالبيان الإجمالي للرسالة التي حملها ضمضم بن عمرو الغفاري ، وترك التفصيل والكيفية لضمضم .

الثالث : المبادرة الإبتدائية من ضمضم في الكيفية التي دخل بها مكة وكلمات الإستغاثة التي أطلقها .

الرابع : التبويض في التلقين.

أَسْمَاءُ مَكَّةَ

تختص مكة بنعم عظيمة تتقوم بفضل الله عز وجل ولزوم شكر أهلها لله سبحانه على هذه النعم بالتقوى وتصديق النبوة والتنزيل ، فمنها دحيت الأرض وفيها ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ ^(٢) وإليها يأتي وفد الحجيج كل عام ، مع عدم إنقطاع المعتمرين طيلة أيام السنة .

وتقع مكة في سهل تهامة والذي يمتد على طول ساحل البحر الأحمر من خليج العقبة شمالاً إلى باب المندب جنوباً ، وتقع في الجانب الغربي من الجزيرة العربية في واد ضيق من أودية جبال السروات التي تمتد من حدود اليمن الى مدينة الطائف .

وتقسم الى أقسام منها :

(١) السيرة لابن هشام ٦٠٩/١ .

(٢) سورة آل عمران ٩٦ .

الأولى : سراة ثقيف وهي التي تطل على عرفات.

الثانية : سراة بني مالك .

الثالثة : سراة غامد وزهران.

الرابعة : سراة عسير وهي مدينة أبها .

الخامسة : تمتد من شمال مكة مجموعة جبلية تسمى جبال الحجاز .

وترتفع مكة عن سطح البحر ٣٣٣ متراً ، وتقع بين خط عرض ٢١،٤٣ درجة وخط طول ٣٩،٨٣ درجة.

ولقد أكرم الله عز وجل مكة بأن حلّ فيها إبراهيم وسكنها إسماعيل وأمه هاجر ليتم بناء البيت الحرام ، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١) ، وتفضل الله عز وجل وبعث فيها النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً إلى الناس .

ولمكة أسماء كثيرة ، منها ما ورد في القرآن وهي :

الأول : مكة ، إذ ورد مرة واحدة بقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ

عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(٢) .

والمراد من البطن جوف الإنسان ، وهو في المقام المنخفض من الأرض ، وداخل البلدة وقيل المراد من بطن مكة في الآية الحديبية ، (وعن أنس قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعا عليهم فأخذوا فعفا عنهم .

(١) سورة البقرة ١٢٧.

(٢) سورة الفتح ٢٤.

فنزلت هذه الآية وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة قال : بطن مكة الحديبية ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقال له زنيم أطلع الثانية زمان الحديبية فرماه المشركون فقتلوه فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيلاً فأتوا باثني عشر فارساً فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل لكم عهد أو ذمة.

قالوا لا فأرسلهم فأنزل الله في ذلك وهو الذي كف أيديهم عنكم الآية^(١).

وقيل نزلت الآية أعلاه بخصوص فتح مكة واستدل به أبو حنيفة على فتح مكة عنوة لا صلحاً .

وفي تسميتها مكة وجوه :

أولاً : قال ابن الكلبي : سُميت مكة لأنها بين جبلين^(٢).

ثانياً : قال أبو بكر بن الأنباري سميت مكة لأنها تُمك الجبارين أي تذهب نخوتهم ويقال إنما سميت مكة لازدحام الناس بها من قولهم قد امتك الفصيل ضرع أمه إذا مصه مصاً شديداً وسميت بمكة لازدحام الناس بها قاله أبو عبيدة وأنشد :

إذا الشريب أخذته أكة ... فخله حتى ييك بكة

ومكة اسم المدينة وبكة اسم البيت، وقال آخرون مكة هي بكة والميم بدل من الباء كما قالوا ما هذا بضربة لازب ولازم، وقال أبو القاسم هذا الذي ذكره أبو بكر في مكة وفيها أقوال أخر نذكرها لك .

(١) الدر المنثور ٩/١٢٥.

(٢) معجم البلدان ١/٣٤٤.

ثالثاً : قال الشرقي بن القطاقي إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكاناً للكعبة فنمك فيه أي نصفر صغير الماء حول الكعبة وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها والمكاء بتشديد الكاف طائر يأوي الرياض .

قال أعرابي ورد الحضر فرأى مكاءً يصيح فحن إلى بلاده فقال :
 ألا أيها المكاء ما لك ههنا ... ألة ولا شيخ فأين تبيضُ
 فاصعد إلى أرض المكاكي واجتنب .. قرى الشام لا تصبح وأنت مريض^(١).

رابعاً : ذكر أنها سميت مكة لأنه لا يفجر بها أحد إلا بكت عنقه ، فكان يصبح وقد التوت رقبتة .

خامساً : قال الشرقي روي أن بكة اسم القرية ومكة مغزى بذى طوى لا يراه أحد ممن مر من أهل الشام والعراق واليمن والبصرة وإنما هي أبيات في أسفل ثنية ذي طوى ، وقال آخرون بكة موضع البيت وما حول البيت مكة .

سادساً : سميت مكة من مك الثدي أي مصه لقله مائها لأنهم كانوا يتمكنون الماء أي يستخرجونه .

سابعاً : إنها تذهب الذنوب أي تذهب بها كما يمك الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيئاً .

ثامناً : سميت مكة لأنها تمك من ظلم أي تنقصه وينشد قول بعضهم :
 يا مكة الفاجر مكى مكا ... ولا تمكي مذهباً وعكاً^(٢).

تاسعاً : سميت مكة لأنها تمك الذنوب ، فمن يقصدها حاجاً أو معتمراً تمك ذنوبه أي تذهب بها ، وفيه ترغيب بزيارة البيت .

(١) معجم البلدان ٤/١٤٧.

(٢) معجم البلدان ٤/١٤٨.

عاشرًا : لأنها تمك وتنقص من ظلم فيها ، وأرادها بسوء كما في أبرهة وأصحابه ، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(١) .

الحادي عشر : سميت مكة لإزدحام الناس بها .

الثاني : من أسماء مكة : بكة : قال تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢) .

وبكة كلمة عربية وهي لغة قديمة تأريخياً .

الثالث : أم القرى ، قال تعالى ﴿وَلَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(٣) ،

الرابع : البلد الأمين ، قال تعالى ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(٤) وفيه إعجاز

وهو أسماء مكة إكرام وتشريف لها ، وفي دلالتها على المسمى وعد كريم .

الخامس : النساسة ، (لأنها تبس من الحد فيها، والبس: الحطم. وقد

يقال لها ايضاً النساة بالنون، لأنها تنس من الحد فيها، أي تطرده. والنس:

السوق، نس ابله: إذا ساقها. ومنه سميت المنساة)^(٥) ، والنساسة لأنها

تسوق الناس إلى الجنة والرحمة.

السادس : أم رُحَم^(٦) .

السابع : كوثر : وفيها بقعة تسمى كوثر ، وهي محلة بني عبد الدار ،

وعن المبرد في قول علي بن أبي طالب عليه السلام: إن تسألوا عنا فإننا قوم

(١) سورة الفيل ١.

(٢) سورة آل عمران ٩٦.

(٣) سورة الأنعام ٩٢.

(٤) سورة التين ٣.

(٥) معجم ما استعجم ٧٩/١.

(٦) معجم البلدان ١٤٨/٤.

من أهل كوثرى قال: إنما يعني بكوثرى مكة وكانت تسمى كوثرى قال وأنشد
لحسان:

لعن الله أهل كوثر داراً ... ورماها بالذل والأمار
لست أعني كوثرى العراق ولكن ... ربة الدار دار عبد الدار
قال أبو بكر: كذا رواه لنا القاضي ورواه لنا غيره:
لعن الله منزلاً أهل كوثرى ... ورماء بالذل والأمار
لست أعني كوثرى العراق ولكن ... ربة الدار دار عبد الدار
فقال: إن محلة بني عبد الدار بمكة خاصة تسمى كوثرى^(١).

الثامن: الرأس: لأنها بمنزلة الرأس من الجسد ، وأنشد كراع :
وفي الرأس آيات لمن كان ذا حجاً . وفي مدين العليا وفي موضع الحجر^(٢).

التاسع: البلد ، لقوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٣) وقوله تعالى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ
بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٤) ، ولما ورد في دعاء إبراهيم كما في التنزيل ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ
أَمِينًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(٥) لبيان إكرام مكة بأن جاءت
الألف واللام خاصة بها .

العاشر: المذهب .

الحادي عشر: الحرم .

الثاني عشر: العرس .

(١) تاريخ بغداد ١/١٣١ .

(٢) معجم ما استعجم ١/٧٩ .

(٣) سورة البلد ١ .

(٤) سورة البلد ٢ .

(٥) سورة إبراهيم ٣٥ .

الثالث عشر : المقدسة .

الرابع عشر : المسجد الحرام .

الخامس عشر : البيت الحرام .

السادس عشر : تهامة .

السابع عشر : الحاطمة لأنها تحطم من استهان بها .

الثامن عشر : البنية .

التاسع عشر : البيت العتيق .

العشرون : فاران ، وهي (كلمة عبرانية معربة، وهي من أسماء مكة
ذكرت في التوراة قيل هو اسم لجبال مكة. قال ابن ماكولا أبو بكر نصر بن
القاسم بن قضاة القضاعي الفاراني الإسكندراني سمعت أن ذلك نسبته
إلى جبال فاران وهي جبال الحجاز وفي التوراة: جاء الله من سيناء وأشرق
من ساعير واستعلن من فاران مجيئه من سيناء تكليمه لموسى عليه السلام
وإشراقه من ساعير وهي جبال فلسطين هو إنزاله الإنجيل على عيسى عليه
السلام واستعلانه من جبال فاران إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه
وسلم قالوا وفاران جبال مكة)^(١).

الحادي والعشرون : صلاح ، ليكون من معاني الصلح اتيان مكة
(واتياني صلاحا لى صلاح .

وقال حرب بن أمية لأبي مطر الحضرمي، يدعوه إلى حفلة ونزول مكة:
أبا مطر هلم إلى صلاح ... فتكنفك الندامى من قريش
وتسكن بلدة عزت قديما ... وتأمين ان يزورك رب جيش
وقال آخر:

أودى هشام وقد كانت تؤمله ... ابناء فهر إذا ما عضها الزمن

تبكى عليه صلاح كلما طلعت... شمس النهار وتبكى شجوه المدن^(١).
الثاني والعشرون : القرية ، لقوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ

عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٢) ، وهما مكة والطائف والقرية اسم
لمحل يجتمع فيه الناس للإقامة ، مأخوذ من قربت الماء في الحوض إذا جمعته
فيه ، ويسمى هذا الحوض مقراة.

وقيل المراد من القرية في قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً

يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ﴾^(٣) ، انها مكة ، ونسب الى ابن عباس ومجاهد^(٤).

وعن ابن شهاب هي يثرب^(٥) ، وقال ابن كثير أريد به أهل مكة وأنها
 كانت آمنة ويتخطف الناس من حولها .

وقال الثعالبي (وقوله سبحانه ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية :
 قال ابن عباس : القرية ؛ هنا مكة ، والمراد الضمائر كلها في الآية أهل القرية
 ، ويتوجه عندي في الآية أنها قُصِدَ بها قرية غير معينة جعلت مثلاً لمكة ،
 على معنى التحذير ، لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة)^(٦).

(١) معجم ما استعجم ٧٩/١.

(٢) سورة الزخرف ٣١.

(٣) سورة النحل ١١٢.

(٤) الدر المنثور ١٧٧/٦.

(٥) تفسير ابن أبي حاتم ١٢٦/٩.

(٦) تفسير الثعالبي ٣٦٠/٢.

والمختار أن هذه القرية مذكورة في القرآن إذ جعله الله ﴿نَبِيَّانَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، وقد ذكرت الآية العذاب المستديم الذي حلّ بأهلها من الجوع والخوف لقبيح ما يفعلون ، ولأنهم كذبوا الرسول فأخذهم العذاب جميعاً وهم ظالمون ، إذ قال تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾* ولقد جاءهم رسولٌ منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون^(٢).

ولكن أهل مكة أنعم الله عز وجل عليهم بالفتح ودخول الإسلام ، وكان البيت واقية من العذاب العام الذي ذكرته الآية.

وذكر القرية في الآية أعلاه يصلح أن تكون هي مثلاً مع وجود مصداقها الواقعي ، وتعرض تلك القرية التي لم تذكر الآية اسمها للجوع والخوف مع إصرارهم على تكذيب الرسول فنزل بهم العذاب مثل قوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم هود ، إنما وردت أسماء مكة لإكرامها ، وللدلالة على عظيم شأنها.

الثالث والعشرون : النشاسة.

الرابع والعشرون : السيل .

الخامس والعشرون : اسم مكة كوسا نسبة ابن المجاور الى بعض

الفضلاء ، واحتج بقول الشاعر

سألت عمراً عن فتى اسمه ... يحيى و ثاني اسمه عيسى

فقال: يحيى أبصرته جالساً ... بالفج يخلق رأسه موسى

و أبصرت عيسى داخلاً قرية ... هي التي قد سميت كوسا^(٣).

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة النحل ١١٢-١١٣.

(٣) ابن المجاور / تاريخ المستبصر ٢/١.

السادس والعشرون : عروق الذهب ، سماها به التجار.

وقال ابن المجاور (وقد ذكر المسعودي في كتاب مروج الذهب أن مكة من الإقليم الثاني تنسب إلى المريخ و بناها إبراهيم الخليل عليه السلام. و هواها صحيح و جوها طيب و ليلها أطيب من نهارها لأنها تنزل في لياليها الرحمة من بها. و ماؤها من الآبار و أطيبها ماء الشبيكة و الوردية و الواسعة و هي بئر و راء جبل أبي قيس، فيها يريح الفقير. و جميع ذلك بنته أم العزيز زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور.

و أهلها عرب أشراف من نسل علي بن أبي طالب و ما بقي من أهلها قرشيين على مذهب الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. و هم رجال سمر لأن جلة مناكحهم الجوار السود من الحبش و النوبة، و طوال الجثث صحيحين اللغة قليلين المال كثيرين العشائر و القبائل ذوو قناعة. و قد قال النبي (: " القناعة غنى " ، و قال عليه السلام: " القناعة كنز لا يفنى " ، و كان أحدهم يبقّى على قرص و قيل سمن ثلاثة أيام لبلياليها. و في ذلك أنشد الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي يقول:

أمت مطامعي و أرحت نفسي ... فإن النفس ما طمعت تهون

و أحييت القنوع و كان ميتاً ... و في إحيائه عرض مصون

إذا طمع أحل بقلب عبد ... علته مذلة و علاه هون

و ملبسهم النصافي النيسابوري الرفيع و يتحزم بنصفه الثاني و يرمى بما

فضل منها. لبس نسائهم القنوع^(١).

و لم نجد الفصل أعلاه في كتاب مروج الذهب الذي بين أيدينا ،

و مؤلف مروج الذهب و معادن الجوهر هو علي بن الحسين بن علي

المسعودي ٢٨٣-٣٤٦ وهو من ذرية الصحابي عبد الله بن مسعود .

(١) تاريخ المستبصر ٢/١.

ولد المسعودي في بغداد وسافر إلى بلدان كثيرة منها بلاد فارس والهند واصقاع بحر قزوين والسودان ، وبلاد الشام والروم ، ومات في فسطاط مصر أما تأريخ المستبصر فمؤلفه هو جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد المعروف بابن المجاور الشيباني الدمشقي ولد في دمشق سنة ٦٠١ ونشأ وترعرع في بغداد ، وأشهر مؤلفاته كتاب تأريخ المستبصر وابتدائية الكلام عن مكة ثم الحجاز واليمن وختمه بالبحرين توفي سنة ٦٩٠ للهجرة.

لقد كانت مكة البلد المقدس عند العرب في مختلف الأزمنة فلا بد أن تتعدد أسماؤها لأن الإكرام من أسباب هذا التعدد ، وهل يمكن تسميتها:

الأول : الوادي .

الثاني : الوادي غير ذي الزرع .

لما ورد حكاية عن إبراهيم ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾^(١) الجواب نعم .

إذ فرقت الآية أعلاه بين البيت وبين بيوت أهل مكة ، وهو من الإعجاز في الدقة والتعيين واستقراء المسائل .

وهل يمكن تسميتها (أحب البلاد) لما ورد عن (ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمكة ما أطيبك من بلدة وأحبك إليّ ، ولولا أن قومك أخرجوني ما سكنت غيرك .

وأخرج ابن سعد وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه والأزرقي والجندي عن عبدالله بن عدي بن الحمراء قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو على ناقته واقف بالحزورة يقول لمكة : والله

إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أخرجت منك ما خرجت (١).

الجواب نعم ، لعمومات قوله تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢) .
لقد جاء الإسلام ليعتني بمكة والبيت الحرام اسماً ومسمى ، ويقوم المسلمون بتولي شؤون البيت ووفادة الحاج بعد أن أزاحوا الكفار ومنعواهم عن ولايته ، قال تعالى ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ إِلَّا أُولَآئِهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣) .

ثناء القرآن على دفع القتال

من الإعجاز في نزول القرآن نجوماً ومفرقاً معرفة المسلمين بأن ثلاث آيات متتاليات نزلت في الثناء على الذين خرجوا إلى حمراء الأسد مع عدم وقوع قتال في هذه الكتيبة مما يدل على عدم الملازمة بين الثناء على المؤمنين وسراياهم وبين القتال ، فيأتي أعظم الثناء على الكتيبة التي تخرج وترجع من غير قتال ، وفيه شاهد على أن النبي محمداً لم يغز أحداً ولم يأمر بالغزو ، إذ يأتي أجمل الثناء في القرآن على الذين يذكرون الله ويطيعون الصلاة ويؤتون الزكاة .

ويمكن تأليف مجلدات خاصة من وجوه :

الأول : قانون الثناء في القرآن .

الثاني : قانون الذين أثنى الله عليهم في القرآن .

(١) الدر المنثور ١/ ٣٢٨ .

(٢) سورة النجم ٣ .

(٣) سورة الإنفال ٣٤ .

الثالث : قانون ثناء الله عز وجل على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١) وقال تعالى ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾^(٢).

الرابع : معاني ودلالات كل فرد من ثناء الله على النبي كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

الخامس : قانون ثناء الله على المؤمنين في القرآن ، فقد ورد في آية واحدة ذكر سبع خصال حميدة للمؤمنين ، قال تعالى ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

السادس : قانون الثناء على المؤمنين في السنة النبوية .

السابع : قانون الخصال الحميدة التي ورد الثناء عليها في القرآن .

الثامن : قانون الثناء في أسباب النزول .

التاسع : قانون انتفاع المسلمين من الثناء القرآني .

العاشر : قانون الثناء على العبادة وأداء الفرائض .

الحادي عشر : قانون الثناء على الصابرين .

الثاني عشر : قانون ثواب التحلي بالصبر وإتخاذه ملكة ومنهاجاً ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥).

(١) سورة الأحزاب ٤٥.

(٢) سورة النجم ٥.

(٣) سورة ن ٤.

(٤) سورة التوبة ١١٢.

(٥) سورة الزمر ١٠.

الثالث عشر : قانون تعدد آيات الثناء على المؤمنين .

الرابع عشر : قانون الثناء على المؤمنات والمسلمات في القرآن .

الخامس عشر : علة الثناء في القرآن .

السادس عشر : منافع الثناء القرآني .

لقد أثنى الله عز وجل على أصحاب كتيبة حمراء الأسد بثلاث آيات متتاليات مع أنهم لم يخوضوا حرباً ، ولم يرابطوا مدة مديدة ، هذا إلى جانب شمولهم بآيات متعددة من آيات الثناء في القرآن .

وإذا كانوا يشاركون غيرهم في آيات الثناء الأخرى ، فهناك مسائل :
الأولى : هل يشارك عامة الصحابة أفراد كتيبة حمراء الأسد في الثناء عليهم في الآيات الثلاثة .

الثانية : هل يشارك عامة المسلمين والمسلمات أصحاب حمراء الأسد في هذه الآيات .

الثالثة : هل تشارك الصحابييات أفراد كتيبة حمراء الأسد في ثوابهم . والمختار الجواب في هذه المسائل هو نعم ، وإن كان هذا الثواب الذي يلحقهم أقل درجة من الثواب الذي يلحق أفراد الكتيبة ، قال تعالى ﴿وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) .

وهل يمكن تسمية القرآن كتاب الثناء ، الجواب نعم ، ففيه ثناء ومدح من وجوه :

الأول : ثناء الله عز وجل على نفسه ، ويمكن القول بقانون وهو كل آية تتضمن ثناء الله على نفسه ، إذ يبين الله في القرآن للإنس والجن والملائكة وحدانيته وربوبيته المطلقة ، وبديع صنعه وعظيم مخلوقاته ، وملكه لكل

الأشياء وخلقها للأكوان بالكاف والنون ، ويتكرر في القرآن قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

ومن ثناء الله على نفسه إجابته الدعاء ولا يقدر على الإجابة المطلقة والمتجددة ، وفي أمور الدنيا والآخرة إلا الله سبحانه ، قال تعالى ﴿بَلْ يَأْتِ تَدْعُوتُ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾^(٢).

الثاني : ثناء الله عز وجل على الأنبياء ، وتزكيتهم وبيان عصمتهم وجهادهم في سبيل الله .

الثالث : ثناء ومدح الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في خلقه وسنته القولية والفعلية وعصمته وصبره ، وكل فرد منها نعمة وهبة من عند الله له وللمسلمين .

الرابع : مدح الله عز وجل لأصحاب وأنصار وأتباع الأنبياء وتوثيق صبرهم وذكرهم لله وجهادهم في سبيل الله ، قال تعالى ﴿وَكَايْنُ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

الخامس : قانون مدح الله للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات .

السادس : الثناء الخاص بلحاظ واقعة او حادثة أو قول ، وهو متعلق بأسباب النزول وهذا المدح لا يختص بأصحابه إنما هو نعمة ينهل منها

(١) سورة البقرة ٢٠.

(٢) سورة الأنعام ٤١.

(٣) سورة آل عمران ١٤٦.

المسلمون وضياء يستتيرون به وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

لذا تفضل الله عز وجل وأنعم على المسلمين والمسلمات بتلاوة قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) سبع عشرة مرة في اليوم لتكون هذه التلاوة مدداً وطريقاً إلى اللبث الدائم في الجنة ، وليس من أمة يدعو كل فرد منها ذكراً أو أنثى سبع عشرة مرة بهذا الدعاء وبصيغة القرآنية والتنزيل ، وفيه دعوة للمسلمين لنبد الإرهاب والتنزه عن التعدي والظلم لقانون وهو الإنقطاع إلى الدعاء برزخ وحاجب دون الإرهاب والقتل العشوائي .
وأيهما أكثر :

الأول : الثناء على المؤمنين في سنن العمل بغير مسألة القتال وميدانه .
الثاني : الثناء على المؤمنين بخصوص الكتاب والسرايا التي ليس فيها قتال ومقدماتها.

الثالث : الثناء على المؤمنين لصبرهم في ميدان الدفاع والمرابطة.
الرابع : الثناء على المؤمنين في باب العبادات والعمل الصالح .
والمختار هو الرابع ، ويكون الأول في طوله ، وتيسر وسائط وانت والتأليف عبر شبكة الأنترنت إحصاء الآيات التي تتضمن الثناء على المؤمنين منطوقاً ومفهوماً وموضوع كل آية منها .
لقد جاءت ثلاث آيات متتاليات من القرآن في الثناء على كتيبة حمراء الأسد فمن أي الوجوه أعلاه ، الجواب إنها من كل هذه الوجوه ، وهو من إعجاز القرآن.

(١) سورة ابراهيم ٣٤.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

الفهرس

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣	المقدمة	١٩٤	في التلاوة
٢٠	قانون القسم في السور المكية برزخ دون سفك الدماء	١٩٥	التصغير
٢٣	ترتيب نزول السور المكية	١٩٨	لغة آدم
٣٠	قانون وانتم أذلة ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ شاهد على أن المسلمين لم يغزوا	٢٠١	ترجمة سعيد بن جبير
٣٥	قانون أدلة عدم خسارة المسلمين معركة أحد	٢١٠	سرعة البعير
٤٩	قانون معادة كفار قريش للصلاة	٢١٨	قانون (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ)
٥٦	كتيبة حمراء الأسد	٢٢١	لفظ القلم عربي
٦١	مقدمات كتيبة حمراء الأسد	٢٢٤	قانون عدم نسخ آيات الصلح
٨٩	الإقامة ثلاثة أيام في حمراء الأسد	٢٣٣	بحث كلامي
٩٣	في موضع حمراء الأسد	٢٣٧	قانون العودة من حمراء الأسد سكية
٩٥	لفظ (استجابوا) في القرآن	٢٤٠	لماذا نزل القرآن منجماً
١١٧	غزو المشركين للمدينة في معركة أحد	٢٤٦	قانون إستقراء المسائل من التشابه اللفظي في القرآن
١٢٠	الحصار على بني هاشم	٢٥٢	سرية أبي سلمة إلى قطن
١٤٠	نزول القرآن	٢٦٣	نتائج سرية أبي سلمة
١٤٨	قانون توثيق التنزيل للوقائع	٢٦٨	كتيبة حمراء الأسد فرع معركة أحد
١٥١	قانون آيات الوقائع	٢٧١	قانون القلم الإيماني

الفهرس

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١٥٨	آيات الأحكام ودلالاتها على عدم الغزو	٢٧٤	الصرقة
١٦٣	بحث أصولي	٢٧٨	المقارنة بين الإستيلاء على قافلة أبي سفيان وبين نتائج معركة بدر
١٦٩	بحث أصولي بين الشرط والركن	٢٨٢	مبالغة أبي سفيان بالخطر فتنة عامة
١٧٤	كراهة الوقوف بمحاذاة الحجر الأسود	٢٨٥	اسماء مكة
١٨٠	من الغازي في معركة أحد	٢٩٦	ثناء القرآن على دفع القتال
١٨٧	أي المعارك أشد على المسلمين	٣٠١	ردود كريمة
٢٧٣	أبو عزة الشاعر	٣١٩	الفهرس

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

١٦٨٨ لسنة ٢٠١٩